



رواية

ر

جوستين

لورانس داريل



Bibliotheca Alexandrina

0030847

ترجمة : د. فخرى لبيب

دار سعاد الصباح

جوستین

الطبعة الأولى ١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة ©

دار سعاد الصباح

ص.ب : ٢٧٢٨٠

الصفحة ١٣١٣٣ - الكويت

ص.ب : ١٣ المقطم - القاهرة

الإشراف الفني : حلمى التونى



رواية

رباعية الأسكندرية

جوستين

لورانس دارييل

ترجمة : د. فخرى لبيب



دار سعاد الصباح

جوستين

رواية « جوستين » هي الجزء الأول من (رباعية الإسكندرية) التي كتبها «لورانس داريل» عن الإسكندرية . وهي تحكي قصة امرأة تعيش في حماة خطيئة لا تزهدا ... إنها تتذوق كل من تراه عينها ، لكنها أبداً لا ترقى .. فهي تنهل من ماء ملح أسن يزيد من لهيب ظمئها .

وإذا كانت جوستين هي المحور الرئيسي للرواية ، فإن هناك محاور ثانوية عديدة :

هناك « نسيم » الزوج الغافل ، المنتقم دون أن يصل إلى مبتغاه .. و« بلتازار» فيلسوف الخطيئة والشذوذ ، و « كليا » التي تعشق جوستين وتهيم بها . و «كابود يستريا » الثعبان الناعم العايب . و « سكوبي » الإنجليزي الطاعن في السن الذي عينته الحكومة المصرية حينذاك - كرمًا منها وزلفى - كمستول عن مكافحة الرذيلة ، فبلغت الرذيلة في عهده حدًا هائلًا غدا بعده من الضروري ترقيته ونقله . و « ميليسا » المومس الفاضلة ، وأكثر المجموعة شرفًا ونقاء .

وتتجمع كل تلك المحاور في حبكة رائعة وبأسلوب شعري لتعطينا صورة عن الحياة التي كان يعيشها في الإسكندرية قطاع من الأجانب ومن ارتبط بهم . إنها حياة تغطي سطحها الخضرة المزدهرة بينما تمر أعماقها بالعنف والعن.

الجزء الأول

البحر هائج اليوم مرة أخرى ، وللريح عصف مدو . وفي وسعك أن تحس تباشير الربيع في قلب الشتاء . وسماء من لؤلؤ عار دائي حتى الظهيرة ، والجنادب تحتمي بالأماكن الظليلة . وتبسط الريح الآن السهول الشاسعة ، تنهب السهول الشاسعة ...

لقد هربت إلى هذه الجزيرة ، ومعى بعض الكتب القليلة والطفلة — طفلة «ميليسا» — إنني لا أدري لم استخدمت كلمة « هربت » ، فالفلاحون يقولون في مزاح ، إن الرجل العليل وحده هو الذي ينتقي مكاناً نائياً كهذا المكان ليجدد قواه . حسناً . إذا ابتغيت أن تضع الأمر على هذا النحو ، إذن فقد أتيت إلى هنا لتندمل جراح نفسي .

في الليل ، عندما تزمجر الريح وتنام الطفلة في هدوء ، في سريرها الخشبي الهزاز ، إلى جوار المدفأة المليئة بالأصداء ، أشعل مصباحاً وأنا أهيم ، أفكر في أصدقائي — في «جوستين» و «نسيم» ، في «ميليسا» و «بلتازار» — وأعود حلقة بعد حلقة من أول سلسلة الذكريات إلى آخرها ، إلى المدينة التي استوطنها معاً لفترة قصيرة : المدينة التي عاملتنا كنبتها فرسبت في نفوسنا تناقضات كانت في الواقع تناقضاتها هي ، لا تناقضاتنا نحن كما اعتقدنا خطأ : «الإسكندرية» الحبيبة .

ما كان في وسعي أن أدرك الأمر كله ، إلا بعد أن أذهب بعيداً عنها كل هذا البعد . وأنا إذ أعيش على هذه الصخرة العارية ، تنتزعي نجمة «الدب الأكبر» من الظلام كل ليلة ، بعيداً عن غبار تلك العاصري الصيفية ، المحمل بالجبر ، أصل في النهاية إلى أنه ليس صواباً أن يدان أى منا بما حدث في الماضي ، إنها

المدينة التي يجب أن تدان ، وإن كان يتحتم علينا نحن أبناءها أن ندفع الثمن .



أولاً وقبل كل شيء ، ما كنه مدينتنا هذه ؟ ما الذي تبعثه في النفس كلمة الإسكندرية ؟ في لحظة خاطفة أرى بعين خيالي ألف شارع كتم الغبار أنفاسها . إنها اليوم ملك للذباب والشحاذين ، وهؤلاء الذين يحظون بوجود يتوسط هذين الفريقين . خمسة أجناس ، وخمس لغات ، و « دسنة » من المذاهب : خمسة أساطيل تدور بظلالها اللزجة عبر البحر خلف حاجز الميناء . إلا أن هناك ما يزيد على خمسة أجناس يبدو العنصر اليوناني الشعبي متميزاً فيما بينها . والغذاء الجنسي الذي يرقد في متناول اليد مذهل في تنوعه وغزارته . ولكن لا تتوهم أبداً أنه مكان سعيد . إن العشاق الرمزيين للعالم الهيليني الحر ، قد استبدلوا هنا ، في هذا المكان ، بشيء ناعم مخنث ، شيء مقلوب على نفسه . إن الشرق لا يرحب بغوضى الجسد الحلوة ، لأنه قد تخطى مشكلة الجسد . إنني أتذكر « نسيم » وهو يقول ذات مرة - وفي اعتقادي أنه كان يقتبس ما يقول - إن « الإسكندرية » تفعل بالحب ما تفعله معصرة النبيذ ، وإن الخارج منها إما أن يكون رجلاً مريضاً أو يعانى الوحدة أو نبياً - أعني بما أقول ، كل الذين جرحوا بعمق في قدرتهم الجنسية .



ملاحظات عما تتركه المناظر الطبيعية من أثر ... تتابع طويل للمشاهد ، الضوء ينساب خلال عطر الليمون . الهواء مشحون بتراب الأجر برائحته الحلوة . رائحة الأرصفة الحارة وقد أطفئت بالماء . سحببات خفيفة ندية ، تقرب الأرض ، لكنها نادراً ما تحمل أمطاراً . وينتشر فوق هذا كله اللون الأحمر المغبر ، والأخضر المغبر ، والأرجواني الجبري ، والقرمزي ، فوق هذا كله ، وقد صبغ مياه البحيرة . وفي الصيف تعطي رطوبة البحر للهواء لمعاناً خفيفاً . ويقبع كل شيء تحت غطاء صمغي .

ثم يهب في الخريف هواء جاف سريع ، قاس بما حمل من كهرباء ساكنة ،
يلهب الجسد خلال ملبسه الخفيف . ويعالج الجسد ، وقد عادت إليه الحياة ،
قضبان سجنه . وعاهرة سكرى تسير بالليل في شارع مظلم ، تنثر شذرات من
أغان كأوراق الزهر . أترى في هذا المكان سمع « أنطونيو » ألحان موسيقى
رائعة تخدر القلب ، أغرته أن يستسلم إلى الأبد للمدينة التي أحبها .

وتشرع أجساد الشباب الخاملة في البحث عن صحبة عارية . ويجلس
الفتيان في تلك المقاهى الصغيرة ، حيث كان « بلتازار » وشاعر المدينة الشيخ (١)
يترددان كثيراً ، يلعبون النرد تحت مصابيح البترول ، وهم لا يستقرون على
حال ، تزعجهم ما تثيره تلك الريح الصحراوية الجافة التي تفتقد الشاعرية
وتبعث في النفس القلق ، يتلفتون يراقبون كل غريب . إنهم يجاهدون للتقاط
أنفاسهم ، ويتذوقون طعم الجير الحى مع كل نسمة من نسيمات الصيف .



كان على أن أحضر إلى هذا المكان حتى أعيد من جديد تشييد تلك المدينة في
ذهنى تشييداً كاملاً . المناطق التي تخيم الكآبة عليها كما رآها الرجل الشيخ
ملئية بحطام حياته الأسود . طنين عربات الترام وهي تنقض فوق قضبانها
الحديدية تخترق ميدان « الأزارطة » الملون بلون البود . أوراق بلون الذهب
والفسفور والمغنسيوم . هنا كثيراً ما التقينا . وفي الصيف كانت توجد دكة قد
رصت عليها شرائح البطيخ الأحمر الذي كانت تحب أكله . والمشروبات المثجة
المنعشة . بالطبع كانت تحضر متأخرة بضع دقائق . لعلها قادمة لتوها من لقاء
في غرفة معتمة ، الأمر الذي أنأى عنه بفكرى . ولكن كم كانت شفتاها
المنفرجتان حول فمها كأوراق الزهر رطبة وفتية وهي تنقض على كصيف
ظامى . ربما ما يزال الرجل الذي تركته يجتر ذكراها مرة بعد أخرى ، وربما ما

(١) الشاعر ك . ب . كافاني .

تزال هي كما لو كانت مغبرة بلقاح قبلاته . إلا أن هذا لا يهم على أى حال ، فأنا أحس بثقل جسدها اللدن وهي تتكىء على ذراعي تبتهس في صفاء الناكرين لذاتهم ، هؤلاء الذين لا يخفون أسراراً . لقد كان ممثلاً أن نقف هناك ، مرتبكين ، خجلين ، إلى حد ما ، تتلاحق أنفاسنا ، لأننا ندرى ما يبغى كل من الآخر . فالرسائل تمضى وراء وعينا ، خلال الشفاه الممتلئة ، والعيون ، والمشروبات المثلجة ، والدكة الملونة . نقف هناك لا نبالي بما حولنا ، وأصبعانا الصغيران متشابكان ، نشرب جزءاً من المدينة ، في الأصل المفعم برائحة الكافور .



كنت الليلة أقلب النظر خلال أوراقى . لقد تحول بعضها إلى ما يفيد المطبخ ، والبعض الآخر أتلفته الطفلة . إن هذا النوع من الحكم الصادر على أوراقى يعجبني ، لأنه يتضمن لا مبالاة العالم الخارجي بما يشيده الفن ، « لا مبالاة » بدأت أنا أشارك فيها . ومع ذلك فما جدوى تشبيهه رقيق « لميليسا » بينما ترقد هي مدفونة على عمق ، كأية مومياء ، في رمال المصب الأسود الضحلة الدافئة . إلا أن تلك الأوراق التي أحرص عليها بعناية هي المجلدات الثلاثة التي كانت تدون فيها « جوستين » يومياتها . كذلك الأوراق التي تسجل جنون « نسيم » . لقد أعطاهما « نسيم » كلها إلى ونحن نفترق قائلين :

« خذ هذه وأقرأها . هناك الكثير فيها عنا جميعاً . إنها ستعاونك على احتمال ذكرى « جوستين » دون إجحاف ، كما كان على أن أفعل » . لقد حدث هذا في القصر الصيفى بعد موت « ميليسا » ، وهو لا يزال على يقين بأن « جوستين » ستعود إليه . إنني كثيراً ما أفكر والرغبة تخيم على ، في حب « نسيم » « لجوستين » . أي حب يمكن في ذاته أن يكون أكثر عمقاً وأمتن أساساً من ذلك الحب ؟ لقد لون تعاسته بنوع من النشوة ، باستعذاب الألم الذي تتوقع أن تلقاه عند القديسين لا مجرد العشاق . ومع ذلك فلمسة واحدة من الملاطفة

كانت كفيفة بأن تتنقذ نفسه من ذلك الألم الهائل العميق . إنني أعرف أنه من السهل أن ينتقد الإنسان غيره . إنني أعرف ذلك .

البحر : هو المقياس الوحيد للزمن في تلك الامسيات الشتوية بسكونها الشامل . إن إيقاعه الواهن في الذهن هو اللحن الذي كتبت على نغمه تلك الكتابات . الإيقاعات الخاوية لمياه البحر ، تلحق جراحها ، تهدر على طول منافذ الدلتا ، تغور فوق تلك الشطآن المهجورة ، الجرداء ، جرداء إلى الأبد ، تحت طيور النورس : بلونها الرمادي الذي يتخلله الأبيض ، والتي تمضغها السحب . لو حدث وكانت هنا أية سفينة شراعية ، لتحطمت قبل أن يظللها الشاطئ . وغُسل حطامها فوق نتوءات الجزر ، حيث ينتهي في جوف المياه الأزرق ، آخر جزء فيها ، وقد أكلته عوامل التعرية ... ثم ينتهي .

* * *

أنا والطفلة وحيدان تماماً ، ما خلا الفلاحة العجوز المجعدة الوجه . والتي تأتي فوق بغلها كل يوم من القرية ، لتنظيف المنزل . الطفلة سعيدة ونشطة وسط هذا المحيط الذي لم تألفه . لم أطلق عليها اسماً بعد ، لكنه بالتأكيد سيكون « جوستين » - وهل هناك اسم غيره ؟

أما بالنسبة لي . فأنا لست سعيداً ولا تقيساً . أنا أرقد معلقاً كشعرة أو ريشة في خليط الذكريات الضبابية . لقد تكلمت عن عدم جدوى الفن ، ولكني لم أضف شيئاً صادقاً عما يبعثه في النفس من سلوان . إن العزاء الذي يمنحه مثل هذا العمل الذي أقوم به بعقلي وقلبي يكمن فقط في أعماق صمت الرسام أو الكاتب ، حيث يمكن أن يعاد تشكيل الحقيقة وصياغتها وبناءها حتى تكشف عن وجهها المعبر . وفي الحقيقة فإن تصرفاتنا الظاهرة ما هي إلا الغطاء الخشن الذي يخفي نسيج الذهب - يخفي دلالة النموذج الذي نعينه . لأنه يبقى لنا نحن الفنانين ، ذلك التصالح الودي الممتع - من خلال الفن - مع كل ما أصابنا بالجراح أو الخذلان ، خلال حياتنا اليومية . ونحن على هذا النحو لا نتجنب

القدر كما يحاول عامة الناس أن يفعلوا ، لكننا نسعى إلى تحقيقه بقدرته الأصلية .. نحققه بالخيال . وإلا فلماذا يوجع كل منا الآخر ؟ كلا . فإن الغفران الذي أنشده - والذي قد أناله - ليس غفراناً يمكن أن أراه في عيني « ميليسا » . الورديتين اللامعتين ، ولا في نظرة « جوستين » القاتمة ، قتامة حاجبها . لقد سلك جميعنا الآن سبلاً متباينة ، لكنني أحس في هذا التمزق الهائل الذي يصيبني لأول مرة وأنا في سن النضج ، بأبعاد فني وسبل حياتي وقد عمقت بذكراهما إلى أبعد الآمال . إنني أستعيدهما بفكري من جديد ، وكأنما هنا فقط - حيث المنضدة الخشبية جوار البحر تحت شجرة الزيتون ، هنا فقط في وسعي أن أوفيهما ما تستحقان ، حتى تستمد كتابتي هذه طعمها من بعض عناصر حياتهما - من أنفاسهما ، جلدهما ، أصواتهما . ولانسجها جميعاً في الأنسجة المرنة لذاكرة الإنسان . إنني أودهما أن يبعثا من جديد ، أن يبعثا إلى الحد الذي يغدو فيه الألم فناً . ربما كانت تلك محاولة فاشلة ، لكنني لا أستطيع أن أقرر ذلك . إذ ليس في وسعي إلا أن أحاول .

انتهينا اليوم ، أنا والطفلة ، من بناء أرضية مدفأة المنزل . كنا نتحدث خلال العمل في هدوء ، أنا أتحدث إليها كما لو كنت أحدث نفسي عندما أكون بمفردي ، وكانت تجيب بلغة مليئة بالحماس من صنعها هي . ودفناً الخاتمين اللذين اشتراهما كوهين « لميليسا » في الأرض تحت قاعدة المدفأة طبقاً لعادات تلك الجزيرة فهذا العمل يجلب الحظ الطيب لسكان المنزل .



عندما إلتقيت « بجوستين » كنت ، على وجه التقريب ، رجلاً سعيداً . لقد انفتح أمامي فجأة باب يقودني إلى علاقة وصال مع « ميليسا » - علاقة وصال لم ينل من روعتها أنها لم تكن متوقعة ، وأنني لم أكن أستحقها على وجه الإطلاق . فأننا ككل الانانيين لا أطيق العيش وحيداً . وأقول صادقاً ، إن آخر سنة من سنى العزوبة قد أعيتني ، وقادني إلى اليأس قصوري عن الإلمام

بالشئون المنزلية ، وعجزى التام فيما يخص أمور الملبس والمأكـل والمصروفات النقدية . وكنت ، أيضاً ، قد سئمت الحجرات التي تتخذها الصراصير مأوى لها حيث كنت أعيش حينذاك ، يقوم على خدمتي خادم نوبي أعور يدعى « حميد » . إن « ميليسا » لم تخترق تحصيناتي المتداعية بأى من الصفات التي يمكن أن يعددها المرء في المعشوق - أو الجمال النادر ، أو الذكاء - كلا ، وإنما اخترقتها بقوة ما ، لا أملك إلا أن أدعوها براً وإحساناً ، بالمعنى اليوناني للكلمة . لقد تعودت أن أراها ، كما أنكر ، شاحبة ، أقرب إلى الهزال ، ترتدى سترة رثة من جلد كلب البحر ، تقود كلبها الصغير خلال الشوارع وقد غلفها الشتاء . ويدها المعروقتان كيدى مسلول ، وحاجباها مصنوعان مدببان إلى أعلى ليحملا عينيها البديعتين الجريئتين الصريحتين ، كنت أراها باستمرار ، يومياً ، لشهور عديدة غير أن جمالها المصبوغ العابس لم يثر في نفسي أية استجابة . كنت أمر بها يوماً بعد يوم وأنا في طريقي إلى مقهى (الأقطار) حيث كان ينتظرني « بلتازار » بقبعته السوداء ليلقي عليّ « بتعاليمه » . لم يدر بخاطري قط أنني سأغدو عشيق « ميليسا » .

كنت أعلم أنها قد عملت ذات مرة كموديل في أحد المراسم - وهي وظيفة لا تحسد عليها - وأنها تعمل الآن راقصة . وأكثر من ذلك كنت أعلم أنها كانت محظية تاجر فراء عجوز ، رجل سوقى فظ من تجار المدينة . إنني أكتب هذه الملاحظات ، لأسجل فقط قطاعاً من حياتي سقط في البحر « ميليسا ! ميليسا ! » .



إنني أعود بأفكاري إلى ذلك الوقت الذي كان فيه إحساسنا نحن الأربعة بالعالم حولنا يكاد يتلاشى ، الأيام غدت مجرد فواصل بين الأحلام ، فواصل بين مواقع الزمن المتغيرة ، بين الادعاء والتمثيل . والحياة خارج الإطار المحيط بنا ... مد من الأحداث التي لا معني لها ، يتحسس طريقه على طول المدى الذي تفقد فيه الأمور كيائها ، دون الدخول في أى جو محدد ، لا يقودنا إلى مكان ما ،

ولا يطلب منا شيئاً إلا المستحيل — وهو أن نوجد . و « جوستين » تقول ، إننا قد وقعنا في نطاق إرادة أقوى وأحزم من أن تكون إرادة إنسانية — نطاق الجاذبية الذي تحيط به « الإسكندرية » هؤلاء الذين اختارتهم كنماذج تعبر عنها .



الساعة السادسة . وقع أقدام أناس ترتدي الملابس البيضاء من ميدان المحطة . الحوانيت تمتلئ وتفرغ كالرئات في شارع الراهبات . أشعة شمس الاصيل المتطاولة تلون منحنيات الحديقة . والحمام المبهورة ، كحلاقات من ورق مبعثر ، تصعد إلى المناثر ، لتنال آخر شعاعات الضوء المتلاشي على أجنحتها . رنين الفضة فوق موائد الصياغة ، والصور الحديدي خارج البنك ما زال أسخن من أن يلمس . جلجلة العربات التي تجرها الخيل وهي تحمل الموظفين بطرابيشهم الحمراء التي تشبه أصص الزهور ، إلى المقاهي المطلة على البحر . هذه هي الساعة التي أضيق بها أكثر من غيرها ، عندما ألحها على غير انتظار من شرفتي ، تسير متناقلة نحو المدينة ، وقد انتعلت صندلها الأبيض ، وهي بعد نصف نائمة ، وتتمدد المدينة كسلحفاة عجوز تمعن فيها النظر ، وهي تنحي جانباً ، للحظة قصيرة ، خرق الجسد الممزقة . بينما يعلو فوق أنين وصرخات الماشية ، شذرات خنفاء من أغنية حب دمشقية قادمة من زقاق مختبئ إلى جوار السلخانة ، تقاسيم محشجة كصوت العظام وهي تطحن إلى دقيق .

والآن يفتح الرجال المجهدون مصاريع شرفاتهم ، يخطون في الضوء الحار الشاحب . يرمشون بأعينهم — كزهور أسقمها الحرمان من الضياء ، يقضون ما بعد الظهر في ضيق ، يتقلبون على سرر كرية ، تغلفهم الأحلام . لقد غدوت واحداً من هؤلاء الكتبة البؤساء أصحاب الضمير ، مواطناً من مواطني « الإسكندرية » . إنها تمر تحت نافذتي وهي تبتسم وكأن أمراً خاصاً يرضيها ،

تروّح وجنتيها بمروحة صغيرة مصنوعة من الغاب . إنها ابتسامة قد لا أراها مرة أخرى ، فهي تضحك فقط ، عندما تكون في صحبة الآخرين ، فتظهر تلك الأسنان البيضاء الرائعة إلا أن تلك الابتسامة الحزينة الخاطفة ، مليئة بميزة لا يعتقد المرء أنها تملكها - إنها القدرة على الإيذاء . لقد كان في وسعك أن تقول بأن شخصيتها أكثر ميلا للطابع المأساوي وأنها تقتقر إلى روح الدعابة العادية. إن الذكرى الملحة لتلك الابتسامة فقط ، هي التي ستجعلني أشك ، في قادم الأيام ، في صحة هذا الأمر .



كنت قد لمحتها مرات عديدة في أوقات مختلفة . وكنت بالطبع أعرفها شكلاً فحسب ، قبل أن نلتقي بزمان طويل ، معرفة جيدة . فلا يمكن في مدينتنا أن يكون مغموراً ، من كان دخله السنوي يزيد على مائتي جنيه . كنت أراها بمفردها تقرأ جريدة وتاكل تفاحة ، قرب البحر ، أو في ردهة فندق «سيسيل» ، بين أشجار النخيل المتربة . وقد ارتدت رداء مرصعاً بالفضة يشبه غمد الخنجر ، تمسك بفرائها الفاخر على ظهرها كما يمسك القروي عباءته ، وقد ثنت سبابتها الطويلة على مشبكه المعدني . ويتوقف «نسيم» عند باب صالة الرقص ، التي كان الضوء والموسيقى يغمرانها لقد افترقدها . وتحت أشجار النخيل ، جلس كهلان ، في خلوة عميقة ، يلعبان الشطرنج . وتوقفت «جوستين» كي ترقبهما . إنها لا تعرف شيئاً من تلك اللعبة ، لكن جو الصمت والتركيز الذي تفيض به الخلوة كان يخلبها . فتقف هناك طويلاً بين اللاعبين اللذين لا يسمعان شيئاً ، وبين عالم الموسيقى ، وكأنها حائرة في أيهما تغمر نفسها ، وأخيراً يجيء «نسيم» في رقة ، لياخذ ذراعها ، وليقف معاً للحظة ، هي تراقب اللاعبين وهو يرقبها . وأخيراً تذهب في رقة ، وعلى مضض ، وبرزانة إلى العالم المضاء ، وقد أطلقت تنهيدة قصيرة .

وفي أحوال أخرى ، كانت جوستين بلا شك ، لا تشرف نفسها كثيراً ، ولا

تشرفنا نحن الباقين جميعاً : ومع ذلك فما أشد قدرتها على التأثير وما أشد طراوة أنوثتها ، تلك المرأة التي كانت أكثر النساء استرجالاً وأوسعهن حيلة . لم يكن هناك مفر من أن تذكرني بتلك السلالة من الملكات الرهييات اللاشي تركن خلفهن رائحة حبهن المحرم النفاذة كرائحة الأمونيا (النوشادر) لتحوم كسحابة فوق وجدان سكان « الإسكندرية » . إن القطط العملاقة آكلة الرجال مثل « أرسينو » كن شقيقاتها الحقيقيات . ومع ذلك فإن شيئاً آخر كان يكمن وراء تصرفات « جوستين » ، شيئاً هو وليد فلسفة مأساوية حديثة توزن فيها الأخلاق والشخصية المخادعة أمام بعضهما البعض في كفتى ميزان واحد . لقد كانت ضحية شكوك حقيقية مثيرة . ورغم ذلك فقد كان في وسعي أن أرى علاقة مباشرة بين صورة « جوستين » وهي تنحني فوق بالوعة قدرة بها الجنين (السَّقْطُ) ، وبين « صوفيا » البائسة عشيقة « فالنتينوس » التي ماتت من أجل حب كان كاملاً بقدر ما كان خاطئاً من أساسه .



يشاركني في شقتي الصغيرة ، التي تقع في شارع « النبي دانيال » موظف صغير بالسلك القنصلي يدعى « جورج بومبال » . وهو شخصية متميزة بين الدبلوماسيين إذ يبدو منتصب القامة . إن طاحونة البروتوكول والحفلات - والتي تشبه كابوساً سريالياً - تغدو بالنسبة إليه مليئة بسحر غريب . إنه يرى الدبلوماسية بعيني « دونير روسو » . وينغمس فيها دون أن يدعها تلتهم ما بقى من عقله . وفي اعتقادي أن سر نجاحه يكمن في كسله الهائل الذي يكاد أن يكون خارقاً .

إنه يجلس إلى مكتبه في القنصلية العامة ، وقد غمره سيل لا ينقطع من بطاقات تحمل أسماء زملائه . إنه رجل ضخم الجثة كسول ، إنسان شديد البطء ، مولع بقتيلولة ما بعد الظهر « ويكر بيلون الإبن » . تفوح من مناديله رائحة « ماء البرتغال » الرائعة ، والنساء هن مدار حديثه المفضل . إنه بالطبع

يتكلم عن تجربة، فتتابع الزائرات إلى الشقة الصغيرة لا ينتهى. ونادراً ما يرى المرء نفس الوجه مرتين. « الحب هنا يمتع الرجل الفرنسي. فالنساء يقدمن قبل أن يفكرن بروية، وعندما يحين وقت الشك، ومعاناة تأنيب الضمير، يكون الوقت حاراً للغاية، وليس هناك من له القدرة على ذلك. إن هذه الحيوانية تفتقد اللباقة، إلا أنها تلائمني. لقد أبليت قلبي وعقلي بالحب، وأبغى أن أترك وحيداً. وخاصة يا عزيزي من هذا الهوس الديني لتشريح وتحليل الموضوع. إنني أود العودة، سليم القلب، إلى مزرعتي في « نورمانديا ».

ويقضي « جورج بومبال » فترات طويلة من الشتاء بعيداً في إجازة. وأنفرد أنا بالشقة الصغيرة الرطبة، ساهراً إلى ساعة متأخرة، أصبح كراسات التمرين ولا رفيق لي إلا « حميد » بشخير. لقد بلغت في هذه السنة الأخيرة، ذروة الانحطاط النفسي. إنني أفتقد قوة الإرادة لأصنع أى شيء بحياتي، لأحسن وضعي بالعمل الشاق، أن أكتب: حتى أن أضاجع. إنني لا أدري ماذا حل بي. إنها المرة الأولى التي أصادف فيها فشلاً حقيقياً لإرادتي في أن أحيي. وأقلب ما بين الحين والحين لفة مخطوط، أو نسخة أصلية أو كتاب شعر في إهمال يثير التقزز، في حزن، كشخص يطالع جواز سفر قديم.

من وقت لآخر كانت إحدى فتيات « جورج » الكثيرات تضل طريقها إلى وكري بأن تزور الشقة وهو غائب عنها. ومثل تلك الواقعة كانت، لفترة ما، تزيد من حدة « تبرمي بالحياة ». إن « جورج » إنسان كريم كثير التفكير في مثل تلك الأمور. فقبل رحيله (ولعرفته كم أنا فقير) كان يدفع مقدماً نقوداً لواحدة من السوريات من حانة « جولفو » ويأمرها بأن تقضي بعض الليالي في الشقة « تحت تصرفي » كتعبيره هو. وواجبها أن ترفه عني، وهي مهمة لا تحسد عليها بأي حال من الأحوال، خاصة وأنه لا يوجد في مظهري ما ينبئ عن افتقاري إلى البهجة. وأوضحت قلة الحديث سلوكاً مفيداً للألية التي تستمر طويلاً بعد أن يفقد المرء حاجته للكلام. وإذا اقتضى الأمر ففي وسعي أن

أصابع بارتياع ، ولكن دون عاطفة أو اهتمام ، فالمرء لا ينام نومًا جيدًا في هذا المكان !

إن بعض تلك اللقاءات مع مخلوقات مسكينة مرمقة دفعتها الحاجة المادية إلى أقصى حد ، ممتع ومؤثر كذلك ، إلا أنني قد فقدت كل اهتمام بتصنيف عواطفني ، حتى أنهن قد ظللن بالنسبة إلى كصور مهزوزة تومض على شاشة . لقد قالت « كليا » ذات مرة ، « هناك أشياء ثلاثة يمكن القيام بها مع امرأة ، أن تحبها ، أن تعاني من أجلها أو تحيلها إلى مادة للأدب » . وكنت أعاني إفلاسًا في مجالات كل تلك المشاعر .

إنني أسجل هذا لأظهر المادة الإنسانية التي لا يرحى منها والتي اختارت « ميليسا » أن تمارس عملها عليها ، أن تنفث في خياشيمي بعض أنفاس الحياة . لم يكن سهلاً عليها أن تحمل هذا العبء المزدوج إلى جانب مرضها وأحوالها الخاصة البائسة . أن تضيف أعبائي إلى أعبائها يحتاج إلى شجاعة حقيقية ، لعل اليأس قد ولد لديها هذه الشجاعة ، لأنها ، هي الأخرى ، كانت قد بلغت الحضيض . لقد كنا زملاء في الإفلاس .

كان تاجر الفراء العجوز يتبعني لأسابيع خلال الشوارع ، يحمل مسدسًا ينقل جيبه . ولقد كان مطمئنًا أن أعرف من أحد أصدقاء « ميليسا » أن المسدس لم يكن محشورًا . إلا أن مطاردة هذا الرجل العجوز لي كانت رغم ذلك أمرًا مزعجًا ، ولا بد أن كلاً منا ، في خياله ، قد أطلق الرصاص على الآخر عند كل ركن من شوارع المدينة . ومن ناحيتي ، لم أكن أطيق النظر إلى هذا الوجه البليد المجذور بعناقيد الكآبة اليهيمية للملامحه المعذبة التي تكسو وجهه . لم أكن أطيق التفكير في ملاطفاته السمجة الثقيلة لها : هاتين اليدين الصغيرتين الراشحتين . عرقًا المغطتان كالقنفذ بالشعر الأسود الكثيف . لقد استمر هذا الحال لفترة طويلة ، ثم نما فيما بيننا ، بعد عدة شهور ، شعور غريب بالآلفة . كنا كلما التقينا نومي ونبتسم لبعضنا البعض . وذات مرة التقينا في أحد البارات ،

ووقفت إلى جواره قرابة نصف ساعة ، وكدنا نتبادل الحديث ، إلا أن أحداً منا لم تكن لديه الشجاعة ليبدأه . لم يكن هناك من موضوع مشترك للحديث سوى « ميليسا » . وبينما أغادر البار لمحتني في إحدى المرايا الطويلة ، وقد أحنى رأسه يحمق في كأس . لقد صدمتني شيء ما في هيئته ، شيء في مظهره ، كعجل بحر مدرب يتشبث بالمشاعر الإنسانية . وأدركت لأول مرة ، أنه من المحتمل أن يكون قد أحب « ميليسا » بالعمق الذي أحببتها به . ورثيت لقبه وعجزه المزعج الضائع والذي يواجهه به مشاعر جديدة عليه ، مشاعر كالغيرة والحرمان من المحظية التي يعزها .

وفيما بعد ، حينما كانوا يقلبون جيوبه ، رأيت بين خليط الحاجيات الموجودة زجاجة عطر صغيرة فارغة من النوع الرخيص الذي كانت تستعمله « ميليسا » ، فأخذتها معي إلى الشقة ، حيث بقيت على المدفأة لعدة شهور قبل أن يلقي بها « حميد » خلال حملة التنظيف الشامل للشقة . ولم أخبر « ميليسا » بهذا الأمر . ولكن عندما أكون وحدي بالليل بينما « ميليسا » ترقص أو ربما تضاجع واحداً من معجبيها ، بسبب الحاجة ، كنت غالباً ما أتفحص تلك القارورة الصغيرة في حزن وانفعال ، أتأمل وأفكر في حب هذا الرجل العجوز ، هذا الحب الفظيع ، وأقيسه بحبي . وأتذوق – واضعاً نفسي مكانه – ذلك اليأس الذي يجعل المرء يتشبث بشيء صغير منبوذ ، ما زال مشبعاً بذكرى الحبيب الخائن .

لقد عثرت على « ميليسا » فوق سواحل « الإسكندرية » الموحشة ، وقد غسلتها المياه كطائر أوشك أن يفرق ، وقد تحطم فيها جانبها الجنسي .



شوارع تنطلق من أحواض السفن ، مثقلة بمنازل عفنة نخرة ، تتنفس في أفواه بعضها البعض ، مقلوبة على ذاتها . شرفات تعج بالفئران ، وعجائز

النساء وقد امتلأ شعرهن بدم القراد . جدران تقشر طلاؤها تميل سكرى شرقاً وغرباً عن مركز ثقلها الحقيقي . شريط الذباب الأسود يلصق نفسه إلى شفاه وعيون الأطفال - ومسابع رطبة من ذباب الصيف في كل مكان ، ينهش ثقل أجسامها أوراق الذباب العتيقة المعلقة على المقاهى والأكشاك البنفسجية . رائحة الرواد المستحمين في رغوة عرقهم تشبه رائحة سجادة سلم بالية . ثم ضجيج الشارع : صياح وصليل بائع العرقسوس الصعيدي يدق أقذاره المعدنية معاً كوسيلة للإعلان عما معه ، والصرخات التي لا يكتثر بها أحد ، تخترق الضوضاء من حين لآخر كصرخات حيوان رقيق التكوين تزال أحشاؤه. الآلام كالبرك ، حضانة للشقاء الإنساني بمقادير تجعل المرء مأخوذاً، وقد فاضت مشاعره الإنسانية في طوفان من التقزز والهلع .

كنت أبغى لو أستطيع تقليد طريقة « جوستين » المباشرة الواثقة من ذاتها ، وهي تشق طريقها خلال تلك الشوارع نحو مقهى « الباب » حيث كنت في انتظاريها . جلسنا عند القوس المتهدم ، الذي يجاوره باب المقهى ، نتجاذب أطراف الحديث بكل براءة إلا أن حديثنا قد غدا بالفعل مشبعاً بتفاهم مشترك ، اعتبرناه ، فلا سعيًا بصداقة خالصة . وتملكتنا فقط ، ونحن فوق تلك الأرضية الموحلة الداكنة . نحس محور الكرة الأرضية يبرد في سرعة مائلاً نحو الظلام ، رغبة في أن تتصل أراؤنا وخبراتنا التي تخطت مجال الفكر المألوف للحديث بين الناس العاديين . كانت تتكلم كرجل . وكنت أخطبها كما لو كانت رجلاً . في وسعي فقط أن أتذكر طراز وقيمة تلك الأحاديث ، لامادتها . وأنا إذ أجلس هناك متكئاً على كوع نسيته ، أشرب العرقي الرخيص ، وأبتسم لها ، أستنشق عطر الصيف الدافئ المنبعث من ردائها وجلدها ، عطر يسمى ، ولا أدري لماذا ، « جاميه ده لافي »* ..

* أي « أبداً بالمره » .

هناك لحظات تمتلك الكاتب لا العاشق ، لحظات تعيش إلى الأبد ، لحظات في وسع المرء أن يعود إليها في ذاكرته مرة وأخرى ، أو يستخدمها معيناً يمكن أن يشيد عليه دوره في الحياة ، ألا وهو الكتابة . في وسع المرء أن يلوّث تلك اللحظات بالكلمات ، ولكن ليس في وسعه أن يفسدها . وفي هذا السياق أيضاً ، أستعيد لحظة أخرى مماثلة ، وأنا راقد إلى جوار امرأة نائمة في حجرة رخيصة قرب الجامع . في ذاك الفجر الربيعي المبكر ، بنداه الكثيف ، المرسوم فوق الصمت ، الذي يبتلع المدينة بأكملها قبل أن توقظها الطيور ، التقتلت أذنائى صوت المؤذن الأعمى العذب وهو يرتل — صوت معلق كالشعرة في الطبقات العليا لجو الإسكندرية وقد رطبها النخيل — يرتل كلمات الأذان وبعض آيات القرآن القصيرة يتحدث خلالها عن كمال الإله ، الدائم (وهي تكرر ثلاث مرات ، كل منها أبداً من السابقة في تنغيم عذب مرتفع) وكمال الإله المراد ، الدائم ، الواحد ، العالى : كمال الإله الواحد الأحد ، كماله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا يعصيه أحد ، ولا ينوب عنه أحد ؛ ليس له كفو ولا خلف ، كماله المعظم .

ويشق الدماء العظيم من الكلمات الوضاءة طريقه إلى وجداني الناعس ، كحية ، لفة بعد لفة ، وصوت المؤذن يهبط في هيبة من نغمة إلى نغمة حتى يبدو الصباح جميعه كثيفاً بقدرته الغريبة على لأم الجراح ، وإيماءات منة غير مستحقة أو منتظرة تعمر تلك الحجرة الرثة ، حيث رقدت « ميليسا » تتنفس في هدوء كطير النورس وهي تهدد فوق لا لا المحيط بلغة لن تعرفها أبداً .



من الذي يستطيع أن يزعم ؛ بأن « جوستين » ، لم يكن لها جانبها الأحمق؟ . عبادة اللذة ، الخيلاء العابرة ، الإهتمام بأن يكون لمن دونها فكرة طيبة عنها ، التعالي . كان في وسعها ، إذا شاءت ، أن تكون مثيرة للمتاعب . حقاً ، حقاً . إلا أن كل الشواثب يغذيها المال . إنني لا أقول إلا أنها كانت تفكر كرجل في كثير من

الامور ، بينما كانت تتمتع في تصرفاتها بشيء من الاستقلال الواضح المنطلق الذي يبدو في مظهر الرجال . كانت اللفة التي تجمعنا ذات طابع عقلي غريب ، واكتشفت منذ فترة مبكرة ان في مقدورها قراءة الافكار بطريقة لا تخطئ . لقد كانت تواتينا الافكار في ذات الوقت . إنني أتذكر ذات مرة أدركت فيها أنها تشاركني بعقلها فكرة كانت لتوها قد انبثقت في عقلي ، وهي أن هذه المودة يجب ألا تمتد أكثر من ذلك ، وأن ما سننتهي إلى تكشفه وراء ألوان الشهوة القائمة النسيج ، سيكون صداقة قد تعمقت إلى المدى الذي سيجعلنا أسيراهما أبد الدهر . لقد كان هذا ، إذا أحببت ، غزلاً بين عقليين أرهقتهما قبل الاوان تجربة ظهر أنها أخطر بكثير من حب قائم على الجاذبية الجنسية .

وعجزت عن تأمل تلك الفكرة ، دون أن يتتابني الفزع ، فقد كنت أعرف حب « جوستين » الكبير « لنسيم » كما كنت أنا نفسي أحبه حباً جماً . كانت ترقد إلى جوارني تتنفس في هدوء وتحملق بعينيها الكبيرتين في السقف الذي تكسوه الملائكة . وقلت لها : « إن حباً كحُبنا هذا ، بين مدرس فقير وواحدة من سيدات المجتمع السكندري ، لن يؤدي إلى شيء . وكـم سيكون مرأً على النفس ، أن ينتهي كل شيء إلى فضيحة من تلك الفضائح التقليدية التي تركنا وحيدين ، وتضع على عاتقك عبء اتخاذ قرار في كيفية التخلص مني » . كانت « جوستين » تكره سماع الحقيقة . فاستدارت على مرفقها تحملق في بعينين مضطربتين لمدة طويلة ، ثم قالت بصوتها الأجش الذي غدوت أحبه كثيراً ، « لا مجال للخيار في هذا الأمر ، إنك تتكلم كما لو كان هناك مجال للخيار . إننا لسنا أقوياء أو أشراراً بالدرجة التي تمكننا من ممارسة الاختيار . إن كل هذا إنما هو جزء من تجربة قد دبرها شيء آخر ، ربما تكون المدينة ، أو جزء آخر من ذاتنا ، من أين لي أن أعرف » .

إنني أتذكرها جالسة أمام المرايا المتعددة عند الخياطة ، تجرب لها رداء من « الشارك سكين » وهي تقول :

« انظر ، خمس صور مختلفة لنفس الشيء ، لو أنني مارست الكتابة لحاولت إظهار تأثير تعدد الأبعاد في الشخصية . نوع من تعدد زوايا الرؤية . لماذا لا يعبر الناس عن أنفسهم بأكثر من زاوية واحدة في نفس الوقت . »

ثم تتأبث وأشعلت سيجارة . وجلست فوق السرير وقد أمسكت كعبيها الدقيقين بيديها ، وهي تتلو في ببطء ونطق معوج تلك الأبيات الرائعة للشاعر اليوناني الشيخ عن قصة حب ، مضى عليها زمن طويل - إلا أن الأبيات فقدت مذاقها وهي تتلى بالإنجليزية .

وأحسست مرة أخرى ، وأنا أسمعها تتلو أبيات الشاعر ، وتلمس في رقة كل مقطع من شعر هذا المفكر اليوناني الساخر ، بالقوة الغامضة الغريبة لتلك المدينة - وأرضها المسطحة الغرينية وأجواءها المرهقة - وأدركت أنها ابنة حقيقية للإسكندرية ، تلك المدينة التي لا هي باليونانية أو السورية أو المصرية ولكنها خليط ، شيء مشترك ، من كل هؤلاء .

وبأى إحساس بلغت المقطع ، الذي يلقي فيه الشيخ جانباً رسالة الحب القديمة التي أثارت أشجانه إثارة بالغة ويصرخ : « إنني أخرج في حزن إلى الشرفة ، أفعل أي شيء لأغير مجرى تلك الأفكار ، حتى لو كان مجرد رؤية حركة هامسة في المدينة التي أحب ، في شوارعها ومتاجرها . » وتسدفع «جوستين» بنفسها المصاريع لتقف في الشرفة المظلمة ، فوق مدينة من الأضواء الملونة ، تحس ريح المساء تهب من تخوم «آسيا» . وقد غفت للحظة عن جسدها .



« الأمير نسيم » ، إنها بالطبع نكتة ، على الأقل بالنسبة لأصحاب الحوانيت والتجار ذوي المعاطف السوداء الذين كانوا يرونه راكباً سيارته «الرولز» الفضية الفخمة بأغطية مدار عجالاتها الصفراء الباهتة في لون زهرة «الدافوديل» ، السائرة بهدوء في الطريق الظليل . ولتقديمه ، فقد كان قبطياً ،

ولم يكن مسلماً . ومع ذلك فقد اختير لقبه اختياراً موقفاً ، إذ كان « نسيم » كالأمراء في ترفعه عن الجشع العام الذي انغمست فيه غرائز السكندريين المجلبة بما فيهم أشدهم ثراء . ومع ذلك فإنه لم يكن في أى من العوامل التي جلبت عليه سمعة الشذوذ ، ما يثير الانتباه عند هؤلاء الذين عاشوا خارج نطاق الشرق . فهو لم يكن يبالي بالمال إلا لإنفاقه — تلك أولى خصاله ، أما الثانية فهي أنه لم يكن يمتلك شقة يمارس فيها الرذيلة ، لقد بدا شديد الإخلاص « لجوستين » ، وهي حالة نادرة الوجود . ولما كان شديد الثراء فقد سيطر عليه نفور عميق من المال ، جعله لا يحمل بنفسه أى شيء منه . كان ينفق على الطريقة الغربية ويعطي لأصحاب الحوانيت صكوكاً بخط يده . وكانت النوادي الليلية والمطاعم تقبل شيكاته الموقع عليها بإمضائه . ومع ذلك فإنه كان يفى بدينونه في دقة ، إذ يرسل سكرتيه « سليم » بالسيارة كل صباح ، كى يتعقب طريقه في اليوم السابق ، ويسدد كل ما تجمع عليه من ديون .

واعتبر سكان المدينة مسلكه هذا ضرباً من الشذوذ والتعالي إلى أقصى الحدود ، فقد كانت لهم خصال مكتسبة فظة واهتمامات منحلة وثقافة خاطئة لا تمدهم بأى خيط يقودهم لمعنى السلوك بمفهومه الأوربي ، ولكن « نسيم » لم يكن قد تعلم هذا السلوك فحسب واكتسبه ، بل لقد ولد له هذا السلوك . ففي هذا المجتمع المحدود ، والذي يحكمه سعار مخطط لجمع المال ، لم يكن ليوجد مجالاً لفاعلية الروح ، خاصة إذا كانت رقيقة ، مبالغة إلى التأمل . كان أقل الرجال ادعاء ، تعبر عنه أعماله التي تحمل الطابع الحقيقي لشخصيته . لقد كان الناس ميالين إلى أن يعزو سلوكه إلى ثقافته الأجنبية ، ولكن « ألمانيا » و« إنجلترا » لم تؤثرا في الحقيقة فيه إلا قليلاً ، لقد بلبلته ، وجعلته غير لائق لحياة المدينة . غرست الأولى فيما كان عقلاً فطرياً من عقول البحر المتوسط ، نزعة تأملية لما وراء الطبيعة ، بينما حاولت « أكسفورد » أن تجعله متعاليًا ، ولكنها لم تنجح إلا في تطوير نزعته الفلسفية إلى الحد الذي غدا فيه عاجزاً عن

ممارسة الرسم ، الفن الذي أحبه أكثر الحب . لقد فكر وقاسى كثيراً ، إلا أن التصميم على الإقدام — وهو أول الصفات اللازمة لمن يتدرب على الفن — كان ينقصه .

كان « نسيم » والمدينة على طرقي نقيض ، إلا أن رجال الأعمال فيها والذين كانوا على صلة يومية به لثروته الضخمة ، قد عمدوا إلى تخفيف كراهيتهم له بمعاملته في رفق يثير الضحك ، تفضل كهذا الذي يتعطف به المرء على أبله . لم يكن هنالك ما يثير الدهشة إذا ما دخلت عليه في مكتبه — هذا التابوت الحجري بفولاده المجوف وزجاجة المضاء — لتجده جالساً إلى المكتب الكبير (المغطى بالأجراس والبكرات والأضواء الباهرة) كاليتيم — يأكل خبزاً قاتم اللون وزيداً ويقرأ « فارساي » بينما يوقع الرسائل والمستندات ، بدون انتباه . كان ينظر إليك بذلك الوجه اللوزي الشاحب ، وقد كساه تعبير متجهم منكمش يكاد يكون توسلاً . ومع ذلك فقد كان هناك حبل من الصلب ممتد خلال كل تلك الرقة ، حيث كان يُفاجأ موظفوه على الدوام باكتشاف معرفته كل تفاصيل العمل ، رغم مظهره الساهي . كان من النادر أن تثبت صفقة عقدها ، أنها لم تكن قائمة على تقدير صائب . كان بالنسبة لموظفيه شيئاً يذكرهم بمن يوحى إليهم . ورغم ذلك (كانوا يتنهدون في حسرة ويهزون اكتافهم) فقد بدا وكأنه لا يبالي بالربح، وذاك ما تُعرّف به « الإسكندرية » الجنون .

كنت أعرفهما بالعيان — كما كنت أعرف كل امرئ في المدينة ، لمدة شهور عديدة ، قبل أن ألتقى بهما لقاء مباشراً . كنت أعرفهما بالعيان وبما يتمتعان به كذلك من سمعة . فإن حياتهما الفخمة المنطلقة والتي لا تراعي أى عرف أو تقليد ، قد جعلت لهما سمعة خاصة بين قاطنى المدينة المحليين : اشتهرت «جوستين» بكثرة عشاقها ، ونُظر إلى « نسيم » باعتبار أنه زوج « مجامل » ولقد راقبتهما يرقصان معاً مرات عديدة ، هو نحيل منخفض الخصر كامراً ، ويداها طويلتان منحنيان جميلتان . و « جوستين » برأسها الجميل وأنفها

العربي بطرفه الحاد الانحناء وعينيها الصافيتين وقد وسعتهما « البلادونا » .
كانت تنفرس فيما حولها كقهد نصف مدرب .

ولقد أقتعني البعض ، في ذاك الوقت ، بأن أحاضر عن شاعر المدينة في مرسوم
الفنون الجميلة — وهو نوع من النوادي التي يمكن لهواة الفن الموهوبين أن
يجتمعوا فيها وأن يستأجروا غرفة للرسم ، وما شابه ذلك . وقد وافقت لأن
ذلك كان يعني مبلغاً قليلاً من المال لشراء معطف « ميليسا » الجديد ، خاصة
والخريف على الطريق . إلا أن ذلك كان مؤلماً لي ، كنت أحس بالشاعر الشيخ
يملاً المكان حولي . وهكذا كان على أن أحاضر ناثراً الشوارع الحزينة حول
حجرة المحاضرة بشذا تلك الأبيات التي اعتصرها مما مارسه من حب أمتعته
رغم سوقيته ، حب ربما اشتراه بالمال ، فلم يدم إلا للحظات قصار ، إلا أنه يحيا
الآن في شعره . لقد أمسك عن قصد ، وبكل حنان ، تلك اللحظة العابرة ليثبت
كل ألوانها . يالها من صفاقة أن يحاضر المرء عن شاعر ساخر ، انتقى مادة
موضوعاته بطريقة طبيعية للغاية ، وبمثل تلك الغريزة المرفهة ، من شوارع
ومواخير « الإسكندرية » ، وأن يتوجه المرء بالحديث ، فوق ذاك ، لا إلى
مساعدي باعة الخردوات وصغار الكتبة — جمهوره الذي خلده — ولكن إلى شبه
حلقة وقورة من سيدات المجتمع اللواتي كن ينظرن إلى الثقافة التي عبر عنها
باعتبار أنها نوع من بنوك الدم : فجئن كي يمارسن عملية نقل الدم . والحقيقة
أن الكثيرات مذن قد تركزن حفلة للعلب « البريدج » من أجل تلك المحاضرة ،
رغم إدراكهن بأنهن سيكتئبن بدلاً من أن ينتعشن .

إنني لا أتذكر سوى قولي بأن وجهه يلازمني — الوجه المُفزع الحزين
الرقيق كما بدا في صورته الفوتوغرافية الأخيرة . لاحظت عندما تقاطرت
نساء ، أعضاء النادي ، الوقورات أسفل السلم الحجري ، إلى الشوارع المبتلة
حيث كانت سياراتهن المضاءة في انتظارهن ، وقد تركن الحجرة الهزيلة تسبح
في رائحة عطورهن ، إنهن قد تركن خلفهن طالبة وحيدة من طلبة العواطف

والفنون . كانت تجلس في آخر الصالة تدخن سيجارة وقد اتخذت سمت المفكر واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى بطريقة الرجال . لم تكن تنظر إلى ولكنها كانت تنظر إلى الأرض تحت قدميها بطريقة غير مهذبة . وأحسست بالزهو إذ فكرت أن هناك شخصاً واحداً ، ربما قدر ما أواجه من صعاب ، فجمعت حقيبة أوراق الرطبة ومعطفي القديم الواقسي من المطر وأخذت طريقي إلى حيث كان رزان خفيف نفاذ قادم من جهة البحر ، يجتاح الشوارع . وتوجهت إلى منزلي حيث لا بد وأن توجد « ميليسا » الآن مستيقظة وقد أعدت لنا عشاءنا فوق المنضدة المغطاة بأوراق الجرائد . لا بد أنها قد أرسلت « حميد » أولاً إلى الفرن ليحضر اللحم المشوى — حيث إننا لا نمتلك فرنًا خاصًا بنا في البيت ، وعبرت الشارع البارد إلى شعلات الحوانيت المضاءة في « شارع فؤاد » ورأيت في نافذة بقال علبة زيتون ، علبة تحمل اسم « أورفيتو » ، فدخلت الحانوت وقد تملكني حنين مفاجئ أن أكون على الجانب الحقيقي من البحر المتوسط ، وابتعت العلبة وفتحتها هناك : ثم جلست إلى مائدة رخامية في ذاك الضوء البشع ، وبدأت أكل « إيطاليا » ، جسدها الأسمر المقدد ، تربتها الربيعية وقد نسقتها الأيادي ، أعنابها المخصصة للندور . وأحسست أن « ميليسا » لن تستطيع فهم هذا على الإطلاق ، وعلى أن انتظاره بأني قد فقدت النقود .

لم أر في بادئ الأمر سيارتها الفارحة التي كانت قد تركتها في الشارع وألتها تدور . ودخلت الحانوت بغثة ، بطريقة سريعة مليئة بالعزم ، وقالت في ثقة تتظاهر بها النساء السحاقيات أو الثريات مع معدم واضح الحاجة .

« ماذا عنيت بملاحظتك التي أبديتها عن الطبيعة المتناقضة لقواعد السخرية » .

ونظرت إليها بطريقة خشنة ، فقد كنت عاجزاً عن انتزاع نفسي من «إيطاليا» . ورأيتهما تنحني إلى أسفل متجهة نحوي من المرايا التي تغطي ثلاثة حوائط للحجرة ، وقد كسا وجهها الأسمر المثير ، تحفظ متعال حائر . وكنت قد

نسيت بالتأكيد ، ما قلته بخصوص السخرية أو أى شيء آخر له علاقة بهذا الموضوع . فقلت لها ذلك في لا مبالاة طبيعية ، وتنهدت تنهيدة قصيرة كأنما تعبر عن ارتياحها بطريقة عادية ، ثم جلست أمامي وأشعلت سيجارة « كايورال » فرنسية ، وأخذت أنفاساً قصيرة مبتورة ثم أطلقت نفثات خفيفة من السدخان الأزرق في الضوء الحاد . ونظرت إلى في عبث طائش ، وأحسست بالحرج بينما كانت تراقبني بطريقة صريحة – وبدأ الأمر وكأنها تحاول أن تقرر أى فائدة يمكن أن ترجى منى . وقالت : « إنني أحب الطريقة التي اقتبست بها إشعاره عن المدينة . إن يونانيتك جيدة ، لا شك أنك كاتب » . قلت : « لا شك في ذلك » . إنه شيء يؤلم النفس أن يكون الإنسان مغموراً . وبدأ لى أنه لا يوجد ما يبرر متابعة هذا الحديث كله ، فقد كرهت على الدوام تلك المناقشات الأدبية . فقدمت لها حبة زيتون أكلتها في سرعة وبصقت النواة في يدها المكسوة بالقفاز كالقطة حيث أمسكتها دون أن تدرى ، وهي تقول :

« إنني أريد أن أأخذك إلى « نسيم » ، زوجي ، هل تصحبنى ؟ » كان رجل البوليس الذي ظهر في المرر واضح القلق بسبب السيارة المهجورة . كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها بيت « نسيم » الكبير بتماثيله والممرات التي يظللها النخيل ولوحات « كوريت » و « بونارد » وما شابه ذلك . لقد كان جميلاً وبشعاً في نفس الوقت . وأسرعت « جوستين » تصعد السلم الضخم . ولم تتوقف إلا لكي تنقل حبة الزيتون من جيب معطفها إلى زهرية صينية ، وهي تنادى « نسيم » طوال الوقت ، وأخذنا نتنقل من حجرة إلى أخرى محطمين الصمت . وأخيراً أجاب « نسيم » نداءها من المرسوم الضخم الواقع فوق السطح ، وانطلق « جوستين » إليه ، وبدأت لناظرى ككلب صيد ألقى بي عند قدميه ، ثم وقفت بعيداً تهز ذيلها . لقد أجهزت علّ .

كان « نسيم » جالساً يقرأ على قمة سلم ، وأخذ ينزل إلينا في ببطء ناظراً في أول الأمر إلى واحد منا ثم إلى الآخر . كان خجله يفوق منظرى الرث ، وشعرى

المبتل ، وعلبة الزيتون . ومن ناحيتي لم يكن في وسعي أن أقدم تفسيراً يبرر وجودي ، حيث إنني لم أكن أدرى لأى غرض أحضرتني « جوستين » إلى هذا المكان .

وأشفقت عليه فقدمت له زيتونة ، وبينما نجلس سوياً أتيننا على صفيحة الزيتون بينما « جوستين » تعد لنا الشراب وتتحدث ، إذا كنت أتذكر ، عن «أورفيتو» ، حيث لم يذهب أى منا . إنه عزاء كبير أن أعود بذاكرتي إلى ذلك اللقاء الأول . لم أكن قريباً إلى كليهما في يوم من الأيام كما كنت في ذلك اليوم ، أعني قريباً من حياتهما الزوجية ، لقد بدا لي حينئذ وكأنهما ذلك الحيوان الرائع ذو الرأسين الذي يمكن أن يكونه الزواج . وأدركت وأنا أراقب ذلك الدفء الشفوق في عينيهِ ، بينما استعدت كل الشائعات الفاضحة عن «جوستين» . إنه مهما كان ما فعلته ، حتى ما كان آثماً أو ضاراً في أعين العالم ، فإنها قد فعلته ، من زاوية ما ، من أجله . كان حبها له يشبه جلدًا يرقد داخله وقد خيط من حوله مثل « هرقل » الطفل ، ولقد قادتها على الدوام كل محاولاتها لتحقيق ذاتها في اتجاهه لا بعيداً عنه . أنا أعرف أنه لا يوجد في العالم مكان لمثل هذا التناقض الظاهري ، ولكن بدا لي حينئذ أن « نسيم » كان يعرفها ويتقبلها بطريقة يستحيل شرحها لامرئٍ ما زال الحب بالنسبة إليه مقيداً برغبة الامتلاك . ولقد قال لي « نسيم » ذات مرة - فيما بعد : « ماذا كان علي أن أفعل ؟ لقد كانت « جوستين » بالنسبة إليّ ، قوية للغاية في نواح عديدة جداً ، لقد كان في وسعي أن أتفوق في حبي لها ، وكان ذلك مطلبى على المدى البعيد . لقد تقدمتها - متوقعاً كل عثرة ، وحيث سقطت في كل مرة ، وجدتني هناك في انتظارها مستعداً أن أعاونها لتقف على قدميها ، مظهرًا أن ما حدث لا يهم . ومع ذلك فإنها عرضت للهوان أضال شيء في ذاتي - سمعتي » .

لقد دار هذا الحديث بعد لقائنا الأول بكثير . فقبل أن تجرنا البلايا بتشابكاتهما المشثومة . لم نكن نعرف بعضنا البعض بالقدر الكافي لنحدث في

صراحة كتلك الصراحة ، وأتذكره أيضاً وهو يقول ذات مرة - وكان هذا في الفيللا الصيفية قرب « برج العرب » : « ستصيبك الحيرة عندما أخبرك أنني كنت أعتقد بأن « جوستين » عظيمة على نحو ما . وأنت تعلم أن هناك أنواعاً من العظمة تدمر الحياة العادية إن لم تمارس في الفن أو الدين . ولقد أسىء إلى موهبتها عندما وجهت نحو الحب . لقد كانت بالطبع سيئة في عديد من الأمور ولكنها كانت أموراً بسيطة . كما أنه ليس في وسعي أن أقول : إنها لم تؤذ أحداً ، ولكن هؤلاء الذين أدتهم أكثر من غيرهم قد صيرتهم أكثر نضجاً . كانت تخلع عن الناس نفوسهم البالية . ولا بد أن ذلك كان يؤلمهم . وأخطأ الكثيرون في فهم طبيعة الألم الذي أوقعتهم فيه ، ولكني لم أكن واحداً منهم » . وابتسم ابتسامته التي كانت تمتزج فيها الحلاوة بمرارة يصعب التعبير عنها . وعاد يكرر في رقة نفس الكلمات من تحت أنفاسه « ولكني لم أكن واحداً منهم » .

* * *

« كابوديستريا » كيف نقدمه في هذا المقام ؟ إنه أقرب للشيطان منه إلى الإنسان الذي تظنه . رأسه كراس الحية ، مسطحة مثلثة بفصوصها الامامية الضخمة . ينمو شعره إلى الأمام بنفس الطريقة التي ينمو بها الشعر على رأس أرملة . يميل لسانه إلى البياض وهو لا يستقر على حال ، يعمل دائماً في المحافظة على شفثيه الرقيقتين رطبتين . إنه ثرى ثراء فاحشاً ولا يحتاج إلا لأن يرفع أصبعاً حتى يجاب إلى طلبه . يجلس طوال اليوم في شرفة نادي السماسرة يرقب النسوة العابرات ، بعين لا تهدأ ، عين امرئ تعبت بلا توقف خلال مجموعة قديمة من أوراق اللعب الملونة . ثم تصدر عنه ما بين الحين والحين « طرقة » شبيهة بتلك التي تصدر عن لسان الحرباء - إشارة لا يكاد يلمحها إلا من يتابعه . وعندها ينساب من الشرفة خيال رجل يلاحق المرأة التي أشار إليها . ويوقف رجاله النساء أحياناً علانية ويلحون عليهم باسمه ذاكرين قدرًا معينًا من المال ، وفي مدينتنا لا يحس بالهانة عند ذكر المال . إن بعض الفتيات

يضحك في بساطة . والبعض الآخر يقبلن في الحال . لن ترى البتة غضباً يكسو سماتهن . إذ لا يمكن أن ندعى الفضيلة أو الرذيلة ، فكلاهما أمر طبيعي .

ويجلس « كابوديستريا » بعيداً عن كل ما يجري ، في معطفه الطاهر الذيل المصنوع من الشارك سكين وقد تدلى منديله الحريري الملون على صدره .

حذاءه الرفيع يلمع . إن أصدقاءه يدعونه باسم « داكابو » لما اشتهر به من قدرة جنسية ضخمة كثروته - أو قبحه . إنه يمت بصلة قرابة غامضة إلى « جوستين » التي تقول عنه : « إنني أرثي لحاله ، فقد ذبل قلبه وتيبس في أعماقه ، وبقيت له حواسه الخمس ، كحطام زجاجة من النبيذ » . ومع ذلك يبدو أنه لا يضيق بمثل تلك الحياة الشديدة الرتابة . ولقد تميزت عائلته بحوادث الانتحار التي وقعت فيها ، ميراثه النفسي شقى بتاريخه الحافل بالاضطرابات والأمراض العقلية . ورغم ذلك لا يبدو عليه القلق ، وهو يلمس صدغيه بسبابته الطويلة ويقول « لقد اختل أسلافي جميعاً ، هنا في الرأس ، حتى أبى . لقد كان زير نساء كبير ، وعندما غدا عجوزاً للغاية كان لديه نموذج مصنوع من المطاط للمرأة الكاملة بحجمها الطبيعي . كان من الممكن ملؤه بالماء الساخن في الشتاء . كانت فائقة الجمال . وكان يدعوها باسم أمه « سابينا » . ويأخذها معه إلى كل مكان . كان يهوى السفر على عابرات المحيط . ولقد قضى بالفعل العامين الأخيرين من حياته على ظهر واحدة منها ، يقطع البحر إلى « نيويورك » جيئةً وذهاباً . وكان « لسابينا » صوان ملابس يثير العجب . كان مشهداً مثيراً أن تراهما يدخلان غرفة الطعام ، وقد ارتديا ثياب العشاء . كان يسافر مع حارسه ، رجلاً يدعى « كيل » . وبينهما كانت تسير « سابينا » بملابس السهرة الرائعة ، وقد أسندها كل من ناحية ، كامرأة جميلة سكرى . وفي الليلة التي مات فيها قال « لكيلي » أبرق إلى « ديمتريوس » وأخبره أن « سابينا » قد ماتت الليلة بين ذراعي دون أن تعاني ألماً . وقد دفنت معه على مسافة بعيدة من « نابولي » وضحك « كابوديستريا » ضحكة لم أسمع البتة ، أكثر منها صدقاً وطبيعية .

واكتشفت فيما بعد وأنا أكاد أجن من القلق وقد أثقلتني ديون «كابوديستريا» أنه أقل مجاملة مما كنت أعتقد، إذ حدث ذات مساء أن كانت «ميليسا» تجلس هناك نصف سكرى فوق مسند الأقدام إلى جوار النار، وقد أمسكت بأصابعها الطويلة المتأنية سند الدين الذي كتبته له وقد خط عليه بالحبر الأخضر كلمة «خالص» تلك الكلمة المقتضبة... إنها ذكريات موجعة. وقالت «ميليسا» «كان من الممكن أن تدفع «جوستين» دينك من ثروتها الضخمة. ولكنى لم أشأ أن أراها تشدد قبضتها عليك. فضلاً عن أنى ما زلت أرغب في أن أفعل شيئاً من أجلك، رغم أنك لم تعد تبالي بى - وتلك أقل تضحية. لم أكن أعتقد أنه سيؤلمك كثيراً أن أنام معه. ألم تفعل أنت نفس الشيء معى - أعنى ألم تقترض أنت النقود من «جوستين» كى ترسلنى بعيداً كى أكتشف بأشعة X؟ رغم أنك قد كذبت على بهذا الخصوص وقد عرفت أنا ذلك. أما أنا فلا أكذب - لا أكذب أبداً. هيا، خذها ومزقها، ولكن لا تقامر معه بعد ذلك. إنه ليس من طينتك».

وصدر عنها وهي تدير وجهها صوتاً كذلك الصوت الذي يأتيه العرب عندما ييصقون.

إننى لا أرغب في الكتابة عن حياة «نسيم» الخارجية - عن حفلات الاستقبال الفخمة المملة، والتي كانت تقام في البدء خصيصاً لزملائه من رجال الأعمال ثم كرسست فيما بعد لغايات سياسية غامضة. كنت أتوقف لحظة، بينما أنسل عبر البهو الكبير وفوق السلالم إلى المرسى، لأقرأ اللوح الجليدي الكبير الموضوع فوق المدفأة وعليه تصميم المائدة - لأرى من الذي وضع إلى يمين «جوستين» ويسارها. لقد قاما لمدة قصيرة بمحاولة رقيقة لضمي إلى تلك الاجتماعات إلا أننى سرعان ما سئمتها محتجاً بالمرض، رغم سعادتي بأن أفعل ما أشاء في الرسم والمكتبة الضخمة. وكنا نلتقي فيما بعد كالمتمارين، فتنطح «جوستين» ما تتقنع به في حياتها الاجتماعية من عواطف المرح، والمال

والنزق . كانوا يرفسون أحذيتهم في ضوء الشموع ، ويلعبون بأوراق اللعب كل إثنين معا . وعندما تذهب إلى فراشها قيماً بعد كانت تنظر إلى نفسها في المرآة الموجودة بالطابق الأرضي وتقول لصورتها : « أيتها اليهودية المتعبة الدعية المختلة » .

* * *

يقع محل « منمجان البابليونى » الحلاق على ناصية شارع « فؤاد الأول » و « النبى دانيال » . هنا يتمدد بومبال كل صباح إلى جوارى في المرايا . كنا نُرفع معاً في وقت واحد ثم نُؤرجح في هدوء إلى أسفل نحو الأرض وقد لفقنا كفراعنة أموات ، ثم نعود للظهور على السقف في نفس اللحظة وقد بسطنا كعينات نموذجية . لقد فرد علينا صبى صغير أسود قطع قماش بيضاء ، بينما الحلاق « يطرع » وهو يقلب رغوته الكثيفة الحلوة الرائحة في قدح الحلاقة الكبير « الفيكتورى » الطراز ، قبل أن يضعها على خدودنا بضربات مباشرة من الفرشاة . ثم يسلم عمله وقد تمت المرحلة الأولى منه إلى مساعده ، بينما يتوجه هو إلى سير جلدى كبير يتدلى بين أوراق اصطياد الذباب على الحائط الداخلى للمحل يأخذ في شحذ موس إنجليزي النوع .

إن « منمجان » الصغير ، قزم ذو عين بنفسجية لم تفقد طفولتها أبداً . إنه الرجل الذي يحتفظ بكل شيء في ذاكرته ، إنه أرشيف المدينة . فإن رغبت في معرفة أسلاف أو دخل أغلب العابرين بطريق الصدقة ، ما عليك إلا أن تسأله ، فيتلو عليك التفاصيل في صوت منغم بينما يشحذ موسه ويجربه في شعر زنده الاسود الخشن . وفي وسعه أن يكتشف ما لا يعرفه في لحظات معدودة . وهو فضلاً عن ذلك حجة في الموتى كما في الأحياء . أعنى هذا بالمعنى الأدبى للتعبير ، حيث يستخدمه المستشفى اليونانى ليخلق لضحاياه ويعدهم قبل أن يعهد بهم إلى الحانوتية — عمل يؤديه بمتعة يلونها حماس يتميز به بنى جنسه . إن صنعة العتيقة تضم العالمين ، وتبدأ بعض من أفضل ملاحظاته بالجملة التالية

« كما قال فلان - وفلان وهو يلفظ آخر أنفاسه » . ويشاع عنه أنه جذاب للنساء على نحو غريب ، ويقال إنه قد كون ثروة صغيرة كسبتها له المعجبات به . إلا أن له كذلك عدد من الزبائن الدائمين من عجائز السيدات المصريات ، نساء وأرامل بعض الباشوات واللواتى يتردد عليهن في فترات منتظمة ليصفف لهن شعورهن . وهن كما يقول في خبث ، « قد تجاوزن كل الحدود » . ويمد يده ليلبغ ظهره ، يتحسس حديثه القبيحة المنظر والتي تتوج ظهره ويضيف في افتخار « إنها تثيرهن » . ولديه بين أشياء أخرى علبة سجائر ذهبية أعطاها له واحدة من تلك المعجبات ، وهو يحتفظ فيها بكمية من ورق السجائر غير الملفوفة . إن يونانيتها ركيكة ولكنها جريئة وحية كما أن « بومبال » يرفض أن يسمح له بأن يتحدث الفرنسية ، اللغة التي يجيدها أكثر من اليونانية .

وهو يؤدي لصديقي بعض الخدمات اللطيفة . ويدهشنى فيه دائماً قدرته على التحليق الشعاعى الفجائى الذى يجيده عندما يصف النساء اللواتى يضعهن تحت حمايته . إنه ينحني فوق وجه « بومبال » الذى يشبه القمر . ويقول ، مثلاً ، في صوت خافت حذر ، وقد أخذ موس الحلاقة في الهمس « عندى لك شيء - شيء خصوصى » . وتلتقى عين « بومبال » بعيني في المرأة فيبعد ناظره سريعاً حتى لا تنتقل عدوى الابتسام من أى منا إلى الآخر . ويدمدم في حذر . ويميل « منمجان » في خفة على أطراف قدميه ، وفي عينيه حول خفيف ، والصوت الخافت المداهن يثير معنى مزدوجاً حول كل ما يقول - وحديثه لا يقل إثارة للانتباه ، حيث يقطعه بتنهيديات المتعب من الدنيا . ويستمر لفترة لا يضيف لما قال شيئاً . في وسعى أن أرى قمة رأس « منمجان » في المرأة - ذلك البروز القبيح من الشعر الأسود الذى شذبه على كل من صدغيه على صورة خصلة كالבصقة ، أملا دون شك في شد الانتباه بعيداً عن ذلك الظهر المقوس الذى يميزه . وبينما يعمل بالموس تغيم عيناه وتغدو ملامحه خالية من كل تعبير وكأنها ملامح زجاجة وتنتقل أصابعه فوق وجوهنا الحية ببرودة تماثل

تلك التي ينتقل بها فوق وجوه المتأفكين والموتى (وهم المحظوظون حقاً) .
ويقول « منمجيان » : « سينشرح صدرك هذه المرة من جميع الوجوه . إنها صغيرة ، رخيصة ونظيفة . ستقول لنفسك إنها طائر قلمًا صغير ، قرص شهد عسله كله ما يزال بداخله ، يمامة . إنها تعاني بعض المتاعب المالية . فقد عادت مؤخرًا من مصحة الأمراض العقلية في حلوان . حيث حاول زوجها أن يودعها هناك بدعوى أنها مجنونة . لقد أعددت لها مكانًا تجلس فيه في « الروزمارى » عند آخر منضدة على الرصيف . اذهب وعاينها الساعة الواحدة ، فإن أردت أن تصطحبك ، اعطها البطاقة التي سأعدها لك ، ولكن تذكر ، الدفع لى وحدى . وهذا هو الشرط الوحيد الذي أضعه بين سيد مهذب وسيد مهذب آخر يتعامل معه » .

ولا يقول المزيد حينذاك . ويحلق « بومبال » في نفسه في المرآة ، يتصارع فضوله الطبيعى مع هواء الصيف البائس الكسول . وأخيرًا سينطلق دون شك إلى الشقة ومعه مخلوقة مرهقة مختلة لا تثير ابتسامتها المشوهة في نفسه إلا الشفقة . ليس في وسعى القول بأن صديقى ينقصه العطف والحنان ، إنه يحاول دائماً توفير عمل من أى نوع لهؤلاء الفتيات . وفي الحقيقة فإن أغلب القنصليات متخمة بالعاملات اللواتى جمعت الصدفة بهن من قبل ، واللواتى يحاولن جهدهن الظهور بمظهر المستقيمات ، إنهن مديونات بوظائفهن لإلحاح « جورج » على زملائه في المهنة . ومع ذلك فلا توجد امرأة لم تتل من رعايته المظهرية مهما كانت هذه المرأة ذليلة أو متهدمة أو عجوزًا ، لم تتل من تصرفاته البسيطة القائمة على النخوة والمروءة ولحات الفطنة ، والتي بدأت تربط بينها وبين المزاج « الغالى » (*) . إنه السحر الفرنسى المزوق المندفع والذي يتحول في سهولة كبيرة إلى كبرياء وكسل عقلي ، كالفكر الفرنسى الذي ينساب سريعاً إلى قوالب رملية ، كالنفس الفطرية وقد تصلبت في الحال إلى آراء هزيلة . فإن لعبة

الجنس السهلة والتي تهوم حول أفكاره وأفعاله لا تحمل أى جو من الإثرة مما يجعلها ، مثلاً ، تختلف اختلافاً كبيراً عن أفكار وأعمال « كابوديستريا » ، الذي يلحق بنا في أغلب الأحيان بينما نلحق في الصباح . إن ! « كابوديستريا » القدرة الفطرية الخالصة على أن يقلب كل شيء إلى امرأة . فتحت نظرات عينيه تعانى المقاعد الألم لإحساسها بعري سيقانها ، إنه يلقي الأشياء بعينيه ، ولقد رأيت بطيخة فوق المائدة وقد غدت حساسة تحت نظراته حتى أنها أحست بالبذور التي في أحشائها وهي تنبض بالحياة . وتحس النسوة عندما ينظرن إلى وجهه الضيق المفلطح بلسانه الذي لا يكف عن الحركة عبر شفثيه الرقيقتين بإحساس الطيور التي تتصدى لها أفعى سامة . إنني أفكر في « ميليسا » مرة أخرى :-

أختي العروس التي تشبه حديقة مغلقة .

قالت « جوستين » :- « إنك تنظر إلينا في ازدراء . إذ كيف يمكن أن تكون واحداً منا إلى هذا الحد ومع ذلك ... فإنك لست كذلك ؟ » . إنها تمشط شعرها الفاحم في المرأة ، وفمها وعيناها مشدودة نحو سيجارة ، « لا بد ، لكونك «أيرلندياً» ، أن تكون لاجئاً بسبب أفكارك ، إلا أنك لا تعاني ما نعانيه نحن من قلق » . إن ما تسعى إليه « جوستين » إنما هو في الحقيقة ذلك الشيء الخاص المميز والذي لا ينبعث منا نحن ولكن من المناظر الطبيعية - إنها روائح الإرهاق التي تشبه رائحة المعدن والتي تملأ أجواء مريوط .

وأفكر أنا ، بينما نتكلم « جوستين » ، في الرجال الذين أسسوا المدينة ، في الجندي - إلهة في تابوته الزجاجي ، الجسد الشاب ملفوفاً في الفضة يمزج النهر نحو مفبرته . أو في ذلك الرأس الزنجي الضخم الممتلئ وهو يردد ما توصل إليه من خلال التأمل الفكرى الخالص عن تصويره للإله - « بلوتينوس » . وكأن هموم هذه الرقعة من الأرض قد تركزت في مكان ما بعيداً عن متناول المواطن

العادي - في منطقة يضطر فيها الجسد ، وقد جرده تسامحه الزائد عن الحد من أسرارهِ الأخيرة ، إلى الخضوع إلى سيطرة أكبر شمولاً بكثير : أو أن يهلك في نفس الإرهاق الذي عبرت عنه أعمال « الموسويين » لعب الخناث الخالي من الفن في ساحات العلم والفن المورقة . والشعر محاولة فجأة تصيب عرائس الشعر بعقم زائف : ويلمع التشبيه الأحمق المؤلم المأخوذ عن شعر « برنيس » في سماء الليل فوق وجه « ميليسا » النائم . لقد قالت « جوستين » ذات مرة « آه ، لابد أن يكون هناك شيء بلا مقابل ، شيء يمت إلى « جزر الباسفيكي » في تلك الإباحية التي نحيهاها . وربما أضافت : أو حتى شيء يمت إلى البحر المتوسط حيث يختلف مغزى القبلة في « إيطاليا » أو « إسبانيا » ، هنا تحك الرياح القاسية الجافة والتي تهب من صحارى « أفريقيا » أجسادنا فنَجبر على أن نستبدل الحب برقة ذهنية أشد قسوة ، إنها تؤكد بالضرورة وحشتنا بدلاً من أن تحد منها .

وغدا للمدينة الآن قطباً جاذبية - القطب الحقيقي وقطب الجاذبية الشمالي والذي يحمل طابعها ، وبينهما يتوهج مزاج سكانها في قسوة كشحنة كهربية مفرغة ومنطلقة . إن مركزها الروحي كان في مكان « السوما » الذي ذهب في طي النسيان حيث دفن يوماً ما جنديها الشاب الحائر في إلهيته المستعارة ، ومركزها الدنيوى في نادي السماسرة حيث جلس سماسرة القطن «كالقباليين»^(١) يرشقون قهوتهم ويدخنون السيجار الفاخر ، ويراقبون كابوديستريا - كما يراقب الناس على ضفة النهر ما يحرزه الفنان أو الصياد من تقدم . لقد كان الأول بالنسبة لي رمزاً لانتصارات الإنسان في مجالات المادية والزمان والمكان - والتي يجب أن تخضع بصورة حتمية خبرتها المريرة في الهزيمة للمنتصر الراقد في نعشه ، أما الآخر فإنه لم يكن رمزاً ، ولكنه كان

(١) مجموعة من الناس تعمل وتتأمر سراً ، تدعو إلى الفلسفة الدينية السرية لأخبار اليهود .

حافة الجحيم الحية للإرادة الحرة التي تجوس خلالها محبوبتي ، تبحث في وحدانية ذهنية مخيفة عن شرارة الكمال والتي يمكن أن ترفعها إلى ما تطمح فيه من رؤيا جيدة لنفسها . ففي أعماقها كواحدة من بنات « الإسكندرية » كانت الإباحية - على نحو غريب - شكلاً من أشكال إنكار الذات ومسحاً للحرية. ولو نظرت إليها كنموذج للمدينة فلا يعنى هذا بالضرورة « الإسكندرية » أو « بلوتينوس » الذي أجبرت على التفكير فيه ، ولكنها كانت كابنة « فالنتينوس » الثلاثين الحزينة والتي سقطت « لا كما سقط الشيطان بالتمرد على الإله ، ولكن بالرغبة العارمة في الاتحاد به » . إن أى تماد يتقلب إلى خطيئة .

وسقطت - كما يقول الفيلسوف التراجيدي - لانفصالها عن الانسجام الإلهي مع ذاتها ، وغدت مظهرًا للمادة ، تشكل عالم مدينتها كله ، والعالم جميعه من عذابها وتأنيب ضميرها . إن البذرة المأساوية التي نمت عنها أفكارها وأعمالها كانت بذرة القدرية التشاؤمية .

إنني أعرف أن هذا التعريف صحيح - فقد حدث بعد ذلك بوقت طويل أن سمحت لي ، في كثير من الريب والهواجس ، أن أنضم إلى الحلقة الصغيرة التي كانت تجتمع كل شهر حول « بلتازار » والذي كان حديثه عن القدرية هو أكثر ما يشد انتباهها دائماً . إنني أتذكرها وهي تسأله ذات ليلة في قلق وتوسل عما إذا كانت قد أولت فكره تأويلاً صحيحاً ، « أعني أن الله لم يخلقنا ولم يرغب في أن نخلق ، ولكننا من صنع إله صانع أقل مرتبة ، اعتقد خطأ بأنه الإله (١) ؟ يا للسموات ! كم يبدو هذا الاحتمال مرجحاً ، وتلك العجرفة التي ورثناها ثم نورثها لأبنائنا » . وبينما نسير أوقففتني بأن وقفت أمامي وأمسكت بثنيات

(١) في الفلسفة اليونانية هناك إله متكبر يترفع عن صناعة أى شيء وهناك إله صانع هو الذي كلف بخلق البشر إلخ ...

معطفي وحملت بحماس في عيني وقالت : « ما الذي تؤمن به ؟ إنك لا تتكلم البتة ، وأكثر ما يصدر عنك أن تضحك في بعض الأحيان » . لم أعرف بم أجيبها فقد بدت لي كل الأفكار متماثلة الجودة ، وحقيقة وجودها وبقائها يبرهن على أن هناك قوة خالقة . فهل يهم إن كانوا ، موضوعياً ، على خطأ أم على صواب ؟ إنهم لن يستمروا هكذا لفترة طويلة . ولكنها صرخت وهي تؤكد بطريقة مؤثرة « ولكنه يهم ، بصورة عميقة ، بصورة عميقة يا حبيبي » .

إننا أبناء الطبيعة المحيطة بنا ، وهي تملئ علينا سلوكنا وحتى فكرنا بالقدر الذي نستجيب به لها . لم يكن في وسعي أن أفكر في تعريف أفضل من ذلك - « إن تشككك مثلاً ، والذي يتضمن قدرًا كبيراً من القلق ومثل هذا التعطش للحقيقة المطلقة يختلف إلى حد بعيد عن الشك اليوناني ، عن التلاعب الذهني الذي تتميز به عقلية البحر المتوسط والذي يلجأ عامداً للسفسطة كجزء من لعبة الفكر ، لأن فكرك سلاح ، ولا هوت » .

« ولكن كيف يمكن أن يحكم على الفعل بغير هذه الطريقة ؟ » .

« لا يمكن أن يحكم عليه حكماً شاملاً قبل أن يقيم الفكر ذاته ، فافكارنا ذاتها إنما هي أفعال . إن محاولة إصدار أحكام جزئية على أي منها هو الذي يقود إلى الريب والشكوك » .

أحببت كثيراً الطريقة التي تجلس بها فجأة على حائط أو عمود مكسور في الغناء الخلقي المتهمد لعمود « بومبي » ، وتغرق في حزن لا يخدم لفكرة طرأت للتو على ذهنها . « هل هذا حقاً هو ما تعتقد ؟ » ، تقولها بطريقة حزينة تجعل المرء يتأثر منها ويضطرب لها في نفس الوقت . « ولماذا تضحك ؟ إنك تضحك دائماً من أكثر الأمور جدية . آه بالتأكيد يجب أن تكون حزيناً » . لو لم تكن تعرفني البتة ، لاكتشفت فيما بعد بالضرورة أنه بالنسبة لنا نحن الذين نحس الأمور بعمق ، والذين نعى كل ذلك التشابك المعقد للفكر الإنساني ، فإنه لا يصدر عنا سوى رد فعل واحد - هو الصمت والرقعة الساخرة .

لم يكن هناك ما أفعله ، في ليلة تلمع بالنجوم حيث تعيد اليراعات المنتشرة في العشب الجاف الحاد بريقها الأرجواني الشاحب كالطيف إلى السماء ، إلا أن أجلس إلى جوارها أربت تلك الهامة الفاحمة من الشعر الجميل ، ولا أقول شيئاً. ومن تحتنا انطلق كنهر داكن ، ذلك الاقتباس الجليل الذي اتخذته « بلتازار » مرجعاً له والذي كان يقرؤه وهو ينتفض بعض الشيء من العاطفة والبعض الآخر من الإرهاق الذي يعانيه من كل ذلك الفكر الغامض . « إن نهار الجسد هو ليل الروح . فعندما تكف الأجساد عن العمل تبدأ الأرواح الإنسانية في العمل . إن صحوة الجسد إنما هي نوم الروح . ونوم الروح إنما هو صحوة الجسد » . وأخيراً قال في صوت كهزيم الرعد : « إن الإثم هو أفضل سبيل إلى الضلال » .



كنت أشك لفترة طويلة في أن « نسيم » قد وضع « جوستين » تحت المراقبة ، ومع ذلك بدت طليقة كالطواط وهي تطير خلال الليل عبر المدينة ، لم أسمعها يطلب منها أن تقدم له حساباً عن تحركاتها . ليس سهلاً أن تتجسس على شخص لا يستقر على حال ، متصل بحياة المدينة في أماكن عديدة للغاية . ومع ذلك فمن المحتمل أنها كانت تحت المراقبة حتى لا يصيبها أذى أو ضرر . ففي إحدى الليالي ذكرتني إحدى الحوادث بتلك الفكرة ، إذ كنت مدعواً لتناول العشاء في البيت القديم . وكنا نتناول العشاء ، حينما يكونا بمفردهما في « شاليه » صغير في نهاية الحديقة حيث يمكن أن تمتزج رطوبة الصيف مع خريف الماء المتساقط من رموس الأسود الأربعة المحيطة بالنافورة . وتأخرت « جوستين » في تلك المناسبة الخاصة ، وجلس « نسيم » بمفرده وقد شددت الستائر إلى الخلف نحو الغرب ، يلمع في أناة بأنامله الطويلة الرقيقة حجراً أخضر من « اليشب » من مجموعته .

كان قد مضى بالفعل أربعون دقيقة على ساعة العشاء فأشار كي يقدم

الطعام وفي تلك اللحظة صدر عن التليفون الداخلي الصغير الأسود صوت أشبه بصوت الإبرة ، فعبر المكان إلى المنضدة والتقطه وهو يتنهد ، وسمعته يقول وقد نفد صبره : « نعم » ، ثم تكلم لبرهة بصوت منخفض ، مغيراً لفته فجأة إلى اللغة العربية ، وللحظة انتابني شعور داخلي مفاجئ بأن « منمجان » هو الذي يتحدث إليه عبر الأسلاك . لم أدر لم انتابني ذلك الإحساس . وخط شيء ما في سرعة على مظروف ، ووقف يستظهر ما كتب بعد أن وضع سماعة التليفون . ثم استدار إلى ، وفجأة غدا « نسيم » الذي يحدثني شخصاً آخر غير الذي أعرفه ، وقال « ربما احتاجت « جوستين » إلى أن نقدم لها يد العون والمساعدة ، فهل تحضر معي ؟ . ودون انتظار لجواب اندفع يهبط درجات السلم إلى « الجاراج » عبر بركة الزنايق . وتبعته على قدر ما استطعت . لم يستغرق الأمر دقائق وانطلقت بنا سيارته الرياضية الصغيرة عبر البوابات الثقيلة إلى « شارع فؤاد » وأخذ يشق طريقه عبر شبكة الشوارع التي تنحدر نحو « رأس التين » . كان المارة قليلين رغم أن الوقت لم يكن متأخراً ، وانطلقنا على طول شواطئ الكورنيش نحو « نادى اليخت » بعد أن لحقنا بعربات الحنطور القليلة (عربات الحب) والتي كانت تتسكع صعوداً وهبوطاً على شاطئ البحر .

وانحرفنا عند الطابية ودخلنا الأحياء المزدحمة القذرة التي ترقد خلف شارع « التتويج » ، ومصاييح السيارة الأمامية تكشف بأنوارها الزاهية المقاهي المليئة بالناس كعش النمل والميادين المزدحمة ، إنها تكشفه بإشعاع لم يألّفه الناس في هذا المكان ، ومن مكان ما خلف المنازل المحطمة والخالية من القوائم الخشبية والموجودة أمامنا مباشرة ، انطلقت الصرخات الحادة و« اللولولات » من أحد المآتم وقد جعلت الندابات المحترقات الليل موحشاً بما يرددنه من رثاء عن الميت . وتركنا السيارة في شارع ضيق إلى جوار الجامع ، ودخل « نسيم » بوابة عمارة كبيرة مظلمة يتكون نصفها من مكاتب مغلقة عليها لوحات بأسماء أصحابها وقد طمست الكتابة الموجودة عليها . وهناك

بواب وحيد يجلس على مصطبة يدخن نارجيلة قصيرة الساق ، وقد لف نفسه في خرق ، قبدا للناس أجمعين كثيء منبوذ (كإطار سيارة قديم) . وتحدث إليه « نسيم » بطريقة حادة ، وقبل أن يجيب الرجل كان « نسيم » قد عبر خلفية البناء من أولها إلى آخرها إلى مكان يبدو كفناء خلفي مظلم تمتد على جانبيه مجموعة من المنازل المتهدمة المبنية من الطوب الطيني وقد تساقط طلائها . ولم يتوقف إلا ليشعل ولاعته ، التي بدأنا على ضوئها الخافت بحثنا عن الأبواب . وعند الباب الرابع أطفأ الولاة وأخذ يطرق الباب بقبضته . ولما لم يجبه أحد دفع الباب وفتحه .

وواجهنا ممر يقود إلى حجرة صغيرة معتمة يضيئها نور مصابيح زيتية خافتة . وكان من الواضح أن هذه الحجرة هي مقصدنا .

كان المنظر الذي اقتحمناه منظرًا غريبًا بصورة وحشية ، إن لم يكن لاي سبب غير الضوء المنطلق من الأرضية الطينية إلى أعلى ، وقد لامس حواجب وشفاه وعظام وجنات الموجودين في الغرفة بينما ترك بقعًا كبيرة من الظلال على وجوههم - فبدوا وكأن الفئران قد نهشت نصف وجوههم ، تلك الفئران التي كنا نسمعها وهي تتدافع بين العوارض الخشبية لتلك البناية التعسة . كانت دار دعارة للمومسات الصغيرات ، وفي العتمة وقفت « دستة » من الفتيات بشعورهن المنكوشة وقد لبسن قمصان نوم مضحكة على نمط القمصان التي جاء ذكرها في التوراة ، وطلين شفاههن وارتيدين عقودًا من الخرز المزركش ، وخواتم رخيصة ، لم يكن قد تجاوزن سن العاشرة كثيرًا ، وكانت براءة الطفولة التي تشع من تحت الملابس الملونة تتناقض تناقضًا مفرعًا مع المنظر الهمجي لبحار فرنسي ضخم الجثة واقف في منتصف الحجرة على ساقين معوجتين ، ووجهه المشوه المعذب قد خرج من عنقه نحو « جوستين » التي وقفت وقد اتجه جزء من وجهها نحونا . إن القوة التي نطق بها الكلمات التي كان يصرخها للتو والتي تلاشت في الصمت كانت ما تزال واضحة في نتوء ذقنه

وعضلات عنقه المشدودة السوداء . أما عن « جوستين » فقد كان وجهها مضيقاً بنوع من الصرامة الغامضة المثالة . كانت تمسك بزجاجة وترفعها بيد واحدة ، وكان واضحاً أنها لم تلق بواحدة مثلها من قبل ، فقد كانت تمسكها بطريقة خاطئة .

وتمددت فوق كنبه بالية في ركن من أركان الحجرة أضاءه الظل الدائق المنعكس عن الحيطان ، فتاة صغيرة وقد انكشفت داخل قميص نومها بصورة بشعة توحى بالموت . كان الحائط فوق الكنبه مغطى بنقوش زرقاء لكفوف صغيرة ، إنها التيممة التي تحمي المنزل في هذا الجزء من العالم ، من العين الشريرة ، كانت الزخرفة الوحيدة في الحجرة ، وفي الحقيقة كانت أكثر الزخارف انتشاراً في كل الحي العربي من المدينة .

ووقفنا هناك أنا و « نسيم » لفترة ليست بالقصيرة مأخوذين بالمنظر الذي أمامنا والذي كان له نوع من الجمال الخفيف - إنها تشبه على سبيل المثال بعض الصور المحفورة الملونة البشعة لإنجيل من العصر الفيكيتوري ثمنه فلساً واحداً ، وقد شوهدت واستبدلت مادة موضوعية : كانت « جوستين » تشبه بطريقة توحى بأنها قد أوشكت على البكاء .

وانقضضنا عليها ، على ما أعتقد ، وسحبناها خارجاً إلى الطريق ، وعلى أي حال فلنني لا أتذكر سواناً نحن الثلاثة وقد بلغنا الشاطئ وانطلقت بنا السيارة على طول « الكورنيش » في ضوء القمر البرونزي الرائق ، ومراة السيارة تعكس وجه « نسيم » الحزين الصامت ، وصورة زوجته الصامته الجالسة إلى جواره ، تحلق في الأمواج الفضية وهي تتكسر بينما تدخن السيارة التي اقترضتها من جيب سترته . وأخيراً قبلت « جوستين » « نسيم » برقة في عينه ، ونحن في « الجاراج » ، قبل أن نغادر السيارة .

* * *

لقد اعتبرت كل هذا نوعاً من المقدمة إلى ذاك اللقاء الأول الحقيقي ، اللقاء

وجهاً لوجه ، حينما انتهى التفاهم الذي استمتعنا به حتى ذلك الحين - والذي تمثل في المرح والصداقة القائمين على ميول مشتركة بيننا نحن الثلاثة - إلى شيء لم يكن هو الحب - وكيف كان من الممكن أن يكونه ؟ - ولكن إلى نوع من الشاغل الذهني الذي لعبت فيه الرغبة الجنسية الحادة أقل الأدوار . كيف سمحنا لها أن تنطلق - ونحن كما كنا انداداً أفذاذاً في الخبرة ، وقد عبرنا أحزان الحب وتاقلمنا معها في أماكن أخرى .

في الخريف تتحول إناث شجر الغار إلى اللون الفوسفوري الذي لا يستقر على حال ويشعر المرء بعد الأيام الطويلة الملتهبة المليئة بالغبار بأول نبضات الخريف ، كجناحاً فراشة يخفقان ينفضان ما عليهما . وتتحول « مريوط » إلى اللون الأرجواني الشاحب ترصع شطآنها الطينية مسطحات شقائق النعمان اللامعة ، النامية على طين الشاطئ اللزج الذي تغوص فيه الأقدام . ولقد عرجت على البيت ذات يوم بينما كان « نسيم » في « القاهرة » لأقترض بعض الكتب ولدهشتي وجدت « جوستين » في الرسم بمفردها ، كانت ترتق بلوفرًا قديماً . لقد استقلت قطار الليل وعادت إلى « الإسكندرية » تاركة « نسيم » ليحضر بعض الاجتماعات الخاصة بالأعمال . وتناولنا الشاي معاً ، ثم أخذنا حاجيات السباحة استجابة لخاطر مفاجئ وانطلقنا بالسيارة خلال أكوام الخبث الصدئة الموجودة « بالمكس » نحو شواطئ « برج العرب » الرملية ، والتي تلمع في الضوء الأرجواني الشاحب لأصيل يسرع نحو الغروب . هنا كان البحر الطليق يهدر فوق بسط الرمال الرطبة التي لها لون الزئبق المتأكسد ، كان وقوعه الشجي العميق يشكل خلفية مناسبة لمثل الحديث الذي كنا نتبادله ، وسرنا تغمرنا المياه حتى مفاصل أقدامنا ، في تلك البرك الضحلة اللاسعة التي تشبه « النُقَر » ، وقد غصت هنا وهناك بالإسفنجة الذي اقتلع من جذوره ثم ألقي به على الشاطئ . ولم نمر بأحد ونحن على الطريق - على ما أتذكر - غير شاب بدوي ضامر يحمل على رأسه قفصاً مصنوعاً من السلك مليئاً بالطيور

البرية التي اصطيدت بشراك من الأغصان . طيور السمان الداخلة .

ورقدنا لمدة طويلة جنباً إلى جنب في ملابس الاستحمام المبتلة حتى نتلقي آخر شعاعات الشمس الشاحبة على أجسادنا في رطوبة الماء اللذيذة . كنت راقداً وعبوني نصف مغمضة بينما كانت « جوستين » (كم أراها بوضوح) تنكئ على مرفقها تظلل عينيها براحة يدها وترقب وجهي . كان من عادتها أن تحلق في شفتي كلما تكلمت ، تحلق بطريقة غريبة تحمل معنى السخرية ، طريقة سليطة تكاد أن تكون متعمدة ، وكأنها تنتظر مني أن أخطئ وأنا أنطق إحدى الكلمات . لقد نسيت ما قيل لو أن الأمر كله بدأ حقاً من عند هذه النقطة ، إلا أنني أتذكر صوتها الأجش المتعب وهي تقول شيئاً مثل « ما قولك إذا كان من المحتم أن يحدث لنا ذلك ؟ » إلا أنها انحنت على وقبلتني في فمي بطريقة عدائية ساخرة ، قبل أن أتفوه بشيء ، وبدأ لي أن هذا التصرف لا يليق بالمرّة حتى إنني استدرت وعلى شفتي تأنيب أوشك أن يصدر عني - إلا أنه ابتداء من الآن وفيما بعد كانت قبلاتها كلعنات لاهثة ناعمة تقطع ضحكاتها الوحشية المهزوزة الساخرة - والتي بدا أنها تتجمع في حلقومها . وخطر لي حينئذ أنها تشبه شخصاً ما يعاني من خوف شديد . ولو حدث وقلت لها الآن « يجب ألا يحدث لنا ذلك » . فلا بد أن تجيب قائلة : « ولكن دعنا نفترض . ماذا لو حدث بالفعل ؟ » وعندئذ - وأنا أتذكر هذا بوضوح - سيطر عليها جنون الذي يبرر أفعاله (وكنا نتكلم الفرنسية : واللغة تثير في النفس ما لها من طابع قومي) ، كانت تقول بين تلك اللحظات الخاطفة اللاهثة وأنا أحس فيها العنيف على فمي وذراعيها السمرابين الشهوانيين يطوقان ذراعي : « لن أخطئ فأخذ الأمر على أنه نهم وبطنة أو انغماس في الذات ، إننا أنضج من ذلك ، إن الأمر في بساطة أنه يوجد لدى كل منا ما يتعلمه من الآخر . ما هو هذا الشيء ؟ » .

ما هو هذا الشيء ؟ « وهل هذا هو السبيل إليه ؟ » . تذكرت نفسي أسألها ذلك السؤال عندما تراءى لي شبح « نسيم » الطويل وهو يكبو فوق سماء المساء .

فقال وتعبير من الذل متوحش عنيد يائس يكسو وجهها : « لست أدري ، لست أدري » . ثم ضغطت نفسها فوقى كما يضغط الإنسان جرحاً أصابه . كانت تبدو وكأنها تود أن تمحو كل تفكير في ، ومع ذلك فقد رأيت صورة من صور النهاية المؤلمة في مغزى الرعشة المتكررة لكل قبلة من قبلاتها — كانت كالماء البارد يصب على مرض أصاب الجسد . كم عرفت الآن معرفة جيدة كابنة للمدينة التي قضت بأن تكون نساؤها شهوانيات في الألم لا في اللذة ، لقد كتب عليهن أن يسعين لاقتناص أقل مما يطمحن في لقياه .

نهضت « جوستين » وسارت بعيداً أسفل الشاطئ الطويل المنحني ومبرت البرك البركانية في بطن وقد أحنّت رأسها ، وفكرت في وجه « نسيم » الوسيم وهو يبتسم لها في كل مرآة في الحجرة . وانبثق في رأسي كل المشهد الذي مثلناه لتونا كحلم بعيد الاحتمال . كان غريباً أن الحظ بطريقة موضوعية كيف كانت يداى ترتعشان وأنا أشعل السيجارة وأنهض لأتبعها .

إلا أنني وجدت وجهها الذي أدارته نحوي عندما لحقت بها وأوقفتها وجه شيطان مريض — كان يجتاحها غضب جامح وهي تقول : « لقد اعتقدت أن ما أرغب فيه ببساطة هو مضاجعتك ؟ يا إلهي ! ألم نزل كفايتنا من المضاجعة ؟ كيف يمكن إلا تدرك ما أشعر به ولو لمرة ؟ كيف يمكن ذلك ؟ » . وخبطت الرمال المبتلة بقدمها فانطبع أثرها . لم يكن الأمر مجرد شق جيولوجي وقد انفتح في الأرض التي كنا نطأها بثقة زائدة في النفس . وإنما بدا وكأن بئر منجم مهملة منذ زمن طويل في أعماق ما أعتد به أنا من خلق قد تهاوت فجأة ، وأدركت أن هذا التبادل العقيم في الأفكار والمشاعر قد شق لنا طريقاً نحو أدغال القلب الأشد كثافة ، وأنا قد غدونا عبيداً داخل أجسادنا ، نمتلك معرفة غامضة لا يمكن أن يتداولها أو يتسلمها ، يفسرها أو يفهمها — إلا أولئك الذين يندر وجودهم ، أولئك الذين يكملوننا في الدنيا . (وكما كانوا قلة ، قلما يعثر المرء عليهم) . وتذكرت « جوستين » وهي تقول : « ومع ذلك ، فلا علاقة لما حدث

بالجنس » . وقد أغراني هذا القول بالضحك رغم أنني أدركت من عبارتها تلك محاولتها اليائسة كي تفصل الجسد عن الرسالة التي يحملها ، إنني أعتقد أن هذا الشيء يحدث لمن أفلست عواطفهم عندما يقعون في الحب ، ورأيت حينئذ ما كان على أن أراه منذ زمن طويل : أعني بالتحديد إن صداقتنا قد نضجت إلى الحد الذي قد غدا فيه كل منا شريكاً في امتلاك الآخر .

وأعتقد أن كلانا قد أفزعنا هذا الخاطر . لم يكن في وسعنا وقد كنا مرهقين إلا أن نجبن أمام مثل تلك العلاقة . ولم نقل المزيد ولكننا عدنا نسير صامتين وقد تشابكت منا الأيدي على طول الشاطئ إلى حيث تركنا ملاسنا . وبدت جوستين مرهقة للغاية . كان كلانا تواقاً لأن يفترق عن الآخر حتى يختبر مشاعره . ولم نتبادل الحديث مرة أخرى . سقنا السيارة إلى المدينة حيث أنزلتني عند الركن المعتاد قرب شقتي ، وخبطت باب السيارة وأنا أغلقه ، وسارت هي دون أن توجه لي كلمة أو تلقي ناحيتي بنظرة .

كان في وسعي أن أرى بصمة قدم « جوستين » فوق الرمل المبتل وأنا أفتح باب حجرتي . ووجدت « ميليسا » تقرأ وإذا نظرت نحوي إلى أعلى ، قالت تقرأ الغيب بصوت هادئ تتميز به : « لقد حدث شيء ما - ما هو هذا الشيء ؟ » . لم يكن في مقدوري أن أخبرها فقد كنت أنا شخصياً لا أدري ما هو هذا الشيء . وأخذت وجهها بين راحتي وفحصته في عناية وانتباه وأنا صامت ، فحصته في حزن وشغف لا أتذكر البتة أنني قد أحسست به من قبل . وقالت : « لست أنا من تراها ، إنها واحدة أخرى » . لكن الحقيقة هي أنني كنت أراها لأول مرة . كانت « جوستين » على نحو ما هي التي مكنتني من أن أرى « ميليسا » على حقيقتها - وأن أدرك مدى حبي لها . وابتسمت « ميليسا » وهي تتناول سيجارة وقالت : إنك واقع في حب « جوستين » . وأجبتها بقدر ما استطعت من إخلاص وأمانة وألم : « كلايا » ميليسا ، إن الأمر أسوأ من ذلك » . رغم أنه لم يكن في وسعي ، حرصاً على مستقبلي أن أشرح كيف ولماذا ؟

عندما أفكر في « جوستين » أفكر في مركب صنعته يد طليقة عظيمة ، في رسم كروكي لامرأة تحررت من عبودية الذكر . لقد اقتبست بافتخار ذات مرة قولاً « لبويم » ، متحدثاً عن مدينتها . « ستتجمع النسور ، حيثما توجد الجيفة » . حقاً كانت تبدو في تلك اللحظة كالنسر . إلا أن « ميليسا » كانت لوحة حزينة مأخوذة عن منظر شتوي ، تحتويه قنامة السماء ، حوض زهور به قليل من زهرات « الجرانيم » المتفتحة ترقد منسية عند حافة نافذة مصنع للأسمنت .

إنني أتذكر في هذا الصدد فقرة جاءت في يوميات « جوستين » . رغم أنها تشير إلى أحداث تسبق تلك التي رويتها بزمان طويل ، إنني أترجمها هنا لأنها تكاد تعبر تعبيراً صادقاً عن حالة من الحب تنمو داخل الإنسان على نحو غريب ، حالة كان على أن أعرف عليها كشيء يمت إلى المدينة أكثر مما يمت إلينا . إنها تكتب ، « من التفاهة بمكان ، أن نتصور الوقوع في الحب نتيجة علاقة متبادلة في الأذهان أو الأفكار ، إنه هيام روحيين معاً في وقت واحد وقد ارتبطا خلال عملية نضج مستقلة . إنهما يحسان كأن شيئاً قد انفجر في صمت داخل كل منهما . وحول هذه الواقعة يدور المحب ولهاناً مشغول البال يختبر أو يختبر تجربتها الخاصة . إن امتنانها وحده وهو يوجه بعيداً إلى واهب أخطأ قصده ، إنما يخلق عندما الوهم بأنها على علاقة بوليفها ، غير أن ذلك الأمر شيء زائف . إن المحبوب في بساطة ، امرئ شاركك التجربة في نفس اللحظة الزمنية بطريقة نرجسية ، وأن الرغبة في أن يكون المرء موجوداً إلى جوار المحبوب لا ترجع في بادئ الأمر إلى فكرة الاستحواذ عليه ، ولكن مجرد إخضاع التجربتين للمقارنة ، كالصور في مرايا مختلفة . كل هذا قد يسبق النظرة أو القبلة أو اللمسة الأولى ، يسبق الطموح أو الخيال أو الحسد ، يسبق أول ما يباح فيحدد نقطة التحول .

لأن الحب ينحدر من هنا إلى عادة ، إلى استحواذ ، ومرة أخرى إلى الوحدة » . كم كان تحديدها لتلك الهبة الساحرة متميزاً وكم كان قائماً : وكم كان صادقاً في صدوره عن « جوستين » .

وتكتب في مكان آخر فتقول ، « إن كل رجل » . وهنا أستطيع أن أسمع نبرات صوتها المبحوحة الحزينة وهي تردد الكلمات كما كتبتها هي « إن كل رجل مصنوع من طين ومن روح ولا توجد المرأة التي في وسعها أن ترضي الاثنين معاً » .

عندما عادت « جوستين » في ذلك الأصيل إلى المنزل وجدت أن « نسيم » قد عاد إلى « الإسكندرية » على طائفة ما بعد الظهر . فأوت إلى فراشها مبكرة متذرة بأنها تحس بأن الحمى قد انتابتها . وعندما جاء « نسيم » ليجلس إلى جوارها وليقيس درجة حرارتها قالت له شيئاً ما أصابه بالذهول ، كان شيئاً مثيراً حتى أنه ظل يتذكره - فبعد فترة طويلة كرر هذا القول لي : « ليس لهذا الأمر علاقة بالطب - إنها رعشة بسيطة ، فالأمراض لا تعبأ بأولئك الذين يطلبون الموت » . ثم استمرت كعادتها تحيد عن اتصال كلامها « أوه يا «نسيم»، لقد كنت دائماً قوية ، فهل منعني ذلك من أن أكون محبوبة حباً حقيقاً » .



لقد بدأت ، عن طريق « نسيم » ، أتجول لأول مرة ، بكل حرية ، في مجتمع «الإسكندرية» الكبير والذي يشبه بيت العنكبوت . إن دخلي المحدود لم يكن حتى يسمح لي بارتياح النادي الليلي الذي ترقص فيه « ميليسا » . كنت أحس في أول الأمر بعض الخجل لأنني كنت ضيفاً دائماً على « نسيم » ، ولكن سرعان ما غدونا أصدقاء متلازمين حتى أنني كنت أذهب معهما إلى كل مكان دون أن أعبر الأمر أي اهتمام . ولقد قلبت لي « ميليسا » سترة سهرة قديمة وجدتها في إحدى حقائبي وأعادت تجديددها . لقد كنت بصحبته عندما زرت النادي الذي تعمل به « ميليسا » لأول مرة . كان غريباً أن أجلس بين « جوستين » و «نسيم» أراقب غلالة الضوء البيضاء تتوهج فوق « ميليسا » التي لم أعرفها تحت غطاء الطلاء الذي جعل وجهها الرقيق يبدو فظاً ، وقد فقد شاعريته في وقت مبكر .

وفزعت أيضاً من مدى ابتذال رقصها ، الذي كان سيئاً إلى أبعد الحدود ، ورغم ذلك فإن رؤيتها وهي تؤدي حركات رقيقة ، عديمة التأثير ، بذراعيها وقدميها النحيلتين (كغزال ربط إلى ساقيه) ملأتني عطفاً على مستواها العادي ، وطريقتهما الحائرة التي جعلتها تبدو وكأنها تقرر بعجزها ، وهي تنحني للتصفيق الفاتر . ثم حملت بعد ذلك صينية كانت تدور بها تجمع النقود للفرقة الموسيقية ، ولقد أدت هذا العمل في استحياء بائس ، قادمة نحو المنضدة حيث كنت أجلس ، وقد نكست عينيها تحت تلك الرموش الصناعية المربعة ، وارتعشت يداها . لم يكن صديقاي يعرفان حتى اللحظة شيئاً عن علاقتنا ، إلا أنني لاحظت نظرة « جوستين » الساخرة عندما قلبت جيوبي ووجدت بعض الدراهمات فقذفت بها إلى الصينية ويدي لا يقل ارتعاشهما عن ارتعاش يدي « ميليسا » - كنت أحس إحساساً عميقاً بمدى ارتباطهما .

وعندما عدت فيما بعد إلى شقتي الصغيرة مسروراً نشواناً بعض الشيء من رقصي مع « جوستين » وجدتها - « ميليسا » - ما تزال مستيقظة تغلي كككة ماء فوق الموقد الكهربائي وقالت : « أوه ، لماذا وضعت كل تلك النقود في الصينية ؟ إنها أجرة أسبوع كامل : هل جننت ؟ ماذا سنأكل في الغد ؟ » .

كان كلانا مبذراً متلاقاً بصورة لا يرجى إصلاحها في الشؤون المالية ، ورغم ذلك فقد كان بوسعنا على نحو ما أن نواجه الحياة معاً بطريقة أفضل من مواجهتها كل منا بمفرده . كانت تتوقف بالليل وهي عائدة في ساعة متأخرة من النادي الليلي ، في الزقاق خارج المنزل ، فإن رأت أن الضوء ما زال مشتعلاً أطلقت صغيراً خافتاً . وما إن أسمع أنا تلك الإشارة حتى أضع الكتاب الذي أقرأه جانباً وأزحف في هدوء أسفل السلم وأنا أرى بعين خيالي شفيتها وقد ضمتا حول الصوت المناسب منهما ، وكأنها تنفض ما خلفته منضدة ما من بقايا هشة . كان الرجل العجوز ، في هذا الوقت الذي أحدث عنه ، ما يزال يلاحق « ميليسا » ويلج عليها هو وعملاؤه . كنا نضم أيدينا إلى بعضها البعض

دون أن نتبادل كلمة واحدة ونهرع خلال متاهة الأزقة قرب القنصلية البولندية ، نتوقف ما بين الفينة والأخرى عند مدخل بيت مظلم لنرى إذا ما كان هناك من يقتفي أثرنا . وأخيراً ، هناك بعيداً حيث تنتهي الحوانيت عند زرقه السماء ، كنا نخطو إلى ليل « الإسكندرية » الأبيض كالحليب المثلج كالبحر ، نخطو نحو نجمة الصباح التي ترقد خفاقة فوق سور المنتزه الأسود المخملي والذي تلامسه الريح والأمواج .

في تلك الأيام كان لاهتمام « ميليسا » بي ورقتها المثيرة معنى كل الخصائص التي يتميز بها من استعداد شبابه . لقد اعتدت أصابعها الطويلة المترددة وهي تتحرك فوق وجهي حين تعتقد أنني قد نمت ، وكأنها تستعيد ذكرى السعادة التي عشناها . كان فيها بساطة ومرونة شرقية — شغوفة بأن تقوم على خدمتي ، يا لها من طريقة تلك التي كانت تعامل بها ملابس المتسخة — إنها تبدو حين تمسك بقميص قذر من قمصاني وكأنها تغمره بفيض من عنايتها . وفي الصباح كنت أجد موسى الحلاقة وقد نظف تنظيفاً جيداً ، حتى معجون الأسنان قد وضعته فوق الفرشاة معداً للاستخدام . كانت عنايتها بي دافعاً يحفزني كي أعطي لحياتي شيئاً من الشكل والأسلوب الذين ربما يتماثلان مع بساطتها . لم تتحدث أبداً عن تجاربها في الحب ، كانت تتأى عنها في ضجر وتقزز يوحيان بأنها كانت وليدة الحاجة أكثر مما تكون وليدة الرغبة . وقد مدحتني بقولها : « إنني أحس لأول مرة بأنني لا أخاف أن أكون طائشة أو حمقاء مع رجل » .

كان فقرنا أيضاً رباطاً يعمق ما بيننا . وكانت نزهاتنا في غالب الأحيان هي نفس النزهاة البسيطة التي يقوم بها أهالي مدينة تقع على شاطئ البحر . كان الترام الصغير والذي يشبه الصفيحة يحملنا وهو يقعق بعجلاته حتى شطآن « سيدى بشر » الرملية ، أو كنا نقضي شم النسيم في حدائق « النزهة » ، نجلس فوق الحشائش تحت الأشجار المورقة بأزهارها الحمراء والبنفسجية

والبيضاء ، وسط العديد من العائلات المصرية الفقيرة . كان ثقل الزحام علينا يلهينا ويقربنا من بعضنا البعض أشد القرب . نتجول في سعادة ، دون أن نعرفنا أحد ، بين المتسكعين الآخرين من أهل المدينة على حافة القناة الراكدة نراقب الأطفال وهم يغطسون يبحثون في الطين عن عملة ، أو نأكل قطعة بطيخ من فوق دكة . إن أسماء محطات الترام تردد صدئ شاعرية تلك الرحلات : « الشاطبي » ، « كامب شيزار » ، « لورنس » ، « مظاريطة » ، « جليمونوبولو » ، « سيدى بشر » ...

ثم هناك الجانب الآخر : عندما كنت أعود بالليل متأخراً لأجدها نائمة وقد رفست شبشبها الأحمر بعيداً وغلّيون الحشيش الصغير موجود على المخدة إلى جوارها ... كنت أعرف أن واحدة من نوبات الاكتئاب قد حلت بها . لم يكن هناك ما يستطيع المرء فعله معها في مثل تلك الحالات ، إنها تغدو شاحبة ، سوداوية المزاج ، مرهقة ، لا تستطيع أن تقيم نفسها من خمولها لأيام عديدة . إنها تتحدث إلى نفسها كثيراً ، وتقضي الساعات تستمع إلى الراديو وهي تتثائب أو تتصفح رزمة من مجلات السينما القديمة دون أدنى اهتمام . في مثل تلك الأوقات عندما تطبق عليها رهبة المدينة ، كنت أغدو حائراً أدبر وسيلة تزيح عنها خمولها ، كانت ترقد تنظر بعينيها بعيداً كعرافة ، وتربت على وجهي وتكرر القول مرة بعد أخرى : « لو عرفت كيف كنت أعيش لهجرتني ، إنني لست بالمرأة التي تصلح لك ، أو لأى رجل . إنني متعبة ، وأنت تبدد عطفك » . فإن احتججت بأن ما بيني وبينها حب وليس نوعاً من العطف ، فإنها ربما قالت وقد قطبت جبينها : « إذا كان ما بيننا حباً لكان عليك أن تقتلني بالسهم ولا تتركني على هذا الحال » . ثم تأخذ في السعال من رثتها التي لم تتلف بعد ، وأغادر أنا المكان وقد عجزت عن احتمال هذا الصوت إلى الشارع المظلم القذر في الحي العربي ، أو أزور مكتبة المجلس البريطاني لأبحث في بعض المراجع ، وهنا حيث توحى الثقافة البريطانية كانطباع عام بالشح والفاقة وبأن المثقفين

معلقون كشريط ، هنا كان في مقدوري أن أقضي الامسية وحيداً . سعيداً بتمتمة
وثرثرة القراء من حولي .

ولكن كانت هناك أوقات أخرى أيضاً ، هي تلك العصاري التي تثير الضيق
بحرها - والتي كان يسميها « بومبال » : « العصاري التي ينضح المرء فيها
عرقاً لزجاً كالعسل » - عندما كنا نرقد سوياً غارقين في الصمت ، نرقب
الستائر الصفراء وهي تعلو على الضوء وتهبط في حركة رقيقة . إنها أنفاس
الريح الهادئة خارج « مريوط » وهي التي تماثل أنفاسنا . وربما نهضت بعد
ذلك ، تنظر في الساعة بعد أن تهزها وتستمتع إليها بانتباه : ثم تجلس عارية إلى
منضدة الزينة لتشعل سيجارة - وقد بدت صغيرة وجميلة للغاية وهي ترفع
ذراعها النحيل تستعرض السوار الرخيص الذي أهديته إليها . « حقاً ، إنني
أنظر إلى نفسي ، غير أن ذلك يساعدني على الانشغال بك » . ثم تستدير جانباً من
هذا التأمل السريع للمرأة وتخطو في سرعة إلى حوض غسيل الاواني القبيح
المنظر ، وهو في نفس الوقت حمامي الوحيد ، وتقف عند البالوعة الحديدية
القدرة لتغسل نفسها بحركات سريعة ماهرة ، تشهق من برودة الماء بينما أنا
راقداً أستنشق دفاء وحلاوة الوسادة التي كانت تريح رأسها الفاحم عليها .
أرقب وجهها اليوناني الطويل الحزين ، بأنفه المدبب إلى حد معقول وعيناها
الصريحتان ، والبشرة الناعمة التي لا تمنح إلا للأطفال ، والشامة على عود
عنقها الرقيق . تلك هي اللحظات التي لا يمكن أن تقدر ، ولا يمكن أن تقيم في
كلمات ، إنها تحيا في عصارة الذاكرة ، كمخلوقات رائعة لا نظير لها في نوعها ،
اصطيدت من أعماق محيط لم يرتده أحد من قبل .

* * *

قرر « بومبال » أن يؤجر شقته هذا الصيف إلى « بورسواردن » مما
ضايقني أشد الضيق . إنني لا أحب تلك الشخصية الأدبية - لأنها تتناقض مع
أعمالها الأصلية الرشاقة نثراً كانت أم شعراً . لم أكن أعرفه معرفة جيدة ، إلا

أنه كان ناجحاً كروائي من الناحية المالية ، مما كان يثير حسدي ، وخلال أعوام تمرس فيها على الحياة الاجتماعية نما لديه فهم لأداب وسلوك المجتمع التي لم أحس برغبة في أن تكون جزءاً من مؤهلاتي على أى حال من الأحوال . كان قصيراً سميناً أشقر يعطى انطباع الشاب الذي يرقد في أحضان أمه وهي تهدده . ليس في وسعي أن أقول إنه لم يكن طيباً أو رحيماً ، لأنه كان كليهما معاً . إلا أن وطأة العيش مع إنسان لا تحبه في شقة واحدة ، كانت تثير غضبي . وعلى أى حال فإن تركي للمكان كان سيثير في نفسي ضيقاً أشد ، ولهذا فقد قبلت حجرة صغيرة كالعبلة في نهاية الممر في مقابل إيجار أقل . وكنت أقوم بالغتسال في حوض الغسيل الصغير القدر .

كان في وسع « بورسواردن » أن يلهو كما يشاء ، وكانت ضجة الضحك والسكر الصادرة من شقته تفرض على أن أظل يقظاً مرتين تقريباً في كل أسبوع . وحدث ذات ليلة أن سمعت في ساعة متأخرة للغاية طرقة على الباب . وفي الممر كان يقف « بورسواردن » وقد بدا شاحباً أنيقاً مضطرباً ، وإلى جواره وقف وقاد بحري بدين بشع - مثل كل الوقادين البحرين ، وكأنه قد بيع عبداً وهو صغير . وقال « بورسواردن » لي في صوت حاد ، « لقد أخبرني « بومبال » أنك كنت طبيباً ، فهل تأتي معي وتلقي نظرة على شخص مريض ؟ » . كنت قد أخبرت « جورج » ذات مرة عن العام الذي قضيته طالباً في كلية الطب ، وكانت النتيجة أنه اعتبرني طبيباً كامل الصلاحية . إنه لم يكتف بأن يوكل إلى عنايتي بكل ما يصيب مزاجه من توعك ، - والتي كانت تشتمل على مضايقات عديدة تسببها له حشرات جسدية - بل إنه تمادى ذات مرة محاولاً إقناعي بأن أجرى لحسابه عملية إجهاض من فوق منضدة حجرة الطعام . وأسرعت أخبر « بورسواردن » بأنني لست طبيباً على وجه اليقين ، ونصحتة بأن يستدعي واحداً منهم بالهاتف ، إلا أن الهاتف كان معطلاً ، ولم يكن في الإمكان إيقاف البواب من نومه ، وهكذا وبروح الفضول الخالص من أى غرض خاص ، أكثر

من أى شيء آخر ارتديت معطفي الواقسي من المطر فوق بيجامتي واتخذت طريقي خلال الممر .

ما أن فتحت الباب حتى عشت عيناى للحال من الضوء الباهر والدخان . لم يبد أن الحفلة كانت من النوع المعتاد . فقد كان هناك ثلاثة أو أربعة ضيوف من طلبة البحرية العسكريين المشوهي الخلقة ، وعاهرة من حانة « جولفو » لها رائحة كرائحة المخالب المملحة والطافيا . والشيء الغريب أيضاً أنها كانت تنحني فوق شبح أجلس على حافة الكنبه - الشبح الذي أعرف الآن فيه « ميليسا » إلا أنها كانت تبدو حينذاك كقناع يوناني هزلي يحمل سمات كارثة ، كانت تبدو وكأنها تهذي ، ولكن بلا صوت ، فقد انقطع صوتها - حتى أنها بدت كفيلم صامت خاص بها . كانت ملامحها غائرة . وكان واضحاً أن المرأة العجوز قد أصيبت بالهلع ، كانت تلكمها على أذنيها وتشد شعرها - بينما واحد من طلبة البحرية العسكريين ينثر الماء عليها بطريقة لادرية فيها من أنية كثيفة النقوش كانت واحدة من مقتنيات « بومبال » التي يعتز بها أشد الاعتزاز والتي تحمل على جانب من جوانبها شارة السلاح الملكي الفرنسي . وهناك بعيداً عن الأنظار في مكان ما كان شخص ما يحس قرقاً عميقاً . كان « بورسواردن » يقف إلى جوار يمسح المشهد الذي أمامه ، وقد بدا عليه أنه خجل من نفسه .

كانت « ميليسا » تنضح بالعرق وقد التصق شعرها بصدغيها ، وعندما حطمنا دائرة معذبيها عادت تغرق مرة أخرى في صمت مرتعش خال من التعبير ، وقد نقشت على وجهها صرخة لا آخر لها . كان من الحكمة أن أحاول معرفة المكان الذي كانت فيه وماذا أكلت أو شربت ، إلا أن نظرة إلى المجموعة الثائرة المترنحة حولي كانت توضح أنه من المستحيل أن يخرج المرء منهم بأي شيء له معنى . ومع ذلك فقد أمسكت بأقرب صبي يقف إلى جوار ي وأخذت في استجوابه عندما بدأت حيزبون « جولفو » في الصراخ في صوت أجش ممضوغ

« لقد أعطاهما ذبائناً هندياً »^(١). كانت هي نفسها في حالة هستيرية ، لا يمنعها إلا وقاد بحرى كان يقيدها من الخلف . وانطلقت كالفار من ذراعي أسرها وأمسكت بحقيبة يدها ونزلت بها على رأس أحد البحارة في قرقرة مدوية . ويبدو أن الحقيبة كانت مملئة بالمسامير ، لأن البحار سقط إلى أسفل وقد أصابه الدوار ثم عاد ينهض إلى أعلى وفي شعره بقايا من أنية فخارية محطمة .

ثم بدأت تشهق بصوت خشن وتنادي البوليس ، فاندفع نحوها ثلاثة من البحارة وقد شرعوا أصابعهم الفظة ، ينصحونها ، يحذرونها ، يتضرعون إليها أن تكف . لم يكن هناك من يرغب في الصدام مع البوليس البحري ، إلا أن أحداً لم يكن يحب أو يرغب في تذوق لكمة من تلك الحقيبة التي تشبه الفخار ، الحقيبة المنتفخة بزجاجات البلاطونا وأدوات منع الحمل . كانت تتراجع في حذر خطوة خطوة (في تلك الأثناء أخذت نبض « ميليسا » ، وشققت لها بلوزتها واستمعت إلى قلبها . وبدأت أنزعج عليها ، وبصدق ، من أجل « بورسواردن » الذي كان قد اتخذ لنفسه موقعاً إستراتيجياً خلف أحد المقاعد وأخذ يومئ لكل شخص إيماءة بليغة) . وبدأ الهزل ، فقد حاصر البحارة الفتاة المزجرة - إلا أنهم حاصروها لسوء حظهم عند الدولاب « الشيراتوني » المزخرف والذي يحوى مجموعة « بومبال » الفخارية التي يعتز بها أشد الاعتزاز . ومدت يديها خلفها تبحث عن شيء تلجأ إليه لحمايتها فالتقت بمدد من الذخيرة لا يفني ، فألقت بحقيبة يدها وهي تطلق صرخة خشنة ظافرة وأخذت في إلقاء الأواني الصينية في اهتمام ودقة بالغين ، لم أر لهما نظيراً من قبل . وامتلا الجو بشظايا القوارير المصرية واليونانية ، و « الأوشابتي » و « السيفر » . ولم يمض وقت طويل حتى جاءت الضربات المألوفة المخيفة للأحذية ذات المسامير الغليظة الرؤوس على عتبة الباب ، وبدأت الأنوار تضاء حولنا في كل البناية . وللحقيقة

(١) مادة مثيرة للأمصاب .

غدا انزعاج « بؤرسواردن » ملحوظاً للغاية . إذ لم يكن في وسعه احتمال الفضيحة التي يمكن أن تثيرها الصحافة المصرية عن شغب كهذا الشغب ، باعتباره أحد سكان المنزل بالإضافة إلى كونه رجلاً مشهوراً . وأحس بالارتياح عندما أشرت إليه وأخذت في لف جسد « ميليسا » التي لا تكاد تحس شيئاً في السجادة الناعمة المصنوعة في « بخاري » . وحملناها معاً نترنج بها عبر الممر إلى العزلة المباركة في حجرتي التي تشبه الصندوق ، حيث فردنا السجادة ، مثلما فعلت « كليوباترة » ووضعناها في الفراش .

وتذكرت وجود طبيب يوناني عجوز ، إنه يقيم على مقربة في هذا الشارع ، ولم يمض وقت طويل حتى أحضرته إلى أعلى السلم المظلم ، يتعثر ويلعن بلغة سوقية ، ويسقط السماعات وأدوات إخراج البول على طول الطريق . وأعلن أن « ميليسا » مريضة للغاية ، إلا أن تشخيصه كان غامضاً ويشمل كل شيء حسب العرف السائد في المدينة . فقد قال : « إنها مريضة بكل شيء ، سوء تغذية ، هيستريا ، كحول ، حشيش ، درن ، ذبان هندي اختر بنفسك ما تشاء » . لقد وضع يده في جيبه وأخرجها ملأنة بكل الأمراض المتصورة ثم قدمها لنا لاختار منها . إلا أنه كان عملياً أيضاً . واقترح أن يعد لها في اليوم التالي سريراً في المستشفى اليوناني . على ألا تتحرك حتى يتم ذلك .

وأمضيت تلك الليلة والليلة التالية لها فوق الكنية أسفل السرير وكنت أعهد بها إلى عناية « حميد » الأعور أرق البرابرة ، عندما أخرج للعمل . كانت مريضة للغاية خلال الإثني عشرة ساعة الأولى ، تهذي في بعض الأحيان ، وتعاني في أحيان أخرى نوبات مؤلمة لكثرة ما أخافوها . واتفقنا معاً أن نعاملها معاملة رقيقة حازمة حتى نمنحها القوة اللازمة للتغلب على أسوأ الأوضاع . وفي عصر اليوم التالي كانت قد تحسنت حالتها إلى الحد الذي جعلها تتكلم في همس . وأعلن الطبيب اليوناني أنه راض بما أحررته من تقدم . وسألها من أين جاءت ، فلاح على وجهها الفزع وهي تجيب « أزمير » . إلا أنها لم تذكر اسم أو عنوان

والديها . وعندما ألح عليها أدارت وجهها نحو الحائط وفاضت دموع الإرهاق في بطن من عينيها . ورفع الطبيب راحتها وفحص الأصبع الذي يوجد به خاتم الزواج ، ثم قال لي بطريقة بعيدة عن الأسلوب الطبى وهو يشير إلى غياب الخاتم : « هذا هو السبب الذي من أجله تبرات منها عائلتها وطردتها . إنها أمور تحدث كثيراً في تلك الأيام » وهز رأسه الأشعث راثياً لها . ولم تقل « ميليسا » شيئاً ، إلا أنها ، عندما أحضرت النقالة وأعدت الحفة لحملها ، شكرتني في حرارة لأنني ساعدتها ، وضغطت راحة « حميد » إلى وجنتها - لقد فاجأتني قائلة بمروءة لم أعودها في حياتي : « إذا لم تكن لك فتاة عندما أغادر المستشفى ، ففكر في ، وسأحضر لك إن دعوتني » . إنني لا أعرف كيف أنقل هذا النقاء السامي من اليونانية إلى الإنجليزية .

وهكذا مر شهر أو أكثر ولم أرها ، والحقيقة أنني لم أفكر فيها ، كان لدي العديد من المشغوليات في ذلك الوقت ، حتى كان ذات أصيل لم يكن لدى فيه أية مشغولية ، بينما أنا جالس إلى نافذتي أرقب المدينة وهي تتمطى من نومها رأيت « ميليسا » أخرى تسير في الطريق ثم تميل إلى مدخل المنزل الظليل . وطرقت بابي ثم دخلت وذراعاها مليتان بالورود ، وللحال وجدت نفسي منفصلاً عن تلك الليلة المنسية بقرون عديدة . كان فيها شيء من ذلك الحياء الذي رأيته يلزمها مؤخراً بينما كانت تجمع المال للفرقة الموسيقية في النادي الليلي ، كانت تبدو كتمثال للكبرياء وقد تدلت رأسه .

حل بي نوع من التأديب يرهق الأعصاب ، فقدمت لها كرسيّاً جلست على حافته . كانت الزهور من أجلي ، إلا أنه لم يكن لديها الشجاعة الكافية لتلقي بتلك الباقية بين ذراعي ، وكان في وسعي أن أراها تحلق حولها في حيرة بحثاً عن أنية يمكن أن تضع الزهور فيها . لم يكن هناك غير حوض غسيل خزفي ملئ بالبساطس نصف المقشرة وبدأت أتمنى لو لم تحضر . كنت أود لو قدمت لها كوباً من الشاي إلا أن السخان الكهربائي كان مكسوراً ، ولم أكن أملك نقوداً

حتى أصطحبها إلى مكان بالخارج ، كنت في ذلك الوقت أنزل في الدين أكثر فأكثر من ذي قبل . كما أنني قد أرسلت « حميد » خارج المنزل ليكوي بدلتني الصيفية التي لا أملك سواها وكنت مرتدياً جلباباً ممزقاً . أما من ناحيتها هي فقد بدت رائعة ، أنيقة بدرجة مخيفة ، ترتدي فستاناً صيفياً جديداً عليه نقوش أوراق عنب مجعدة ، وقبعة من القش تشبه جرساً ذهبياً كبيراً . وأخذت أبتهل في حرارة أن يعود « حميد » فيخلق بعودته شيئاً من التغيير . كنت أبغي تقديم سيجارة لها إلا أن علبة سجائري كانت فارغة ، واضطرت إلى قبول واحدة منها من علبة سجائرها المزركشة والتي تحملها دائماً ... ولقد دخت تلك السيجارة بطريقة أملت أن أبدو فيها رابط الجاش وأخبرتها أنني قد قبلت وظيفة جديدة قرب « سيدى جابر » ، وأن هذا يعني بعض المزيد من النقود . وقالت إنها ستعود إلى عملها وأن العقد المبرم معها قد جدد مرة أخرى : إلا أنهم سيمنحونها قدرأ أقل من المال . ثم قالت بعد بضع دقائق من مثل هذا الحديث إنها مضطرة لتركى الآن إذ أنها مرتبطة بموعد لتناول الشاي ، فقدتها إلى بسطة السلم ورجوتها أن تحضر مرة أخرى متى شاءت . فشكرتني وهي ما زالت ممسكة بالزهور ، خجلة للغاية من أن تلقى علي ، وهبطت السلم في ببطء . وجلست على السرير بعد أن غادرت البيت ، وأطلقت كل الشتائم البذيئة التي تذكرتها بأربع لغات - رغم أنه لم يكن واضحاً لي ، من هو الذي أخاطبه . وجاء « حميد » في ذلك الوقت يجر أقدامه وكنت ما أزال في ثورة الغضب فصببت عليه جام غضبي ، وأفزعه تصرني هذا بعض الشيء : فقد مضى زمن طويل منذ ثار غضبي عليه ، واعتزل في حجرة الغسيل يتمم ويهز رأسه يستنجد بالارواح أن تمد له يد المساعدة .

واستدنت بعض النقود من « بورسواردن » بعد أن ارتديت ملابس ، ورأيت « ميليسا » مرة أخرى بينما كنت في طريقي لأضع خطاباً في صندوق البريد . كانت جالسة بمفردها في ركن المقهى وقد أسندت رأسها إلى راحتها ،

وقبعتها وحقيقتها ترقدان إلى جوارها بينما كانت تحملق هي في فنانها مما يوحي بأنها تقضي وقتاً مملأً . واندفعت أدخل المكان ثم جلست إلى جوارها . وقلت لها : إنني قد أتيت لأعذر عن سوء استقبالي لها ، ولكن ثم أخذت أصف الأحوال التي حلت بي دون أن أترك شيئاً . السخان الكهربائي المحطم ، غياب « حميد » ، وبدلتي الصيفية . وبدت لي المصائب التي أحاطت بي وأنا أعددها مصائب هزيلة إلى حد ما . فغيرت الزاوية التي كنت أعرض مشاكي من خلالها وأخذت أرويها في سخط حزين أغراها بضحكة كانت من أكثر الضحكات التي سمعتها مرشحاً . والحق يقال أنني قد بالغت عند الحديث في موضوع ديوني ، رغم أن الحقيقة التي لا جدال فيها أن « بورسواردن » كان على استعداد دائم لأن يقرضني بعض المبالغ الصغيرة دون أى تردد منذ تلك الليلة التي حدث فيها الشجار . وحتى أغطي الأمر كله ، قلت لها : إنها قد جاءت في وقت كدت أبرأ فيه من عدوى بسيطة ولكنها مثيرة لأحد الأمراض السرية – ثمرة اهتمام « بومبال » بي – وأنها دون شك قد أصابتنني من إحدى السوريات اللواتي تركهن « بومبال » خلفه بعد تفكير طويل . لقد كانت هذه القصة أكذوبة ولكنني كنت مدفوعاً إلى روايتها رغمًا عني . وقلت لها إنني كنت فزعاً من فكرة مضاجعة أى امرأة مرة أخرى قبل أن أشفى تماماً ، وعندئذ أخرجت يدها ووضعتها فوق يدي وهي تضحك وقد تجعد أنفها : كانت تضحك في صفاء ، وابتهاج ودون تكلف ، حتى أنني قررت أن أحبها في هذا الزمان والمكان . وسرنا في ذلك الأصيل نتسكع على شاطئ البحر وقد تشابكت ذراعانا وامتلات أحاديثنا بأنقاض حياتنا التي عشناها دون تبصر ودون تصميم . لم يكن هناك أى شيء مشترك في ميولنا . كانت شخصيتانا واستعدادات كل منا نقيض الآخر ، ورغم هذا فقد أحسنا في السهولة السحرية التي تصادقنا بها بشيء يبعث الأمل في نفوسنا . وأحب ، أيضاً ، أن أتذكر تلك القبلية الأولى إلى جوار البحر ، والرياح تطير خصلة من شعرها على كل وجنة بيضاء – قبلية

قطعتها ضحكة لم يكن هناك مقر منها عندما تذكرت روايتي للمحن التي كنت أعانيها . لقد كانت رمزاً للعاطفة التي تمتعنا بها ، لروحها المرحه ، لرقتها : رمزاً لما تتمتع به من بر وإحسان .



كان هناك موضوعان من العبث أن يطرقهما المرء مع « جوستين » : -
عمرها ، ومنبتها . لم يكن هناك من يعرف - وربما كان « نسيم » نفسه أيضاً لا يعرف - كل شيء عنها بصورة مؤكدة . حتى « منمجان » علام المدينة بدا عاجزاً في هذه المرة ، رغم أنه على معرفة تامة بآخر غرام لها . ومع ذلك فقد ضاقت عيناه البنفسجيتان وهو يتحدث عنها ، وقال في تردد إنها قد جاءت من حي « العطارين » المزدحم ، وإنها قد ولدت من أسرة يهودية فقيرة هاجرت منذ ذلك الحين إلى « سالونيك » . إن يوميات « جوستين » لا تساعد كثيراً حيث تفتقر إلى الأدلة - الأسماء ، التواريخ والأماكن - وتتكون في معظمها من شطحات خيال طائشة تفصل فيما بينها نواذر مرة وخطوط حادة ترسم أناساً قد وضعت شخصيتهم خلف قناع على صورة حروف من الحروف الأبجدية . إن الفرنسية التي تكتب بها ليست صحيحة تمام الصحة ، إلا أنها مليئة بالحياة ، وذات نكهة خاصة ، تحمل ميزة هذا الصوت المبحوح الذي لا نظير له . انظر ماذا تكتب : « كلياً » تتكلم عن طفولتها : إنني أفكر في طفولتي ، أفكر فيها بانفعال عاطفي ؛ أفكر في عصري ... أولاً : اللطامات في الحظيرة خلف الإستاذ ، دكان الساعاتي . إنني أرى نفسي وقد استغرقتني تركيز عاطفي أرقب وجه عاشق نائم كما كنت أراه في غالب الأحيان منحنيًا فوق ساعة حائط مكسورة والضوء الحاد ينساب فوقه في صمت . اللطامات واللعنات ونقوش الراحات الزرق وقد رسمت في كل مكان على الحوائط الطينية الحمراء (كضربات الضمير) ، والأصابع مشدودة لتحميننا من عين الشرير . ونمونا مع هذه اللطامات ، بعيون فزعة ورؤوس أصابها الصداع . منزل أرضيته من

تراب ملئ بالجرذان معتم بتلك الفتائل الطافية فوق الزيت ، المرابي العجوز سكران يشخر ، يستنشق مع كل نفس يأخذه خليطاً من روائح التراب ، والبراز ، وإفرازات الخفافيش ، الميازيب التي تسدها أوراق الشجر وكسر الخبز وقد نعتت في البول ، أكاليل من الياسمين صفراء فاقعة البهجة . ثم أضف إلى ذلك تلك الصرخات التي تنبعث في الليل من خلف نوافذ الآخرين في ذلك الشارع الملتوي : البك يضرب نساءه لعجزه الجنسي ، بائعة العشب العجوز تبيع نفسها كل ليلة فوق الأرض المنبسطة بين المنازل المتهمة – أنين حزين غامض . الدبيب الرخو للأقدام السوداء العارية ، وهي تسير ليلاً في الشوارع التي جف فيها الطين . حجرتنا متخمة بالظلال والمرض ، ونعيش نحن الأوربيين في تنافر مع تلك الحالة الصحية الحيوانية المخيفة « للسود » من حولنا . وطء البوابين لنسائهم يهز المنزل كشجرة تمر – نمور سوداء لها أسنان لامعة . وفي كل مكان، البراقع ، والصراخ ، القهقهات المجنونة تحت أشجار الفلفل ، الخبل والمصابون بالجذام . مثل تلك الأشياء هي التي يراها الأطفال ويختزنونها في ذاكرتهم لتكتسب حياتهم مناعة أو لتغذو بلا مرشد أو دليل . لقد أنهار جمل من الإعياء في الشارع خارج المنزل ، إنه ثقيل حتى يصعب نقله إلى السلخانة ، ولذا فقد حضر رجلان ومع كل منهما بلطة ، إنهما يقطعانه الآن هناك في الشارع . وهو لا يزال حياً . كانا يقطعان اللحم الأبيض – والمخلوق المسكين يبدو مثلاً أشد الألم . مترفعاً أشد الترفع ، حائراً أشد الحيرة وقد قطعت رجلاه . وفي النهاية ما تزال الرأس حية هناك ، والعينان مفتوحتين تنظران فيما حولهما . لا صرخة احتجاج واحدة ، ولا أية مقاومة . الحيوان مستسلم كشجرة تمر . إلا أن طين الشارع ظل لأيام بعد ذلك مشرباً بدمائه وأقدامنا العارية قد صبغها البلل الدامي .

النقود تتساقط من أقذار الشحاذين المصنوعة من الصفيح . شذرات من جميع اللغات – الأرمنية ، اليونانية ، الأمهرية ، المراكشية ، يهود من آسيا

الصغرى ، والبحر الأسود ، جورجيا : أمهات ولدن في مستعمرات يونانية على البحر الأسود ، مجتمعات ممزقة كفروع الأشجار التي ينقصها الجذع ، تحلم بجنة « عدن » ، تلك هي الأحياء الفقيرة في المدينة البيضاء ، إنها لا تحمل أي شبه لتلك الشوارع الجميلة التي أقامها وتسقها الأجانب حيث يجلس السماسرة يرشفون صحف الصباح ، حتى الشاطئ لا وجود له بالنسبة لنا هنا . وفي الشتاء يندر أحياناً أن تسمع صوت الصفارة الراجعة - ولكنه يبدو وكأنه آت من بلد آخر . أه : يا لتعاسة المواني والأسماء التي تسحر المرء عندما لا يبرح مكانه . إنها كالموت - موت النفس المنبعث مع كل ترديد لكلمة « الإسكندرية ، الإسكندرية » .

* * *

شارع « باب المندب » ، شارع « أبو الدردار » ، « مينا البصل » (الشوارع زلقة بما يلفظه سوق القطن من بقايا) « النزهة » (حديقة الزهور ، ذكرى بعض القبالات) أو محطات الاتوبيس بأسمائها الغربية مثل « سابا باشا » ، « مظلوم » ، « زيزينيا » ، « باكوس » ، « شوتز » ، « جانا كليس » . إن المدينة تصبح عالمًا عندما يحب المرء أحد سكانها .

* * *

كان من نتائج ترددي على البيت الكبير أن غدوت مرموقاً أحظى بانتباه هؤلاء الذين يعتبرون « نسيم » من ذوى النفوذ ، وافترضوا أنه ما دام يقضي وقته معي فلا بد وأن أكون أنا أيضاً ، إما غنياً أو لامعاً بطريقة لم يضعوا أيديهم عليها بعد . فقد جاء « بومبال » إلى غرفتي عصر أحد الأيام بينما كنت نائماً وجلس على سريري ثم قال « خذ بالك » لقد أصبحت مرموقاً . إن عشيق الزوجة في إطار نمط الحياة « بالإسكندرية » يعتبر بالطبع شخصية عادية تماماً . إلا أن خروجك الكثير مع هذين الزوجين سيجعل الأمور من الناحية الاجتماعية عبئاً ثقيلاً عليك . أترى ! » .

وناولني قطعة من الورق المقوى كبيرة زاهية ، مطبوع عليها دعوة إلى حفل كوكتيل بالقنصلية الفرنسية . وقرأتها دون أن أفهمها . وقال « بومبال » : « إنه تصرف أخرق للغاية ، فرتيبي ، القنصل العام يكن « لجوستين » عاطفة قوية . ولقد جاءت بالفشل الذريع كل محاولاته للقائها . وقد أخبره أحد جواسيسه بأن لك دالة في محيط الأسرة ، وأنت في الحقيقة أنا أعرف ، أنا أعرف . ولكنه يأمل أن يحل محلك في أمورها العاطفية » . وضحك في غم . ولم يبد لي أن هناك ما هو أكثر مفاجأة للعقل من هذا الكلام في ذاك الوقت . وقلت ، « أخبر القنصل العام » وتفوهت بملاحظة عنيفة أو اثنتين جعلاً « بومبال » يقطع لسانه لاثماً ويهز رأسه . وقال : « كان بودي أن أفعل ذلك . ولكن يوجد يا عزيزي بين الدبلوماسيين ، نظام للنقد كذلك النظام المعمول به بين الدجاج ، كما أنه سندي فيما يختص بترقيتي المحدودة » .

واستدار رافعاً جسده ثم أخرج من جيبه اقصوصه صفراء الغلاف متأكلة الأطراف ووضعها فوق ركبتي وقال : هاك شيء يثير اهتمامك ، لقد كانت « جوستين » متزوجة عندما كانت صغيرة من رجل « ألباني » الأصل « فرنسي » الموطن . وكان هذا الرجل كاتباً . وهذا الكتاب عنها ، عن ماضيها الذي انتهى معه ، وهو مكتوب بطريقة مهذبة » . وقلبت الرواية بين يدي . كان عنوانها « عادات » كتبها شخص يدعى « يعقوب الارناؤوطى » . وقد أشير في صفحة الغلاف إلى أن الرواية قد أعيد طبعها مرات عديدة في أوائل الثلاثينيات . وسألت « بومبال » : « كيف توصلت إلى هذا ؟ » وغمز « جورج » بعين كبيرة ثقيلة الجفن كعيون الزواحف وهو يقول : « لقد كنا نتحرى الأمر . إن القنصل عاجز عن التفكير في أي شيء غير « جوستين » ، وقد انشغل جميع الموظفين طوال أسابيع في جمع المعلومات عنها . تحيا « فرنسا » .

ما إن ذهب « بومبال » حتى أخذت في تقليب صفحات كتاب « عادات » وما تزال في عيني بقية من نوم . والحقيقة أن الرواية كانت مكتوبة بصيغة المتكلم

بطريقة جيدة للغاية . كانت عبارة عن يوميات عن الحياة في « الإسكندرية » في منتصف الثلاثينيات . إن كاتب اليوميات ملتزم بالبحث عن رواية اقترح هو كتابتها - وهو يعرض حياته في « الإسكندرية » يوماً بيوم بطريقة دقيقة ثاقبة . إلا أن ما أسرنى في هذه الرواية هو صورة يهودية شابة يلتقى بها ويتزوجها : ويأخذها إلى أوربا : ويطلقها . إن تعثر هذه الزيجة عند عودتهم إلى « مصر » قد تم بذكاء وحشي يكشف عن أبعاد شخصية « كلوديا » زوجته . وما أثار دهشتي وانتباهي أن أرى في تلك الزوجة رسماً كرويكياً « لجوستين » التي تعرفت عليها ، دون أن أدري . إن الصورة على وجه اليقين صورة « جوستين » أصغر سناً وأكثر تشبهاً مما أعرفها . إلا أن المرء لا يخطئ في إدراك هذا التصوير ، والحقيقة أنني كلما قرأت الكتاب ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك ، كنت أستبدل الاسم باسمها . فكان يتطابق بطريقة مذهلة وكأنه الحقيقة .

لقد التقيا حيث رأيتهما أول مرة ، في مرآة ، في المدخل الكئيب لفندق «سيسيل» ، « في مدخل هذا الفندق المتهاك تنشق أشجار النخيل إلى أجزاء وتنعكس صورة سعفها الساكن في المرايا المذهبة الإطارات - الأثرياء وحدهم هم الذين يستطيعون الإقامة الدائمة في هذا المكان - هؤلاء الذين يعيشون على معاش التقاعد الذي يضمن لهم طمأنينة آمنة تحيط بهم . إنني أبحث عن مأوى أرخص من ذلك . كانت تجلس في وقار في الردهة هذا المساء ، حلقة صغيرة من السوريين ، كانوا ثقلاء في بذاتهم السوداء ، شاحبين في طرايبشهم القرمزية ، وقد ذهب نساؤهم اللواتي يشبهن أفراس النهر واللأثى لهن شوارب خفيفة إلى فراشهن وهن يحركن حليهن فيصدر عنها صوت جميل ، وجوه الرجال الفضولية البيضاء الناعمة وأصواتهم الانثوية مشغولة بلبع المجوهرات ، فإن كلاً من هؤلاء السماسرة يحمل معه أنفُس مجوهراته في علبة خاصة ، وتحول الحديث بعد العشاء إلى حلئ الذكور . إن هذا هو كل ما تبقى لسكان البحر المتوسط من موضوعات للحديث ، المصلحة الذاتية ، نرجسية انحدرت

من الإرهاق الجنسي الذي يعبر عن نفسه في رمز الامتلاك والاستحواذ : حتى إنك إن قابلت رجلاً عرفت للتوكم يساوي هذا الرجل ، وإذا قابلت زوجته فستعلم عن طريق نفس الهمسات اللاهثة كم كان صداقتها . إنهم يهتممون فوق الجواهر كالخصيان ، يقلبونها في الضوء هنا وهناك حتى يثمنونها . وتلمع أسنانهم البيضاء في ابتسامات نسائية صغيرة . ويتنهدون . ويقدم القهوة لهم ساق ذو وجه ابنوسي لامع يلبس جلباباً أبيض . وتفتح علبة ذات غطاء فضي من سجاثر ناصعة البياض (كأفخاذ المصريين) ، وفي كل سيجارة قطع صغيرة من الحشيش . قليل من « السطل » قبل النوم . كنت أفكر في الفتاة التي رأيتها بالأمس في المرآة ، سمار على بياض رخامي - عاجي : شعر أسود أملس : عينان عميقتان تتأوهان تغوص نظرات المرء فيهما لأنهما عصبيتان ، غريبتان ، تنطقان بالفضول الجنسي . إنها تتظاهر بأنها يونانية ، ولكن لا بد أنها يهودية . فلا يشم رائحة اليهودي إلا يهودي مثله ، لم يكن أي منا يملك الشجاعة حتى يعترف بأصله الحقيقي . لقد قلت لها إنني فرنسي . ولكن سينكشف كل منا أمام الآخر إن عاجلاً أو آجلاً .

« إن نساء الجاليات الأجنبية هنا أكثر جمالاً من أي مكان آخر . يسيطر عليهن الخوف والقلق ، يعشن في وهم أنهن قد غرقن في محيط من السواد يحيط بهن من كل ناحية . لقد بنيت هذه المدينة كالسد ليمنع طوفان الظلمة الأفريقية ، إلا أن « السود » بأقدامهم الناعمة قد بدأوا يتسربون إلى الأحياء الأوربية . إن نوعاً من اللقاء العنصري يجري في هذا المكان . يجب على المرء حتى يسعد هنا أن يكون امرأة مصرية مسلمة ، مشتهة ، ناعمة ، لينة نقية ، متزينة طوال الوقت ، إن أجسادهن الشمعية تتحول في ضوء النقط الساطع إلى اللون الأصفر الليموني أو الأخضر في لون البطيخ ، أجسادهن صلبة كالصناديق ، نهودهن متماسكة في لون التفاح الأخضر — برودة الزواحف في لحمهن الخارجي بما فيه من نتوءات أصابع اليدين والقدمين العظيمة ، أحاسيسهن

مدفونة فيما يسبق الوجدان . لا يمنح في الحب شيئاً من ذواتهن حيث لا ذوات لهن يعطونها ، ولكنهن يحطن بك في انكسار معذب ، عذاب رغبة جامحة مكبوتة هي نقيض الرقة والمتعة . لقد حبسن منذ قرون وحتى الآن مع الثيران في حظيرة عذاري محجبات . يتغذين في الظلام ، المربات والدهون الذكية الرائحة ، حتى غدون دنان متعة تتدحرج على أرجل زرقاء العروق بيضاء في لون الورق .

« وتتغير رائحة اللحم البشري عندما يجوس المرء خلال الحى المصري - إذ تفوح رائحة الراتنج ، خشب الصندل ، ملح البارود ، التوابل والأسماك . كانت لا تسمح لي بأن أصطحبها إلى منزلها - لأنها لاشك كانت خجلة من بيتها في هذه الأماكن المزدحمة القذرة . ورغم ذلك فقد كانت تتحدث عن أيام طفولتها حديثاً رائعاً . لقد دونت بعض الملاحظات : عندما كانت تعود إلى منزلها كانت تجد أباهما يكسر الجوز على المنضدة بمطرقة في ضوء مصباح زيتي . إنني أستطيع أن أراه بعين خيالي . إنه ليس يونانياً ولكنه يهودي من « أوديسا » يرتدي طاقية من الفرو ، وله خصلات شعر مدهونة بالشحم . كذلك أستطيع أن أرى بعين خيالي قبلة الهمجي لها ، وهو يميل عليها يأخذ شفتها السفلي بين أسنانه الجميلة غير المنتظمة ، وقضييه الهائل المتوتر كالحمم السوداء اللامعة في عصر الجليد . لقد تركنا هنا أوروبا خلفنا وأخذنا نتقدم نحو آماد روحية جديدة . لقد سلمتني نفسها باحتقار حتى أنني ولأول مرة في حياتي دهشت من القلق الذي تعانيه ، كانت تبدو وكأنها يائسة ، متخمة بالنوائب . ومع ذلك فلنسوة تلك الجاليات الضائعة شجاعة يائسة تختلف تمام الاختلاف عن شجاعتنا نحن . لقد ارتدن عالم الجسد إلى درجة تجعلهن غريبات عنا غرابة حقيقية . كيف يتسني لي أن أكتب عن كل هذا ؟ هل ستحضر أم أنها قد اختفت من حياتي إلى الأبد ؟ إن السوريين يتوجهون إلى فراشهم وهم يتبادلون نداءات قصيرة ، كالطيور المهاجرة . »

وتعود . ويتحدثان فيكتب قائلًا :

« أعتقد أنني قد اكتشفت تحت السفسطة الريفية الظاهرية والصرامة الذهنية نوعاً من عدم الخبرة بالمجتمع لا بالعالم . لقد أدركت أنني أثرت انتباهها كأجنبي يتمتع بأخلاق طيبة ، فقد سلطت على نظرة خجلة حكيمة ، كنظرة البومة ، من تينك العينين الواسعتين البنيتين بمقلتيهما الزرقاوين زرقة قاتمة وأهدابهما الطويلة التي تبرز روعة إنساني العينين بلمعانهما وصراحتها » .

من الممكن أن يتصور المرء القلق المؤلم واللهفة التي قرأت بها لأول مرة هذا العرض الخاص بعلاقة مليئة بالألم الشخصي والحيرة بعد أن قرأته مراراً وتكراراً حتى أكاد أحفظه عن ظهر قلب . ثم يكتب في مكان آخر يلي هذا المكان بكثير : « لقد كان حبنا كالمنطق الذي يفتقد المقدمات الصحيحة . أعني كان يفتقد إلى الباعث . كان نوعاً من التملك الذهني الذي أوقع كلانا في حباله وجعلنا نبصر راغمين مع التيار فوق مياه « مريوط » الضحلة الفاترة كالضفادع التي تضع بيضها ، فريسة لغرائز قائمة على الاسترخاء والحر ... كلا . ليس هذا هو السبيل لعرض الأمر . إنه ليس السبيل العادل عدلاً تاماً . دعني أحاول مرة أخرى رسم صورة كروكية « لكلوديا » مستخدماً تلك الأدوات المهتزة القاصرة . من أين نبدأ ؟

حسناً : لقد كان ذكاؤها عوناً كبيراً لها في مواجهة المواقف خلال عشرين عاماً من الحياة الضالة المرتبكة . لم أكن أعرف عن منابتها إلا القليل ، إلا أنها كانت فقيرة . وكان الأثر الذي تركته في نفسي هو صورة امرأة مشغولة بتقديم سلسلة من المناظر الكاريكاتورية الوحشية عن نفسها - إلا أن هذا التصرف كان أمراً عادياً يصدر عن أغلب الذين يعيشون في وحدة ، والذين يشعرون بأن ذواتهم الحقيقية لن تجد لها صدئ عند الآخرين . وكانت السرعة التي تنتقل بها من جو إلى جو ، ومن رجل إلى رجل ، ومن مكان إلى آخر ، ومن موعد إلى

موعد ، تصيب الإنسان بالدوار ، غير أنه كان لتقلبها رونق يأسر المرء حقاً . وكلما ازدادت معرفتي بها ، كلما قلت قدرتي على التكهن بما ستقوم به من أفعال ، كان الشيء الوحيد الثابت فيها هو صراعاها العنيف للإفلات من حاجز انفضامها النفسي . إنني كثيراً ما أتذكرها وهي تقول : « إنني أعدك يا حبيبي ، بأن الأمر سيكون مختلفاً هذه المرة » .

وفيما بعد عند ما ذهبنا إلى الخارج : عند « الأدلون »^(١) حيث تتلاعب حزم دوائر الضوء فوق الراقصين الإسبان الذين يلفهم دخان ألف سيجارة ، أو بجوار مياه « بوذا » الداكنة ، حيث تتساقط دموعها حارة بين أوراق الشجر المينة المنسابة في هدوء ، أو ونحن راكبون في سهول « إسبانيا » المقفرة ، وقد تركت أصوات حوافر جيادنا آثارها على الصمت هناك ، أو إلى جوار شاطئ البحر المتوسط ونحن ممددان فوق صخور مهجورة - لم تكن خياناتها هي ما يقلقني على الإطلاق - فعندما يتعلق الأمر « بجوستين » تغدو مشكلة اعتداد الرجل بامتلاكها مشكلة ثانوية على أي حال من الأحوال . وسبى عقلي وهم باطل بأنه في وسعي اكتشاف كنه هذه المرأة ، لكنني أرى الآن أنها لم تكن في الحقيقة امرأة ، كانت تجسيدا للمرأة التي لا تعترف بأية روابط داخل المجتمع الذي نعيش فيه . « إنني أبحث في كل مكان لاقتناص حياة جديدة بأن تعاش . ربما لو كان في وسعي أن أموت أو أجن ، لأمدني ذلك ببؤرة تتجمع فيها كل مشاعري التي لم تجد لها متنفساً صحيحاً . إن الطبيب الذي أحببته قد أخبرني أنني مصابة بالهوس الجنسي السحاقي غير أنه يا « يعقوب » لا توجد أية شراهة أو انغماس من جانبي في لذاتي . إنها مهدرة تماماً من هذه الناحية . مهدرة يا عزيزي مهدرة . إنك تتحدث عن تقبلي اللذة في حزن ، كما يفعل المتطهرون . وحتى في هذا فإنك ظالمي . إنني أتقبل اللذة بطريقة مأساوية ، ولو

(١) اسم محل رقص .

شاء أصدقائي الأطباء العثور على كلمة مركبة تستخدم في وصف هذا الكائن
 الخالي من القلب والذي أبدوا مثله ، فعليهم أن يقرروا بأن ما افتقده في القلب إنما
 أعوضه في الروح ، حيث يكمن البلاء » . إنها ، كما ترى ، ليست من نوع
 التحديدات المميزة والتي تقدر النساء عادة على تحديدها . كانت وكأن عالمها ،
 يفتقد على نحو ما أحد الأبعاد ، والحب قد تحول داخلها إلى نوع من عبادة
 الذات . ولقد فهمته في بادئ الأمر خطأ ، إذا اعتبرته أنانية تدمر وتقني صاحبها ،
 فقد بدت شديدة الجهل - بأمور الوفاء البسيطة المعروفة والتي تشكل أسس
 العاطفة بين الرجال والنساء . إن هذا الكلام يبدو كلاماً طناناً ، ولكن لا تهتم .
 فإنني أتساءل الآن في دهشة عندما أتذكر الذعر والتمزق الذي احتملته ، إذا ما
 كنت على صواب أم لا . إنني أفكر في تلك المشاهد الدرامية المزهقة في حجرات
 النوم المفروشة التي كنا نستأجرها ، و « جوستين » تفتح صنادير المياه لتفرق
 صوت بكائها ، إنها تسير جيئةً وذهاباً ، وقد ضمت ذراعيها تحت إبطيها ،
 تتمتم لنفسها . كانت تبدو كبرميل قار يحترق بلا لهب وقد وصل إلى حد
 الانفجار . كانت حالتي الصحية التي تجعلني لا أبالي وأعصابي المتعبة - وفوق
 كل ذلك روعي الأوروبية الميالة للدعابة - تبدو في مثل تلك الأوقات مثيرات لها
 تحملها فوق طاقتها . فإذا عانت ، مثلاً ، من شعور وهمي بالاستهانة بها خلال
 حفل العشاء فإنها كانت تذرع شريط السجاد أسفل السرير كالنمر الارقط .
 وإذا نمت فربما ثار غضبها فتتهزني من كتفي صارخة ، « انهض يا يعقوب » ،
 إنني أتألم ، ألا تراني ؟ » وربما كسرت شيئاً من الأشياء الموجودة فوق منضدة
 الزينة عندما كنت أرفض أن أشاركها في هذا اللغز ، حتى تجد مبرراً لدق
 الجرس . كم وجهاً من وجوه الخادومات الليليات لم أره وقد أصابه الغزع وهو
 يواجه هذا الشبح المتوحش في رداء السهرة الفضي أو الذهبي ، وهي تقول في
 أدب يبعث الرعب في النفس : « تكلمي على بتنظيف منضدة الزينة . فقد حطمت
 شيئاً ما بطريقة سخيفة » . ثم تجلس لتدخن سيجارة بعد أخرى ، ولقد قلت

لها ذات مرة : « إنني أعرف ما تعانيه بالضبط وأتوقع رغبتك في استئثاري حتى أضربك وحتى أعطى لخطاياك نوعاً من الغفران ، في كل مرة تخونيني فيها ويالكك الشعور بالذنب . إنني في بساطة ، يا عزيزتي ، أرفض أن أكون قواداً للمذاتك . يجب أن تحملي أثقالك بنفسك . إنك تسعين بلا هوادة أن أستعمل معك سوط التعذيب ، لكنني أشفق عليك » . والحقيقة التي يجب أن أعترف بها أن هذا الكلام قد جعلها تفكر تفكيراً عميقاً للحظة ، وبحركة لا إرادية شردت يديها تتلمس جلد ساقها الناعم وقد حطقت شعرهما بعناية شديدة في ذاك الأصل...

« وأخيراً ، وجدت وقد بدأت أحس بالضجر منها ، أن استخدام العواطف على هذا النحو السيء أمر مرهق للغاية حتى إنني أخذت في إهانتها والسخرية منها . فقد ناديتها ذات ليلة باليهودية المختلة المزعجة . فانفجرت تبكي بذلك النشيج الفظيع الأجش الذي كنت أسمعه منها حتى أن التفكير فيه الآن (في ثقله وكثافته شجاء) مجرد التفكير يوجعني ، وألقت بنفسها فوق سريرها لترقد وقد تدلت أطرافها وارتخت ، واجتاحتها موجات من التشنج العصبي كدفقات الماء من خرطوم .

« هل كانت تتصرف على هذا النحو في غالب الأحوال ، أم أن ذاكرتي ضاعفت فعالها ؟ ربما حدث هذا الأمر مرة واحدة ، ثم ضللتني أصداؤه . وعلى أي حال فإنه يخيّل إلى في مرات عديدة أنني أسمع الصوت الذي تحدثه عندما تفتح زجاجة الاقراص المنومة والصوت الخافت الذي يصدر عن الحبوب وهي تسقط في الكوب . فكنت أعدها ، حتى وإن كان النعاس يغالبني ، حتى أتأكد من أنها لم تأخذ أكثر مما يجب . حدث هذا بالطبع في فترة متأخرة للغاية من حياتنا الزوجية ، ففي الأيام الأولى كنت أطلب منها أن تأتي إلى سريرى ، فكانت تطيعني وهي باردة غاضبة مدركة لما تفعل . كنت غيباً حتى إنني اعتقدت أنه في وسعي أن أحررها مما هي فيه وأن أمنحها راحة الجسد التي كنت أعتقد أن

الطمأنينة العقلية تعتمد عليها ولكنني كنت مخطئاً . كانت توجد في أعماقها عقدة لم تحل وكانت « جوستين » تود أن تحل تلك العقدة التي كانت تفوق مهارتي كعاشق أو صديق . بالطبع بالطبع . كنت أعرف كل ما يمكن معرفته في ذلك الوقت عن خصائص النفس المصابة بالهستيريا . إلا أنني اعتقدت أن هناك نوعاً آخر من الصفات في وسعي أن أتبينه وراء كل هذا ، لقد كانت على نحو ما لا تبحث عن الحياة ولكنها كانت تبحث عن إلهام يوحد كل شيء ويعطي للحياة مقصداً .

« لقد وصفت من قبل كيف التقينا - في مرآة « فندق سيسيل » الطويلة ، أمام باب صالة الرقص المفتوح في ليلة « كرنفال » . الكلمات الأولى التي تحدثناها ، تبادلناها في المرآة بطريقة رمزية للغاية . كانت هناك في رفقة رجل يشبه سمكة الحبار ، كان في انتظارها بينما تفحص هي وجهها الأسمر بعناية . ووقفت أنا لأصلح ربطة عنق غير مألوفة على شكل « فيونكة » . عندما ابتسمت وقالت : « ليس هناك إضاءة كافية على الإطلاق » . كانت تمتلك صراحة طبيعية تستميل الناظر إليها ، وتبدو كدور يحميها من أي خواطر بالتمادي معها . وأجبتها دون تفكير : « ربما كانت كذلك بالنسبة للسيدات ، غير أننا معشر الرجال أقل منهن فيما نحتاج إليه » . وابتسمنا ، وعبرتها وأنا في طريقى إلى صالة الرقص . كنت مستعداً للخروج من حياتها في المرآة إلى الأبد وبدون تفكير . غير أن مصادفات إحدى تلك الرقصات الإنجليزية الفظيعة والتي أعتقد أنها تسمى « البول جونز » ، قد جعلتني فيما بعد أقف أمامها وجهاً لوجه في رقصة « فالس » . وتبادلنا بضع كلمات لا رابط بينها - ورقصت بطريقة رديئة ، وهنا يجب أن أعترف بأنه لم يكن لجمالها أى تأثير علىّ . لقد حدث هذا فيما بعد عند ما بدأت حيلتها يرسم صور سريعة سيئة التحديد حول شخصيتي ، وبطعناتها الحادة النافذة ألقت بكفاءتي النقدية في ضباب التشويش ، ناسبة إلى صفات اخترعتها هي من وحي اللحظة تحكمها في ذلك رغبة لا وازع فيها من

ضمير كي تأسر انتباهي . إن النساء يهاجمن الكتاب على الدوام - فمنذ اللحظة التي عرفت فيها أنني كاتب عزمت على تشريحي حتى تشد انتباهي نحوها . كان من الممكن أن يدهان كل هذا كرامتي إلى أقصى الحدود لو أن بعض ملاحظاتها لم تكن صائبة . إلا أنها كانت حاذقة ، وكنت أنا أضعف من أن أقاوم مثل هذه اللعبة - لعبة الكماثن الذهنية التي تقوم عليها مناوشات المداعبة والغزل .

« ومن هنا فإنني لا أتذكر شيئاً حتى تلك الليلة - الليلة الصيفية الرائعة في ضوء القمر - ونحن في الشرفة المبلة المطلة على البحر و « جوستين » تضغط راحتها الدافئة على فمي لتوقفني عن الكلام وتقول شيئاً من هذا القبيل ، « أسرع ، فطسنى ، دعنا ننته منها - من الرغبة إلى قمة اللذة » . ويبدو أنها كانت قد نالتني في خيالها . إلا أن الكلمات قيلت بدرجة كبيرة من الإعياء والمذلة - من كان في وسعه أن يمتنع عن حبها ؟ » .

« إنه لعبت أن أسرد كل هذا بالكلمات وهي وسيلة غير مستقرة . إنني أتذكر زوايا وحواف لقاءات عديدة ، وأرى « جوستين » مركبة تخفي نهماً جامحاً للمعرفة ، للقوة من خلال الخبرة الذاتية ، تحت مظهر من العاطفة . وللأسف فإنني منساق للتفكير في حيرة إذا ما كنت قد حركت عواطفها على الإطلاق - إذ أنني لم أكن بالنسبة لها غير حقل تجارب تستطيع أن تعمل فيه . لقد تعلمت مني الكثير : تعلمت أن تقرأ وأن تتأمل . أشياء لم تدركها من قبل . وربما ما أخذته أنا مأخذ الحب لم يكن غير افتتان . ففي مكان ما ، بين الآلاف المنبوزة من الناس ، والانطباعات ، وموضوعات الدراسة - كنت أرى نفسي منجراً مع التيار ، طافياً ، ماداً ذراعاي . ومن الغريب حقاً أن لقائي الحقيقي بها لم يكن في ثوب العاشق ولكن في ثوب الكاتب . هنا تصافحت أيدينا - في هذا العالم الذي لا يتقيد بخلق . عالم الأحكام المؤجلة حيث يبدو الفضول والتساؤل أعظم من النظام - النظام المنطقي الذي وضعه العقل . هنا حيث ينتظر المرء في صمت ،

ممسكاً أنفاسه وإلا شاب لوح الزجاج غمامة . لقد سهرت عليها بهذا النهج .
فقد غدوت مجنوناً بحبها .

« كان لها بالطبع أسرار كثيرة فقد كانت ابنة حقيقية « للموسوية » . وكان على أن أمنع نفسي بشدة من الغيرة أو الرغبة في اقتحام الجزء الذي تخفيه من حياتها . ولقد نجحت على وجه التقريب في هذا ، وإن قمت بالتجسس عليها فقد كان ذلك ، والحق يقال ، من باب حب الاستطلاع لأعرف ماذا تفعل أو فيما تفكر عندما لا نكون معاً . كان هناك على سبيل المثال امرأة في المدينة كانت تزورها في غالب الأحيان ، وكان لهذه المرأة تأثير عميق عليها حتى إنني بدأت ارتاب في وجود علاقة محرمة بينهما ، كذلك كان هناك رجل تكتب إليه رسائل مطولة ، رغم أنه في حدود علمي كان مقيماً بالمدينة . ربما كان طريح الفراش ؟ . ولقد قمت ببعض التحريات ، إلا أن جواسيسي كانوا يعودون إلى على الدوام بمعلومات غير ذات بال . كانت المرأة عرافة ، أرملة متقدمة في السن . واتضح أن الرجل الذي كانت تكتب إليه — ويصر قلمها وهو يجرى على الورق الرخيص — طبيب يشغل وظيفة بسيطة في قنصلية محلية وتحتل هذه الوظيفة جزءاً من وقته . كان شاذاً من الناحية الجنسية ، إلا أنه لم يكن سلبياً ، وكان له بعض اهتمامات الهواة بالفلسفة « الهرمزية » التي غدت الآن شائعة للغاية . ولقد تركت على نشافتي ذات مرة آثاراً واضحة غاية الوضوح ، واستطعت أن أقراها في المرأة (المرأة مرة أخرى) : - « إن حياتي هناك جرح لا يندمل كما تسميها ، إنني أسعي كي أجعلها مليئة بالناس ، والأحداث ، والأمراض ، بأي شيء في متناول يدي . إنك على حق عندما تقول إن هذا مبرر لحياة أفضل ، لحياة أكثر حكمة . ولكنني في الوقت الذي أحترم فيه مبادئك ومعرفتك أحس أنه إذا كان عليّ أن أصل إلى علاقة طيبة مع ذاتي ، فعليّ أن أعمل من خلال الصداقات في نفسي وأحرقه . إن أي إنسان في وسعه أن يحل مشكلتي بطريقة زائفة وذلك بأن يضعها في حجر قسيس . ولكننا أبناء « الإسكندرية » نعتز بأنفسنا أكثر

من ذلك . ونحترم الدين أكثر من ذلك . إنه لن يكون عملاً عادلاً تجاه الرب ،
ياسيدي العزيز ، فمهما خذلت غيره (أراك تبتسم) فإنني مصممة على ألا
أخذله كائنًا ما كان .

« وبدا لي حينذاك أنه لو كان هذا الكلام جزءاً من خطاب غرامي فإنه من
نوع الخطابات التي لا يخاطب بها المرء إلا قديساً ، ومرة أخرى ذهلت من
البساطة التي تمكنها من التفريق بين أفكار الأنواع المختلفة من البشر ، رغم أن
الكتابة غير متقنة ورغم ما بها من أخطاء . وبدأت أراها في ضوء مختلف ، أراها
كإنسانة يمكن أن تحطم نفسها عن طريق مزيد من شجاعة موجهة توجيهها
خاطئاً ، وأن تخسر السعادة التي ترغبها ، مثلنا جميعاً ، ولا تعيش إلا لكي
تحظى بها ، هذه الأفكار كان لها أثرها في تعديل حبي لها . وبدأت أحس أحياناً
بنفسي وقد امتلأت بالتقزز منها . ولكن ما أخافني هو إدراكي السريع الذي
أصابني بالهلع بأنني لا أستطيع العيش بدونها . وحاولت ، قمت برحلات
قصيرة بعيداً عنها . ولكنني وجدت الحياة بدونها مليئة بضجر قاتل لا يمكن
احتماله بحال من الأحوال . لقد وقعت في حبها وملأتني تلك الفكرة بياس
وتقزز لا تفسير لهما . بدا الأمر وكأنني قد أدركت دون وعي مني بأنني قد
قابلت فيها الجانب الشرير من نبوغي . أن آتي إلى « الإسكندرية » خالي الفؤاد
وأن أجد حباً كالقدر - كان كل ذلك ضربة من سوء الحظ لم يكن في مقدور
صحتي أو أعصابي احتمالها . وذكرت نفسي وأنا انظر في المرأة بأنني قد
تجاوزت الأربعين وبأن شعرة بيضاء أو شعرتين قد نبتتا في سوالي ! لقد
فكرت ذات مرة في محاولة إنهاء هذه العلاقة ، ولكن قراراتتي كانت تنهار مع
ابتسامة أو قبلة من « جوستين » ، ومع ذلك فإن الإنسان يحس وهو معها بأنه
محاط بصحبة من الخيالات التي غزت حياته وملأتها بأصدقاء جديدة . إن
الشعور بأن المرء غارق في المعميات لا ينتهي بتصرف إرادي مفاجئ . كنت
أحس في بعض الأحيان بأنها امرأة ، كل قبلة منها ضربة تقرب الإنسان من

قبره . كما حدث مثلاً عندما اكتشفت (ما كنت أعرفه) أنها كانت تخونني بشكل متصل وفي أوقات كنت أعتقد أنني أقرب ما يكون إليها . وبشكل عام لم أحس بشيء مثير للغاية ، كان إحساسي نوعاً من الخدر يغوص بي كذلك الذي يحسه المرء وهو يفارق صديقاً في مستشفى ، ثم يدخل المصعد ويهبط ستة طوابق في صمت ، واقفاً إلى جوار رجل كالآلة يرتدى الزي الرسمي ويتنفس في صوت مسموع . لقد أصابني صمت حجرتي بالصمم . ثم جمعت فكري فيما بعد - بينما كنت أقدح الذهن في هذا الأمر ، حول الحقيقة التي أدركتها وهي أن ما فعلته هي لا يمت بصلة إلى . لقد كانت محاولة منها لتحرير نفسها من أجلي كي تعطيني ما تعرف أنه ملك لي . ليس في وسعي أن أقول إن هذا الفكر كان له صدى يفضل السفسطة بأية حال . ومع ذلك فقد بدا أن قلبي يعرف حقيقة هذا وأنه يملئ علي أن أصمت صمتاً مؤقتاً كانت تستجيب له « جوستين » بدفع جديد وحرارة جديدة وامتنان يضاف إلى الحب . ومرة أخرى أثار هذا تقرزني بعض الشيء .

« آه ، لو كنت رأيته كما كنت أراها أنا حينئذ في لحظات تواضعها ورقتها ، متذكراً أنها لم تكن أكثر من طفلة ، لما لمتني في جبني . كانت تبدو في الصباح الباكر ، وهي نائمة بين ذراعي ، وقد تناثرت شعرها الباسم ، كمخلوق بدائي رائع أمسك به في عصر تطوره « البليستوسيني » ، لم تكن تشبه أي امرأة عرفتني : إنها في الحقيقة لم تكن تشبه أي امرأة أخرى على الإطلاق . ولقد دهشت فيما بعد عندما كنت أفكر فيها مرة أخرى كما فعلت وكما كنت أفعل خلال تلك السنوات القليلة الماضية ، إذ وجدت أنه رغم حبي لها بكل كياني ورغم إدراكي باني لن أحب أي واحدة أخرى - إلا أنني كنت أخشي إمكانية عودتها إلى . لقد تعايشت الفكرتان في عقلي دون أن تحل الواحدة منهما مكان الأخرى . وقلت لنفسني وأنا أفكر بارتياح : « حسناً لقد أحببت في نهاية الأمر حباً صادقاً . لقد حققت شيئاً » . وقد أضاف الجانب الآخر من ذاتي « ارحمني

من وخزات حب معادة مع «جوستين» ، ولقد وجدت أن هذا الاستقطاب الغامض في المشاعر شيء لم أكن أتوقعه على الإطلاق . وأنه إذا كان هذا هو الحب إذن فقد كان نوعاً من النبات الذي لم أره البتة من قبل . ولقد قالت «جوستين» ذات مرة : « اللعنة على تلك الكلمة ، التي أود أن ألقى بها إلى الخلف مثلما ألقى «الإليزابيثيون» كما تقول أنت بالرب . سمها تطور أو سمها ثورة . ولكن لا تستخدمها معي البتة » .



إن هذه المقتطفات الأخيرة قد انتقيتها من القسم المسمى « حياة ما بعد الموت » وهي محاولة يقوم بها المؤلف لتلخيص وتقييم تلك الأحداث ويجد «بومبال» أن الكثير من هذه الأحداث تافه وكثيب ، ولكن كيف يمكن لمن يعرف «جوستين» إلا أن يتأثر بها ؟ كذلك لا يمكن القول بأن غايات الكاتب ليست مشحونة بما يشد الانتباه . إنه يؤكد ، على سبيل المثال ، أن الناس الحقيقيين لا يمكن أن يوجدوا إلا في مخيلة فنان لها من القوة ما يمكنها من احتوائهم ثم تشكيلهم . « إن الحياة ، وهي المادة الخام لا تعاش إلا بصورة كامنة حتى ينشرها الفنان في عمله . فهل سيكون في وسعي أن أقوم بهذه الخدمة من أجل حب «جوستين» البائسة » . (أقصد بالطبع كلوديا) . « إنني أحلم بكتاب قوي حتى إنه يحتوى كل عناصرها ، إلا أنه لن يكون من نوع الكتب التي تعودنا عليها في هذه الأيام . سيوجد في الصفحة الأولى مثلاً ملخص للرواية في سطور قليلة . وبذا يمكن الاستغناء عن التفصيل الروائي . ثم يتبع ذلك دراماً تحررت من عبء الشكل ، سأطلق كتابي يحلم كما يشاء » .

ولكن المرء بالطبع لا يستطيع أن يهرب في بساطة من النموذج الذي يعتبره مفروضاً عليه مع أنه في الحقيقة ينمو نمواً عضوياً من داخل العمل ذاته ويسيطر عليه . إن ما يفتقده عمله — وهذا نقد لكل الأعمال التي لم ترتق إلى القمة — هو الإحساس بالدراما . إنه يحمل في عنف على مادة موضوعه ، مما

يصيب أسلوبه ببعض من ضراوة «كلوديا» غير المتزنة . وبالتالي يقوم كل شيء على العاطفة ويتساوى في الأهمية لديه : إشارة تصدر عن «كلوديا» بين أشجار «الدقلي» في «اللزعة» ، الموقد الذي أحرقت فيه مخطوط روايته عنها ، «ولا يام كانت تنتظر إلى كأنها تحاول قراءة كتابي في وجهي» . الحجرة الصغيرة في شارع «ليبيسوس» بكرسيها الخيزراني الذي «يزيق» ... إنه يقول عن شخصياته «إنها جميعاً مقيدة بالزمن في بعد هو ليس في الواقع ما كنا نبغي أن تكون عليه — ولكن احتياجات العمل هي التي تخلقه ، فالدراما تخلق القيد دائماً ، ولا يكون للمثل أهمية إلا بالقدر الذي يلتزم به» .

غير أننا لو وضعنا تلك التحفظات جانباً لوجدنا أنه قد عمد إلى نقل صورة غاية في الرقة والدقة عن «الإسكندرية» ، «الإسكندرية» ونسائها . إننا نجد هنا رسومات «الليوني» ، «جابي» ، «فوسكا» — الرسومات الوردية الفاتحة اللون ، والذهبية ، والسوداء في لون القار . وفي وسع المرء أن يتعرف بسهولة شديدة على بعض الشخصيات في صفحاته . «كليا» والتي ما تزال تعيش في هذا الرسم المرتفع ، عشب عصفور الجنة المصنوع من نسيج العنكبوت والأقمشة القديمة — لقد رسمها دون أن يخطئها . غير أن هؤلاء الفتيات الإسكندرانيات لم يتميزن في أغلب أجزاء الكتاب عن غيرهن من النساء في أماكن أخرى إلا بوقائهن الذي يبعث الرعب في النفس وبضجرهن من هذا العالم .

إنه كاتب على جانب من القدرة مكنه من أن يستخرج تلك الصفات الحقيقية لمدينة «السوما» . إن المرء لا يتوقع المزيد من المواهب من دخيل اخترق قشرة «الإسكندرية» الصلبة عن طريق يكاد أن يكون خاطئاً ثم اكتشف نفسه .

أما عن «جوستين» ذاتها ، فهناك بعض الإشارات القليلة إن كان هناك ثمة إشارات عن الأرناؤوطي في الصفحات المغلقة المعاني بصورة كبيرة في يومياتها . لقد اقتفيت أثر الحرف (أ) هنا وهناك . ولكني غالباً ما عثرت عليه

في الفقرات الزاخرة بالتأمل النفسي الخالص وما هي واحدة يمكن أن تبدو المطابقة فيها مقبولة :

« لقد كانت حجرة (١) هي أول ما شدني إليه . كان يبدو لي دائماً أن هناك ضوضاء تجرى وراء مصاريع النوافذ الثقيلة . الكتب تترقد في كل مكان ، غلافها مقلوب أو مغطى بورق الرسم الأبيض ، كأنما لتخفي عناوينها . كومة هائلة من الجرائد المليئة بالثقوب ، وكأن حشداً من القيран قد اتخذها ولائم له ، قصاصات (١) من « الحياة الواقعية » كما كان يسميها ، اقتباسات يحس أنها تبعد كل البعد عن حياته هو : كان يجلس إلى جرائده وكأنه يجلس إلى المائدة وقد ارتدى رداء منزلياً مرقعاً ولبس شبشباً من القطيفة ، يقص الجرائد بزواج من مقصات الاظافر الثالثة . إنه يشغل باله « بالحقيقة » في العالم خارج نطاق عمله بطريقة مربكة كما لو كان طفلاً . إنه مكان يمكن أن يسعد فيه الناس ، وأن يضحكوا ، وأن يتناسلوا » .

إن عدداً قليلاً من تلك الخطوط يشكل كل صورة مؤلف « عادات » ، ويبدو هذا الأمر كجزء نافه ومخيب للأمال ، لمثل هذا العمل الجاد العامر بالحب ، كما أنني لم أستطع العثور على كلمة واحدة عن فراقهما بعد هذا الزواج القصير غير المثمر . غير أنه كان مثيراً أن ترى من كتابه كيف أصدر نفس الأحكام التي كان على أنا و « نسيم » أن نصدرها عليها فيما بعد . لقد كانت قدرتها على انتزاع امتثالنا لها أمراً يثير العجب وكأنما كان الرجال يعرفون للحال أنهم أمام امرأة لا يحكم عليها بالمقاييس التي استخدموها حتى الآن عندما يفكرون في النساء . لقد قالت « كلياً » عنها ذات مرة (ومن النادر إن لم يكن من المستحيل أن تكون أحكامها متسامحة) : « إن البغي الأصلية هي حبيبة الرجل الحقيقية - مثل «جوستين» ، إنها وحدها التي تملك القدرة على أن تجرح الرجال . غير أن صديقتنا بالطبع ليست إلا نسخة ضحلة من إنتاج القرن العشرين لمحظيات الماضي العظيمات ، إنها تنتمي دون أن تدري ، « لـلايس » و « شـاريس »

والباقيات ... إن دور «جوستين» قد أخذ منها ، ليضع المجتمع على كاهليها عبء الخطيئة حتى يضاف إلى ما تعانيه من متاعب . إنه لأمر يثير الشفقة . «فجوستين» ابنة حقيقية «للإسكندرية» .

ولقد بدا «لكليا» أيضاً أن كتاب «الارناؤوطي» الصغير عن «جوستين» سطحي ومصاب بداء الرغبة في شرح كل شيء . قالت : «إننا مصابون بمرض الرغبة في احتواء كل شيء في إطار من الاستدلال النفسي أو الفلسفي . ورغم كل شيء لا يمكن أن تبرر أعمالها أو أن تقدم الأعذار عنها . إنها في بساطة وروعة كما هي ، وعلينا أن نحتملها كما نحتمل الخطيئة الأصلية . أما أن تقول ، ياعزيزي ، إنها مصابة بالهوس الجنسي السحاقي أو أن نحللها على طريقة «فرويد» ، فإننا بذلك ننتزع منها كل مادتها الأسطورية – ننتزع الشيء الوحيد الذي تتكون منه عن حق وصدق . إنها تكاد أن تكون إلهة مثل كل أولئك الناس الذين لا يلتزمون بالقيم الأخلاقية . فلو أن عالمنا كان عالمًا حقيقياً لوجدت المعابد التي تهيب لها ما تنشده من راحة . معابد ليست كتلك الأديرة الملعونة المليئة بالشبان الكاثوليك الصغار الذين ملأت البثور أجسادهم والذين امتطوا أعضاءهم التناسلية كما يمتطي المرء مقعد الدراجة» .

كانت تفكر في الفصول التي وضعها «الارناؤوطي» تحت عنوان «الحائل» والتي يعتقد فيها أنه قد عثر على الدليل الذي يقوده إلى فهم سر تقلب قلب «جوستين» . ربما كانت تلك الفصول ضحلة كما تقول «كلياً» ، غير أنها تستحق الاحترام ، فكل شيء يحتمل أكثر من تفسير واحد . أما أنا فلا اعتقد أنها تفسر لنا تصرفات «جوستين» ، ولكنها إلى حد ما تلقي بعض الضوء على تلك التصرفات — على تلك الرحلات الطويلة التي قاما بها معاً وقطعا فيها أوربا طولاً وعرضاً . كتب يقول : «كانت في ذروة انفعالها العاطفي» ويضيف هنا جملة عرضية (وانفعالها العاطفي هو أسهل ما في وسعها أن تهب) «مانع يحول دون استمتاعها — حائل ضخم من المشاعر بدأت أحس وجوده بعد عديد

من الشهور . لقد وقف بيننا كشبح ، وأدركت أو اعتقدت أنني قد أدركت العدو الحقيقي لسعادتنا التي تقنا لأن نتقاسمها والتي نحس أننا محرومان منها على نحو ما . ما هو هذا المانع ؟ » .

« لقد أخبرتني ذات ليلة ونحن راقدان على ذلك السرير الضخم البشع في حجرة مؤجرة — حجرة كثيفة مستطيلة لها شكل ونكهة ورائحة فرنسية شرقية غامضة — سقفها المصنوع من المصيص مغطي بصور متأكدة للملائكة ونقوش على شكل أوراق العنب . أخبرتني وتركتني أحترق بغيرة جاهدت أن أخفيها ، غيرة من نوع جديد لم أعده في نفسي من قبل . لقد كانت غايتها رجلاً لم يعد له وجود في حياتها رغم أنه ما زال يحيا . ربما كان ما يسميه أنصار «فرويد» ستار ذاكرة الأحداث التي وقعت لها في صباها المبكر . (لم يكن هناك أدنى افتعال لإضفاء أية قوة على هذا الاعتراف ، فقد كان مصحوباً بفيضان من الدموع ، ولم أكن قد رأيتها تبكي مثل هذا البكاء من قبل أو من بعد) لقد اغتصبها واحد من أقاربها . إن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من الابتسام لتفاهة الفكرة . كان من المستحيل أن يقدر المرء عمرها حينما اغتصبت . ومع ذلك — فقد اعتقدت أنني قد نفذت إلى صميم هذا الحائل : لأنها منذ ذلك الوقت وما تلاه لم يعد هناك ما يشبعها في العشق ما لم تعد في ذهنها خلق تلك الأحداث وتمثيلها . لم تكن نحن عشاقها غير البديل الذهني لهذا الحدث الأول في طفولتها — وبذا اتخذ الحب ، كشكل من أشكال ممارسة العادة السرية ، كل ألوان النورستينيا (ضعف الأعصاب) كانت تعاني من تخيل يحتضر لشدة ضعفه ؛ لأنه لم يكن في وسعها أن تمتلك جسد أى رجل امتلاكاً كاملاً . لم يكن في وسعها أن تحوز لنفسها الحب الذي تحس أنها محتاجة إليه ، لأن إشباع نزواتها كان ينبع من الزوايا الغامضة لحياة لم تعد تحياها .

لقد كان هذا أمراً مثيراً من الناحية العاطفية ، غير أن ما كان أكثر تسلية هو أنني أحسست بتلك اللطمة الموجهة لكرامتي كرجل . وكأنما قد اعترفت لي عن

عمد بخيانتها . ماذا ! إني كل مرة نامت بين ذراعي لم تجد أي إرضاء لها إلا من خلال تلك الذكرى ؟ إذن ، وعلى نحو ما ، لم يكن في وسعي أن أنالها : بل إنني لم أنلها على الإطلاق ، لقد كنت مجرد دمية . وحتى الآن وبينما أكتب هذا فلإنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الابتسام عند ما أتذكر الصوت المختنق وأنا أسألهما عن يكون الرجل . وأين هو (ماذا كنت أمل أن أفعل ؟ أن اتحداه إلى مبارزة ؟) . ومع ذلك فقد كان هناك ، واقفاً بالتمام بيني وبينها ، بين «جوستين» وشعاع الشمس .

« غير أنني هنا أيضاً كنت طليقاً إلى الحد الذي جعلني الحظ إلى أي مدى يتغذي الحب على الغيرة ، لأنها كأمراة بعيدة عن متناولى رغم أنها بين ذراعي ، قد غدت مشتتة ولازمة لي عشر مرات أكثر من ذي قبل . لقد كانت ورطة محزنة لرجل لم يكن ينتوى أن يقع في الحب ، ولامرأة لم تكن ترغب إلا في أن تتحرر من فكرة مسيطرة عليها ، وتنطلق لتحب . ومن هنا نبع شيء آخر . لو استطعت أن أحطم هذا الحائل لغدا في وسعي أن أنالها بحق ، أن أنالها كما لم ينلها إنسان آخر من قبل . كان في وسعي أن أخطو مكان الشبح وأتلقى قبلاؤها بحق ، لأنها الآن تتساقط على جثة . يبدو لي ، أنني قد أدركت كل شيء . إن هذا ليفسر الجولة الكبيرة التي قمنا بها ، وأيدينا المتشابكة لغة متبادلة ، حتى نتغلب على هذا الشبح بمساعدة العلم . لقد زرنا معاً صومعة « تشكنيا » المملوءة بآرقف الكتب حيث جلس العالم النفساني المشهور يحملق في نماذجة وهو شاحب اللون . « بازل » ، « زيورسخ » ، « بادن » ، « باريس » - هدهدة قضبان الصلب السريعة فوق شرايين أوروبا : عصب من الصلب يلتقي ويتفرق عبر الجبال والوديان . ويلتقي المرء . بوجهه في مرايا قطار الشرق السريع المليئة بالصدأ . لقد حملنا مرضها فوق أوروبا جيئة وذهاباً كما يحمل طفل في أرجوحة إلى أن بدا اليأس يتسرب إلى نفسي ، بل وحتى بدأت أتخيل أن « جوستين » نفسها ربما تكون راغبة عن الشفاء . لأنها قد أضافت إلى ذلك الحائل النفسي

اللا إرادى حائلاً آخر ينبع من إرادتها . إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا يجب أن يحدث كل هذا ، إلا أنها لن تخبر أحداً باسمه ، باسم هذا الشبح . اسم يمكن أن يعني بالنسبة لها الآن كل شيء أو لا شيء . ومع ذلك فإنه يوجد في مكان ما من العالم وقد أخذ شعره يتساقط ويبيض من متاعب الأعمال والإفراط في كل شيء . إنه يضع على إحدى عينيه عصابة سوداء كما يفعل دائماً كلما أصيب بالرمد إن كان في وسعي أن أصفه لك فإنما يرجع ذلك إلى أنني قد رأيته بالفعل ذات مرة) . لقد اعتادت « جوستين » أن تصرخ ، « لماذا أخبر الناس باسمه ؟ إنه لا شيء بالنسبة لي الآن - ولم يكن أى شيء في يوم من الأيام . لقد نسى تماماً تلك الأحداث . ألا ترى إنه ميت بالنسبة لي ؟ وعندما أراه » وأحسست كأن حية قد لدغتنى . إذن « فأنت تريه » . وتراجعت إلى موقع أكثر أمناً ، « أراه عابراً في الطريق مرة كل بضعة سنوات قليلة . إننا لا نفعل أكثر من الإيمان بالتحية » .

« إذن فهذا المخلوق ، هذا النمط الدارج من البشر ، ما زال يتنفس ، ما زال يعيش ! ما أعجب الغيرة وما أدناها . غير أن الغيرة النابعة من خيال العاشق تنتهى إلى أن تكون أمراً مثيراً للسخرية .

ثم حدث ذات يوم في قلب « القاهرة » ، خلال زحام المرور في منتصف ليلة صيف كان الحر فيها خانقاً أن توقفت سيارة أجرة بجوار « التاكسي » الذي كنا نركبه وشد انتباهي شيء من التعبير الذي كان على وجه « جوستين » فنظرت في اتجاه نظراتها . ورأت عيناى ، في هذا الحر اللاهث الرطب ، المثقل بالندى المتصاعد من النهر فيصيب المرء بالصداع والرائحة النتنة للفاكهة المتعفنة والياسمين وأجساد « السود » التي تسيل عرقاً ، رأت عيناى الرجل العادى الجالس في السيارة الواقفة إلى جوارنا . لم يكن هناك ما يميزه عن الألف الآخرين من رجال الأعمال القذرين المشوهين بهذه المدينة الفظيعة غير العصابة السوداء الموجودة على إحدى عينيه . كان شعره خفيفاً ومنظر وجهه الجانبي حاداً ، وعينه تشبه الخرزة : كان يرتدي حلة صيفية رمادية اللون .

وكان تعبير الحيرة والعذاب المرتسم على وجه « جوستين » واضحاً حتى أنني صرخت دون أن أدري ، « ما الأمر » ؟ . وعندما ارتفعت إشارة المرور وأخذت السيارة في السير أجابت وفي عينيها يلمع نور غريب ، فيه شيء من جراءة السكاري ، « هذا هو الرجل الذي تسعون جميعاً لمعرفته » غير أنني كنت قد أدركت الأمر قبل أن تخرج الكلمات من شفتيها فأوقفت السيارة التي نركبها ، وقفزت إلى الشارع كما لو كنت أعاني كابوساً . ورأيت ذيل الضوء الأحمر في مؤخرة التاكسي الذي يركبه بينما يدخل شارع « سليمان باشا » ، كان بعيداً عني للغاية حتى أنني لم أتمكن من تمييز لون السيارة أو رقمها . كان من المستحيل مطاردتها ، فقد اشتد زحام المرور خلفنا مرة أخرى . وعدت إلى التاكسي أنتفض ولا أنطق شيئاً . إذًا فهذا هو الرجل الذي سعى « فرويد » لمعرفة اسمه مستخدماً كل المقدرة الهائلة لأسلوبه الموضوعي المحبب إلى النفس . لقد رقدت « جوستين » من أجل هذا الرجل البريء المتوسط العمر متوترة ، كل عصب من أعصابها مشدود وكأنه على وشك الانفلات ، بينما صوت « مانياني » الرفيع القاسي يعيد مرة بعد أخرى « أخبريني باسمه ، يجب أن تخبريني باسمه » بينما صوتها القادم من عالم الرؤى المنسية حيث ترقد ذاكرتها يردد كعراف من عصر الآلة « لا أستطيع أن أتذكر ، لا أستطيع أن أتذكر » .

« وبدا واضحاً لي حينذاك أنها هي التي لا ترغب بشكل إرادي في التغلب على هذا الحائل ، وبالطبع فإن قوة كل الأطباء لن تغريها بذلك . لقد كان الأمر هكذا دون تزييف، إنها ترقد هنا مصابة بالهوس الجنسي السحافي كما أكد لي هؤلاء السادة المجلون . كنت أقتنع في بعض الأحيان بأنهم على صواب ، وكنت أشك في ذلك أحياناً أخرى ، ومع ذلك فقد كان مثيراً لي أن أرى العذر الذي يبرر سلوكها وهو أن كل رجل ضاجعته كان يحمل لها فرصة اعتناق عواطفها ، اعتناقها من ذلك الانغلاق الخائف حيث لا يتغذى الجنس إلا على شعلات الوهم المنتفخة .

« ربما أخطأنا بالحديث صراحة في هذا الأمر ، بتناوله كمشكلة إذ لم يقدم هذا شيئاً إلا أن أعطاهما شعوراً بأهمية ذاتها وأمدها فوق ذلك بحالة من القلق العصبي كانت لا تعانيها حتى ذلك الحين . لقد كانت مباشرة في حياتها العاطفية - كالفأس الساقطة على هدفها . كانت تتقبل القبلات كما تتقبل طبقات عديدة للغاية من الطلاء على شفتيها . وفي الحقيقة فإنني أحس بالحيرة عندما أتذكر الجهد الطويل وأنا أنقب عبثاً عن مبرر يمكن أن يجعل خروجها على القيم الخلقية مفهوماً على الأقل إن لم يكن مقبولاً . إنني أدرك الآن كثرة الوقت الذي ضيعته في هذا السبيل ، بدلاً من التمتع بها ، والخروج من تلك المشاغل بفكرة ، « إنها لا تستحق الثقة بقدر ما هي جميلة . إنها تتقبل الحب في بساطة ودون تفكير ، كما يتقبل النبات الماء . » وحينئذ كان في وسعي أن أسير وذراعي يتأبط ذراعها قرب القنطرة العفنة ، أو نبحر فوق المياه السابحة في الشمس ، أتمتع بها كما هي وأقبلها كما هي . أى قدرة رائعة نمتلكها نحن الكتاب كي نحتمل التلعاسة . إنني لا أعرف إلا أن هذا الفصل الطويل الموجه « لجوستين » لم ينجح إلا في أن يجعلها أقل ثقة بذاتها ، كذلك أكثر ممارسة للخيانة عن وعى ، والأسوأ من كل هذا أنها بدأت تنظر إلى كعدو يتربص أقل هفوة ، أقل كلمة أو إشارة يمكن أن تفضحها ، وضاعفت يقظتها للدفاع عن نفسها ، وأخذت تتهمني بأنني أغار غيرة غير محتملة . ربما كانت على صواب . إنني أذكروها وهي تقول : « إنك تعيش الآن وسط علاقاتي العاطفية الخيالية ، لقد كنت غبية عندما صارحتك بكل شيء ، عندما كنت صريحة معك إلى هذا الحد . انظر إلى الطريقة التي تسألني بها الآن . إنك تكرر نفس الأسئلة منذ عدة أيام . ثم تنقض على الأقل تناقض في كلامي . وأنت تعرف أنني لا أحكي نفس القصة بنفس الطريقة مرتين . فهل يعني هذا أنني أكذب ؟ » .

« ولم يثر ، هذا القول منها حذى قضاعت محاولاتي لاختراق الستار الذي اعتقدت أن غريمي يقف خلفه ، وعصابة سوداء فوق إحدى عينيه . كنت

ما أزال أراسل « مانياني » وأحاول تجميع أكبر قدر ممكن من الأدلة والتي ربما كانت تساعد في تفسير هذا اللغز ، ولكن بلا جدوى . فمن في وسعه أن يجد طريقاً في ذلك الدغل الكثيف الذي تكونه بواعث الخطيئة والذي يشكل نفسية الإنسان . حتى عندما يكون صاحب المشكلة راغباً في التعاون ؟ كم كنا لهونا معاً لو كانت « جوستين » تتعم بالقدرة على الملاحظة ، بدلاً من الوقت الذي ضيعناه في بحوث لا طائل تحتها فيما تحب وما تكره . إنني أتذكر رسالة كاملة بنيتها على اعتراف منها بأنها لم تكن تقرأ الكلمات « واشنجن د . ك » الموجودة فوق أى خطاب إلا وتحس بالتقرز والاشمئزاز . إنه لامرأسف عليه الآن أشد الأسف فقد ضيعت هذا الوقت بينما كان على أن أستمتع بحبها كما تستحق . ولابد أن بعض هذه الشكوك قد أصابت « مانياني » العجوز أيضاً فإنني أتذكره وقد كتب إلى قائله : يجب ألا تنسى يا عزيزي الصغير أن هذا العلم الوليد الذي نعمل به ، والذي يبدو مليئاً بالمعجزات والآمال ، قد قام في أحسن الأحوال على غالبية من القواعد المزعجة ، مثله في ذلك مثل علم التنجيم . ومع ذلك فإن تلك الأسماء الهامة التي نطلقها على الأشياء مثل « الهوس الجنسي السحافي » ربما يعتبر صيغة أخرى ، إن شئت ، للعدرية ، أما بالنسبة « جوستين » فإنها ربما لم تقع في الحب على الإطلاق . وربما جاء يوم تلتقي فيه برجل تتساقط أمامه كل تلك الأوهام المزهقة وتنتهي إلى أن تكون بريئة مرة أخرى . يجب عليك ألا تستبعد هذه الفكرة ، بالطبع لم يكن يحاول إيلاامي - لأنها كانت فكرة لا أبالي بالاعتراف بها لنفسي . غير أنها نفذت إلى أعماقي عندما قرأتها في خطاب هذا الرجل العجوز الحكيم .

* * *

لم أكن قد قرأت تلك الصفحات من كتاب « الارناؤوطى » حتى قبل ذلك الاصيل في « برج العرب » عندما تقرر مستقبل علاقتنا بدخول عنصر جديد . إنني لا أجروء على استخدام كلمة الحب ، خشية أن أسمع بخيالي تلك الضحكة

الخشنة العذبة ! ضحكة يمكن أن يكون كاتب اليوميات قد ردد صداها في مكان ما . وللحقيقة فقد وجدت أنه قد حل موضوعه تحليلًا يخلب الأبواب ، ووجدت أن علاقتنا كانت صدى يتردد عن قرب للعلاقة التي تمتع هو بها مع «جوستين» ، حتى إنني أحس في بعض الأحيان وكأني شخصية من شخصيات «عادات» . فضلاً عن ذلك ، فيها أنذا ، أحاول أن أقوم بنفس الشيء معها مستخدماً الكتابة - رغم أنني لا أمتلك مقدرته ولا أزعم لنفسى أى ادعاءات تعني أنني فنان . إنني أود أن أضع الأشياء في بساطة وكما هي ، دون تنسيق أو تنميق - يجب أن تغطي المواد المستخدمة في صورة «جوستين» بخطوط ترسم في أمانة ما تعانيه من تعاسة .

لم نلتق لفترة قصيرة بعد حادث الشاطئ ، فقد أصيب كلانا بدوامة من التردد - أو على الأقل كنت أنا كذلك . واستدعى «نسيم» إلى «القاهرة» لأمر تتعلق بالعمل ، ورغم أن «جوستين» ، حسبما أعرف ، كانت في المنزل بمفردها، إلا أنني عجزت عن أن أحمل نفسي على زيارة الرسم . وبينما كنت عابراً ذات مرة سمعت عزف البيانو وكاد أن يحملني الإغراء على دق الجرس . فقد كانت صورتها وهي جالسة إلى البيانو الأسود بلامحها المحددة واضحة في خيالي . ومرة أخرى بينما كنت أسير - فيما بعد - قرب الحديقة رأيت شخص ما - لابد أنه كان «جوستين» - يسير قرب بركة الزنابق ، يظل شمعاً براحة يده . ووقفت متردداً للحظة أمام البوابة الكبيرة حائراً أددق الجرس أم لا أدقه . وكانت «ميليسا» قد انتهزتها فرصة لزيارة صديقة لها في الصعيد . كان الصيف يحث الخطى ، والحر يكتم أنفاس المدينة وأنا أتوجه للاستحمام كلما سمح وقتي بذلك ، متخذاً ذلك الترام الصغير الذي يشبه العلبه ، وسيلتي في الانتقال إلى الشواطئ المزدحمة .

ثم حدث ذات يوم بينما كنت راقداً على سريرى أعاني من ارتفاع في درجة الحرارة بسبب جرعة من الشمس أكثر مما أحتمل أن دخلت «جوستين» في

هذا الهدوء الرطب لشقتي الصغيرة ، مرتدية ثوباً وحذاء أبيض ، وتحمل تحت إبطها حقيبة يدها وبشكيراً ملفوفاً ؛ وقد تالقى في سرعة أسرة ، بهاء ، جلدها وشعرها السمراوان من خلال كل هذا اللون الأبيض . وعندما تكلمت كان صوتها فظاً مهتزاً . وبدا للحظة كأنها كانت سكرى - ربما كانت بالفعل كذلك . وأخرجت إحدى يديها وأسندتها إلى المدفأة وهي تقول : « إنني أود أن أضع حداً لكل هذا بأكبر سرعة ممكنة . إنني أعتقد أننا قد تمادينا إلى الحد الذي يصعب فيه النكوص » . أما بالنسبة لي فقد شعرت بنوع رهيب من انعدام الشهوة يستنفد طاقتي وآلام مبرحة في الجسد والعقل تمنعني من أن أقول شيئاً أو أفكر في شيء . لم يكن في وسعي أن أتصور مضاجعتها ، فالنسيج العاطفي الذي نسجه كل منا حول الآخر - كان على نحو ما - يقف حائلاً بيننا : نسيج غير مرئي من قيم الوفاء ، والآراء ، والتردد ، الذي لم يكن لدى الجراحة لالقي به جانباً . وعندما خطت للأمام خطوة قلت في صوت واهن : « إن هذا السرير فظيع وكريه الرائحة . لقد كنت أسكر . حاولت أن أمتع نفسي بنفسي لكنني فشلت - لقد ظلمت أفكر فيك » . وأحسست بنفسي وقد شحب لوني بينما أنا راقد ساكن فوق الوسائد ، وفجأة أحسست بالصمت المخيم على الشقة الصغيرة ، وقد مزقته قطرات من صنبور يرشح الماء في أحد الأركان . ونهقت سيارة أجرة على بعد ، ومن الميناء جاء صوت الصفارة في زفرة واحدة سوداء ، كزئير حيوان خرافي مكتوم . وأحسست للتو أننا بمفردنا تماماً .

كانت الغرفة بكل ما فيها تخص « ميليسا » . منضدة الزينة التي تثير الرثاء وقد ازدحمت بعلب المساحيق الفارغة والصور : الستارة الرشيقة تتنفس في رقة كشرار سفينة في هواء العصر الخانق . كم رقدنا هنا أنا و « ميليسا » كل في أحضان الآخر نرقب التارجحات البطيئة لتلك القطعة الشفافة من الكتان الزاهي . وتحركت « جوستين » بجسدها العارى القاسى عبر كل هذا ، كأنما كانت تتحرك عبر صورة المحبوب وقد احتوتها دمة كبيرة . ولا بد أن أكون

أعمى حتى لا ألحظ كيف امتزج بالحزن عزمها على أن تتال ما تريد . ورقدنا لفترة طويلة ، ينظر كل منا في عين الآخر ، وقد تلامست أجسادنا ، لا نكاد نتبادل إلا الشعور الحيواني بالضجر والذي يبعثه فينا ذلك الاصيل المتلاشي . وعندما ضممتهما في رقة بين ذراعي لم أستطع أن أمتنع عن التفكير حينئذ كيف أننا لا نسيطر على أجسادنا إلا قليلاً . وفكرت في كلمات « الأرناؤوطى » وهو يقول : « لقد اتضح لى حينذاك ، أن هذه الفتاة قد سلبتني كل متانة خلقي بطريقة مخيفة ، إنني أحس كأن رأسي قد جز شعرها . غير أن الفرنسيين ، كما فكرت ، يتألمون دون شك عندما يواجهون شيئاً لا يستطيعون الرجوع فيه إلى أحكام مسبقة ، ويعود ذلك لما جبلوا عليه من التردد الذي لا نهاية له بين السعادة والأسى . لقد فطروا على البراعة الوقتية وحب الفنون ، لكنهم لم يفطروا على المجابهة الدائمة للأمور ، إنهم يفتقدون إلى تلك اللمسة البسيطة من الخشونة والتي تغلف العقل « الأنجلوسا كسوني » . وقلت لنفسى : « حسناً ، دعها تسير بى إلى حيث تشاء ، فإنها ستجدنى نداءً لها . وفي النهاية لن يكون هناك مكان للأحزان » . ثم فكرت في « نسيم » ، الذي كان يبدو وكأنه يرقبنا (رغم أنى لم أكن أعرف ذلك) من خلال تلسكوب ضخم مقلوب ، كان يرى صورنا الصغيرة بعيداً هناك على أفق آماله ومشاريعه . كنت مثلهفاً على ألا يتألم .

غير أنها كانت قد أقفلت عينيها - إنها الآن ناعمتان متألفتان كأنما قد صقلهما الصمت الذي يجثم كثيفاً على كل ما حولنا . وغدت أصابعها المرتعشة ثابتة مستريحة فوق كتفي . واستدرنا نحو بعضنا البعض كضلفتي باب تنغلقتان على الماضى ، وتمنعان كل شيء من الدخول ، وأحسست بقبلااتها التلقائية القلبية الهائلة وقد أخذت تشكل الظلام حولنا وكأنها لمسات متلاحقة من اللون ، وقالت بعد أن انتهينا من المضاجعة ورقدنا مرة أخرى يقظين ، «إننى دائماً رديئة للغاية في المرة الأولى ، لماذا يحدث ذلك ؟ » .

« ربما يرجع ذلك إلى ما عليه الأعصاب في حال . فانا أيضاً كذلك » .
« إنك تخشاني بعض الشيء » .

وعندئذ نهضت على مرفقي وكأني قد استيقظت فجأة وقلت لها : « ولكن ماذا سنستفيد يا « جوستين » من كل هذا ؟ إذا كان هذا ... » غير أن رعباً شديداً تملكها الآن فوضعت راحتها على فمي وهي تقول : « بحق السماء لا تقدم أى تبريرات وإلا عرفت بأننا على خطأ . لا شيء في استطاعته أن يبر ما فعلناه . لا شيء . ومع ذلك فلم يكن هناك مفر من أن يحدث الأمر هكذا » . وغادرت الفراش وتوجهت إلى منضدة الزينة وقد صفت عليها الصور وعلب المساحيق ، وكنت كل ما عليها بضربة واحدة كضربة مخلب النمر . وقالت « هذا ما أفعله أنا « بنسيم » ، وما تفعله أنت « بميليسا » إذ من الدناءة أن نحاول وندعى غير ذلك » . لقد اتفق هذا إلى حد كبير مع ما هيأني « الأرنأوطى » لتوقعه منها فلم أقل شيئاً ، واستدارت وأخذت تقبلني في ألم نهم إلى أن بدا كفتاى المحترقان من الشمس ينبضان بالألم حتى اغرورقت عيناي بالدموع . فقالت في رقة وحزن : « آه ، إنك تبكى . كم أود لو بكيت . فقد فقدت القدرة على ذلك » .

إنني أتذكر وأنا أحدث نفسي وقد أمسكت بها أذنوق دفاء وحلاوة جسدها المالح من ماء البحر - فقد كان لحلمتي أذنيها مذاق مالح - أتذكر وأنا أقول لنفسي : « إن كل قبلة مني ستقربها من « نسيم » ، ولكنها تجعلني أكثر بعداً عن « ميليسا » . إلا أن الأمر الغريب حقاً هو أنه لم ينتابني أى شعور بالقنوط أو الألم ، ولابد أنها أيضاً من ناحيتها كانت تفكر بنفس النهج إذ قالت فجأة : « إن « بلتازار » يقول بأن هؤلاء الذين جبلوا على الخيانة كجزء من طبيعتهم - مثلى ومثلك - إنما هم « قباليون » حقيقيون . إنه يقول إننا أموات نعيش حياتنا كالأشياء المنسية التي تتجمع على حافة الجحيم . ومع ذلك فإن الأحياء لا يستطيعون الاستغناء عنها . إننا نمدهم بالرغبة في أن ينمو ، وأن يمارسوا مزيداً من التجربة » .

حاولت أن أقول لنفسي كم كان كل هذا غباء - إنها قصة زنا مبتذلة من أرخص تفاهات المدينة : ولا تستحق حياً عاطفية أو أدبية . ومع ذلك ففي مكان آخر ، في أعماق نفسي ، كان يبدو أنني أدرك أن التجربة التي أقدمت عليها سيكون لها الخاتمة الخالدة لدرس تعلمته ، وقلت لها في حق : « إنك جادة أكثر مما يجب » . فقد كنت مغروراً ولا أحب أن أشعر بأن هناك من ينتزعي خارج أعماقي . وأدارت « جوستين » عينيها الكبيرتين نحوي . وقالت في رقة وكأنها تخاطب نفسها : « أوه كلا ، إنها لحماقة مني أن أنشر كل هذا الأذى كما أفعل ولا أدرك بأن هذا هو دوري في الحياة . إنني بهذه الطريقة وحدها ، بمعرفة ماذا أفعل ، يمكنني أن أتفوق على نفسي ليس من السهل أن أحقق ذاتي .. إنني أتوق إلى أن أكون مسئولة عن نفسي . أرجوك ألا تشك في قلبي هذا » .

ونمنا ، ولم يوقظني إلا صرير مفتاح « حميد » وهو يدور في القفل وقيامه بأعماله المسائية المعتادة . كان متطيراً بصورة غير عادية ، رغم أنه كان متديناً وكانت الحصيرة الصغيرة التي يصل عليها ملفوفة وموضوعة في متناول يده على شرفة المطبخ . كان كما قال عنه « بومبال » « تركبه الجن » . كان يخيل إليه أن هناك جنياً في كل ركن من أركان الشقة . كم تعبت من سماع متمته « دستور - دستور » ، وهو يلقي بفضلات الطعام في بالوعة المطبخ - فهنا يقيم جنى مهيب يجب التوصل إلى غفرانه . كان الحمام أيضاً مسكوناً بالجن . وكان في وسعي دائماً أن أكتشف « حميد » عندما يستخدم دورة المياه الخارجية ، إذ أنه كلما جلس على كرسي المراض انطلق من بين شفتيه في صوت مبجوح ابتهاج لا إرادى « دستوركم يا أسيادى » ، وهذا الابتهاج يجعل الجنى مسالماً وإلا سحبه إلى شبكة المجارى . وأنا الآن أسمعته يتمتم لنفسه في خفوت وهو يحك أرضية المطبخ بشبشب القديم المصنوع من اللباد في صوت يشبه حية البواء » .

أيقظت « جوستين » من تهوية قلقلة وتحسست عيناى ، فمها وعينيها

وشعرها الناعم بذلك الفضول المعذب الذي كان يشكل على الدوام أكثر العناصر في شهوتي . وقلت لها : « يجب أن تغادر هذا المكان فسيحضر « بومبال » من القنصلية بعد وقت قليل » .

إنني أتذكر الفتور الذي ارتدينا به ملابسنا خلسة ، وكيف أخذنا طريقنا إلى السلم المعتم المؤدى إلى الطريق صامتين صمت شركاء جريمة . لم نجرؤ على أن نشبك ذراعينا ، غير أن أيدينا كانت تلتقي بطريقة عرضية بينما كنا نسير ، وكأنها لم تنفض عنها سحر الأصيل ولا في وسعها احتمال الفراق . وانفصلنا كذلك صامتتين ، عند الميدان الصغير بأشجاره الجافة والتي أحرقتها الشمس فجعلتها في لون القهوة ، انفصلنا ونحن نتبادل نظرة واحدة - وكأننا نبغى أن يحتل كل واحد منا وإلى الأبد مكاناً في عقل الآخر .

كان الأمر يبدو وكأن المدينة قد تحطمت على ، وأنا أمشي فيها دون غاية كما يمشي الناجون بعد زلزال في مدينتهم ، حيرى إذ يجدون أن كل ما تعودوا عليه قد تغير . وأحسست بالصمم على نحو غريب ولم أعد أتذكر شيئاً إلا أنني قد هرعت بعد ذلك بوقت طويل إلى « بورسواردن » و « بومبال » في البار ، وأن الأول تلا علينا بعض أبيات من قصيدة « المدينة » المشهورة للشاعر الشيخ ، وأنها قد أمدتني بقوة جديدة - وكان القصيدة قد صيغت حديثاً : رغم أنني كنت أعرف الأبيات كلها . وعندما قال « بومبال » إنك الليلة غارق في الأفكار ، فما الأمر ؟ . وددت لو أجبته بكلمات « عمرو » وهو يموت : أحس كما لو كانت السماء تكاد تنطبق على الأرض ، وأنا بينهما ، أتنفس من ثقب إبرة » .

الجزء الثاني

أن يكتب الإنسان كل هذا ولا يتحدث بشيء عن « بلتازار » إنما هو في الحقيقة إغفال وإهمال ، « فبلتازار » على نحو ما واحد من مفاتيح المدينة . المفتاح : نعم ، لقد تقبلته كما كان في تلك الأيام ، وأحس الآن بأنه لا بد من تقييمه في ذاكرتي من جديد . كان هناك الكثير الذي لم أفهمه حينذاك ، والكثير الذي تعلمته منذ ذلك الوقت . إنني أتذكر على وجه الخصوص تلك الأمسيات التي لا تنتهى والتي كنا نقضيها في مقهى « الأقطار » نلعب الطاولة بينما يدخل « بلتازار » في غليونه الطويل تبغ « اللاكاديف » المفضل لديه . وإذا كان « منمجان » هو أرشيف المدينة فإن « بلتازار » هو الشيطان الأفلاطوني، أى إنه الوسيط بين آلهتها ورجالها . إنني أدرك ، كما يبدو ، أن هذا الأمر غير واضح .

إنني أرى رجلاً طويل القامة يرتدي قبعة سوداء ذات حافة رفيعة . وقد أطلق عليه « بومبال » اسم « العنزة النباتية » . إنه رفيع ، محني القامة قليلاً ، له صوت عميق ذو نقيق ، شديد الجمال خاصة عندما يقتبس أو يتلو الشعر . وهو لا ينظر إليك مباشرة عندما يتحدث معك . وتلك خاصية لاحظتها وجودها عند عدد كبير من المصابين بالشذوذ الجنسي . وهي عنده لا تدل على أنه المغعول به ، الأمر الذي لا يحس بالخل منه ، ولكنه يحس إزاءه باللامبالاة الحقيقية ، كانت عيناه الصفراوان الشبيهتان بعين الماعز هما عيني منوم مغناطيسى . وهو يعفك عندما لا ينظر إليك من نظرة قاسية إلى الحد الذي يجعلك تقضي الليل متكرراً . إن الكيفية التي تتعلق بها يداها الهائلتان البشاعة إلى جذعه تثير الحيرة . كنت أتوق منذ ذلك الحين لو قطعتهما وألقيت بهما إلى البحر . وكانت تنمو تحت ذقنه خصلة واحدة من الشعر الغامق ، تشبه تلك التي يراها المرء أحياناً على ظلف تمثال صنم منحوت .

كم من المرات وجدت نفسي ، خلال تلك النزاهات الطويلة التي كنا نقوم بها قرب مياه القناة الراكدة التي تشبه القطيفة ، أتساءل في حيرة عن الميزة التي يتمتع بها والتي شدتني إليه . كان هذا قبل أن أعرف أى شيء عن « القابل » . ورغم أن « بلتازار » يقرأ كثيراً إلا أن حديثه لم يكن مثقلاً بهذا النوع من المواد الذي يدعوا السامع إلى الاعتقاد بأنه كثير الاطلاع والقراءة : مثل «بورسواردان» . إنه يحب الشعر والأمثال والعلم والسفسطة . غير أن لمسة من النزق والقدرة على التمييز تكمن وراء تفكيره . ومع ذلك فتحت ذلك النزق يوجد شيء آخر - يوجد صدئ يعطي لفكره وزناً وثقلاً . كانت الحكم والأمثال تجري في عروقه ، وكانت تمنحه في بعض الأحيان لمسة عراف صغير . إنني أرى الآن أنه كان واحداً من هؤلاء الناس القلائل الذين عثروا لأنفسهم على فلسفة ما وشغلوا حياتهم بمحاولة ممارستها في الحياة ، وأعتقد أن هذه هي الصفة التي لم ترد إلى أصلها والتي كانت تعطى لحديثه تلك النبرة القاطعة .

كان يقضى ، بوصفه طبيباً ، الجانب الأكبر من وقت عمله في عيادة الأمراض التناسلية الحكومية (ولقد قال ذات مرة بطريقة جافة : « إنني أعيش في قلب حياة المدينة . في جهازها البولى التناسلى : إنه نوع من الأماكن التي تجعل المرء يحس بالعقل والاتزان ») . بالإضافة إلى ذلك فهو أيضاً الرجل الذي لم يؤثر شذوذه بصورة ما على رجولة عقله الفطرية . إنه ليس واحداً من المتطهرين ولا هو عكس ذلك . فكثيراً ما دخلت حجرته في شارع « لبسيس » - الحجرة ذات الكرسي الخيزراني الذي يزيق - لأجده يضاجع أحد البحارة . لم يكن يبرر تصرفه في مثل تلك الحالة ولا يشير إلى رفيق فراشه . كان يستدير في بعض الأحيان ، بينما يرتدي ملابس له ، ثم يحشر الغطاء في حنان حول جسد زميله النائم ، إنني أخذ تلك التصرفات الطبيعية مأخذ التصرفات التي تستحق أن المديح .

إنه مزيج غريب ، فقد سمعت صوته في بعض الأحيان وهو ينتفض بالعاطفة بينما يشير إلى بعض وجهات نظر « القابال » التي يسعى كى تكون مفهومة للمجموعة التي يقوم على تدريسها . ومع ذلك فقد تنهد ذات مرة في حسرة عندما تحدث في حماس عن بعض الملاحظات التي كان قد أبدأها من قبل وقال بتلك النبرة المتشككة التي تتميز بها الإسكندرية والتي تنطوى بصورة ما على ولاء وثقة لا جدال فيهما للروحانيات : « إننا جميعاً نسعى حتى نصل إلى أسباب معقولة لإيماننا بالمستحيل » . وفي مرة أخرى قال بعد مناقشة طويلة ومرهقة مع « جوستين » حول الوراثة والوسط : « آه ! يا عزيزتى ، ماذا في وسعنا أن نقول عن معرفتنا الفعلية بالإنسان ، بعد كل العمل الذي قام به الفلاسفة على روحه والأطباء على جسده ؟ إنه ، بعد أن يقال كل شيء ويفعل كل شيء ، مجرد ممر للسوائل والأشياء الصلبة ، مجرد أنبوبة من اللحم » .

كان زميل دراسة وصديقاً للشاعر الشيخ . إنه يتكلم عنه في حرارة وبطريقة تصل إلى الأعماق حتى إن كل ما يقوله كان يحرك مشاعري : « إنني أعتقد في بعض الأحيان بأنني قد تعلمت من دراسته أكثر مما تعلمت من دراسة الفلسفة ، إن مساواته الرائعة بين السخرية والرقّة كان من الممكن أن تضعه في مصاف القديسين لو أنه كان رجلاً متديناً . ولكن المشيئة الإلهية لم تجعل منه غير شاعر وفي أغلب الأوقات شاعر حزين ، غير أن المرء يحس وهو معه بأنه يمسك بكل دقيقة تمر عابرة ليقبلها رأساً على عقب حتى يكشف جانبيها السعيد . كان يستهلك في الحقيقة ذاته ، ذاته الداخلية كي يحيا . إن أغلب الناس تتمدد وتدع الحياة تلعب فوقها كدفعات دش فائرة . ولقد عارض فرض ديكارت : « أنا أفكر إذاً فأنا موجود » بفرض من عنده جاء فيه كما اعتقد شيئاً كهذا : « أنا أتخيل إذاً فأنا منتم وحر » .

ولقد قال « بلتازار » عن نفسه ذات مرة في ضجر ، « إنني يهودي ، بكل ما في اليهودية من رغبة دموية والتعطش للقدرة على القياس المنطقي . إنها الدليل

إلى نقاط الضعف العديدة في تفكيري ، والتي أتعلم كيف أوازنها مع بقية نفسي -
وذلك بشكل رئيسي عن طريق « القابل » .



إنني أتذكر لقائي به أيضاً ذات ليلة شتوية باردة ، بينما كان يسير على
الكورنيش - وقد غسلته الأمطار ، يتفادى الاندفاعات الفجائية للمياه المالحة
عبر حواجزها . وتحت قبعته السوداء جمجمة تطن بذكريات « أزمير »
و« السبورادس » حيث تكمن طفولته . وتحتها أيضاً كانت توجد تلك
الإشعاعات التي تلازم الحقيقة والتي حاول أن ينقلها إلى فيما بعد في إنجليزية
لا بأس بها باعتبار أنها لغة مكتسبة بالنسبة إليه . حقاً لقد التقينا من قبل ،
ولكنه لقاء وقف عند حدود الرؤية ، كان من الممكن أن يعبر كل منا الآخر دون
أن نتبادل غير إيماءة ، لولا أن هياجه جعله يوقفني ويمسك بذراعي قائلاً : « آه ،
في استطاعتك أن تساعدني » . ثم صرخ وهو يمسك بي من ذراعي قائلاً :
« أرجوك ، ساعدني » . ومال وجهه الشاحب بعينه اللامعتين الشبيهتين بعيني
الماعز نحوى في عتمة المساء .

كانت أولى المصاييح الشاحبة المبتلة قد بدت تضيئ توتراً وتصلباً على
المنظر الخلفي للإسكندرية والذي يشبه الورق المبتل : ضفة البحر وصفوف
المقاهي الواقعة عليها ، وقد ابتلعها رذاذ يتوهج بضياء فسفوري ملطخ
ومرتعش ، وهبت الريح نحو الجنوب الساكن . وقبعت مريوط متجمدة وسط
نبات الغاب وكأنها أبو الهول رابضاً . كان يبحث ، كما قال ، عن مفتاح ساعته
- ساعة الجيب الذهبية الجميلة التي صنعت في ميونيخ . وفكرت فيما بعد ، إنه
يخفي خلف العجلة المرتسمة على ملامحه المعنى الرمزي الذي تحمله له هذه
الساعة : المعنى الذي يدل على الزمن الذي لا تقيده قيود والذي ينساب خلال
جسده وجسدي ، لسنتين عديدة وتبينه الآن تلك الساعة التاريخية . « ميونيخ »
« زغرب » « الكارباتيون » . كانت الساعة لأبيه ، يهودي طويل القامة يرتدي

الفراء ، ويركب الزحافة . لقد قطع بولندا وهو راقد بين ذراعي أمه ، لا يعرف غير أن المجوهرات التي ترتديها في تلك الأماكن التي ينيرها الثلج كانت ثلجية الملمس ، لقد « تكتكت » الساعة في رقة وهي على جسد أبيه كما « تكتكت » الآن في رقة وهي على جسده ، وكان الزمن يختمر في كل منهما . كانت تدار بمفتاح صغير على هيئة « عنخ » رمز الحياة عند المصريين القدماء ، كان يحتفظ به مربوطاً إلى حلقة مفاتيحه بقطعة من شريط أسود . وقال لي في صوت أجش « إن اليوم في الإسكندرية هو يوم السبت » . قالها وكان الزمن هنا شيء مختلف ، وكأنه على صواب أيضاً . « إن لم أجد المفتاح فسوف تتوقف الساعة » . وسحب الساعة في رقة من جيب الصديري المبطن بالحريير لأراها في آخر ومضات العتمة المنداة بالمطر ، « ما زال أمامي حتى مساء الإثنين ، ثم تتوقف » . كان من العبث أن يفتح الغطاء الذهبي الرقيق دون المفتاح وأن تتعري أحشاء الزمن النابض وهي تتحرك ، « لقد بحثت الأرض ثلاث مرات لابد أنه قد سقط مني فيما بين المقهى والمستشفى » .

كنت أرغب مسروراً في معاونته . غير أن المساء كان يهبط في سرعة فاضطررنا لوقف البحث بعد أن قطعنا مسافة قصيرة نبحت في الفتحات التي بين الأشجار . قلت له : « بالتأكيد ، يمكنك الحصول على مفتاح آخر » . فاجاب وقد نفذ صبره : « نعم بالطبع ، ولكنك لا تفهم - لقد كان هذا المفتاح يخص تلك الساعة . لقد كان جزءاً منها » .

وذهبنا ، كما أتذكر ، إلى مقهى على الشاطئ وجلسنا يملؤنا شعور بالياس وأمامنا قهوة سوداء بينما راح هو يتحدث عن ساعته التاريخية في صوت كالنقيق . قال أثناء ذلك الحديث : أعتقد أنك تعرف « جوستين » لقد تحدثت لي عنك في حرارة . إنها سوف تأتي بك إلى « القابال » . وسألته : وما هو « القابال » ؟ فقال وهو يكاد يكون خجلاً : « إننا ندرس « القبالة » : إننا صورة مصغرة لمحفل ماسوني . ولقد قالت لي إنك تعرف بعض الشيء عن « القابال »

وأنك سوف تعجب به . « ولقد أثار هذا الأمر دهشتي لأنني ، حسبما أتذكر لم أذكر « لجوستين » على الإطلاق الخط الدراسي الذي أسير عليه — فيما بين نوبات الخمول والقرف الطويلة . وحسبما أتذكر فإن الحقيبة الصغيرة التي تحتوي على الكتب « الهرمزية » وكتب أخرى من نفس النوع كانت مغلقة وموجودة دائماً تحت سريري . وعلى أى حال فإنني لم أقل شيئاً . ثم انتقل هو الآن إلى الكلام عن « نسيم » فقال ، « إنه أكثرنا سعادة على نحو ما ، إذ لا توجد فكرة مسبقة عما يبتغيه في مقابل حبه ، وأن يحب الإنسان بمثل هذه الطريقة غير المفروضة سلفاً لشيء يجب تعليمه لغالبية الناس بعد سن الخمسين . فالأطفال يتمتعون بهذا النوع من الحب وكذلك « نسيم » إنني جاد فيما أقول . « وهل كنت على معرفة « بالارناؤوطى » الكاتب ؟ » .

« نعم ، كاتب « عادات » .

« حدثني عنه » .

« لقد أقحم نفسه علينا ، غير أنه لم ير المدينة الروحية الكامنة تحت المدينة الدنيوية . لقد كان كاتباً موهوباً وحساساً ولكنه كان « فرنسياً » أكثر من الفرنسيين . وكانت « جوستين » صغيرة للغاية حتى إنه لم ينل منها غير الأذى . لقد كان سيء الحظ . ولو أنه وجد أخرى أكبر منها قليلاً — فكل نساءنا كما تعرف « جوستين » مختلفة الأنماط — لا استطاع — لن أقول أن يكتب بطريقة أفضل ، فكتابه جيد الصياغة ، ولكنه كان قد وجد في كتابته العزم الذي يجعله عملاً فنياً أكثر أصالة » .

وتوقف يسحب نفساً طويلاً قبل أن يضيف في ببطء : « أنت ترى أنه قد تجنب في كتابه هذا التعرض لعدد من المسائل التي تخص « جوستين » والتي يعرف أنها حقيقية ، غير أنه تجاهلها لأغراض فنية بحتة — كحادثة طفلتها . إنني أظن أنه اعتقد بأن لها طعماً ميلو درامياً » .

« أية طفلة هذه ؟ » .

« كان لجوستين طفلة ، لا أدري إبنة من كانت . وذات يوم اختطفت واختفت . كانت تبلغ من العمر ستة أعوام ، إن مثل هذه الأمور تحدث كثيراً كما تعرف . ثم سمعت فيما بعد أن البعض قد رآها أو تعرف عليها ، فبدأت بحثاً لاهوادة فيه خلال الحى العربي لكل مدينة ، خلال كل منزل سيء السمعة ، حيث إنك تعرف ما يحدث للأطفال الذين بلا أبوين . إن « الأرناؤوطي » لم يذكر هذا على الإطلاق ، رغم أنه كثيراً ما ساعدها وهي تلاحق كل خيط أو دليل ، ولابد أنه قد رأى كيف أسهم فقدان طفلتها هذا في تعاستها . »

« من أحببت « جوستين » قبل « الأرناؤوطي » ؟ »

« ليس في وسعي أن أتذكر ، فالكثيرون من عشاق « جوستين » يظنون أصدقاء لها ، ولكن في وسعك أن تقول كما أعتقد إن أصدقاءها الحقيقيين لم يكونوا على الإطلاق عشاقاً لها . إن أهل المدينة على استعداد دائم للقليل والقال . غير أنني كنت أفكر في فقرة جاءت في كتاب « عادات » حيث تأتي « جوستين » مع عشيق لها عند المؤلف : كتب « الأرناؤوطي » يقول : « كانت تحتضن هذا الرجل ، عشيقها ، أمامي في حرارة ، وتقبله في فمه وعيني ، ووجنتيه ، حتى يده ، ووقفت لا أدري ماذا أفعل . ثم لمعت في خاطري على نحو مثير ففكرة أنها كانت في الحقيقة تقبلني أنا في خيالها » .

وقال « بلتازار » في هدوء : « الحمد لله إنني قد أعفيت من اهتمام بالحب لا لزوم له . فاللوطي يقلت على الأقل من الصراع المخيف الذي يواجهه المرء كي يمنح نفسه لشخص آخر . إذ عندما يضاجع المرء واحداً من نوعه فإنه يحتفظ وهو يستمتع بالتجربة بحرية ذلك الجزء من عقله الذي يشغله « أفلاطون » ، أو الاهتمام بالحدائق ، أو الحساب التفاضلي . لقد ترك الجنس الآن ودخل الخيال ، ولهذا شقى « الأرناؤوطي » كثيراً مع « جوستين » ، لأنها افترست كل ما كان يود المحافظة عليه منفصلاً - طبيعته الفنية إن شئت . إنه بعد كل شيء أشبه « بأنطونيو » صغير وهي « كيلوباترة » . وفي وسعك أن تقر كل شيء

عنها في « شكسبير » . وعندئذ يمكنك أن تفهم ، بقدر ما يخص هذا الأمر «الإسكندرية » ، لماذا تعرف هذه المدينة ، بالمدينة التي يضاجع الناس فيها أرحامهم — أعني أن عبادة « سيرابيس » قد تأسست هنا . فإن هذا الذبول في القلب والانفلات في العشق جعل المرء ينقلب على أخته ، إن العاشق يرى صورته في أسرته مثل « نارييس » ، ولا مخرج هناك من هذه الورطة .

لم يكن كل هذا مفهوماً لدى بصورة كاملة ، ومع ذلك فقد أحسست إحساساً مبهماً بوجود نوع من المطابقة بين العناصر التي استخدمها لربط الموضوع ، وبالتأكيد فقد بدا الكثير — مما قاله — لا يفسر ، والتي قرأت لأول مرة بخط يدها النابض بالحيوية ، هذا الاقتباس من « لافورج » .

« ليس لدى فتاة صغيرة يمكن أن تتذوقني ، أي والله ، ممرضة . ممرضة تعاودني لمجرد حب التمريض ، ولا تعطي قبالاتها للمحتضرين ، إلا لمن كانوا على حافة النهاية » .

وكتبت تحتها : « كثيراً ما استشهد (أ) بها . وأخيراً اكتشفت بالصدفة أنها مأخوذة عن « لافورج » .. » .

وسألني « بلتازار » فجأة ، « هل انتهيت من حب « ميليسا » لك ؟ إنني لا أعرفها ، لقد رأيته فقط . سامحني . فقد أذيت مشاعرك » .

في هذا الوقت بدأت أدرك كم كانت تعاني « ميليسا » ، غير أنها لم تنبس بكلمة لوم واحدة ، كذلك لم تتكلم عن « جوستين » قط . غير أنها كانت منطقتة ، وغداً لونها — لون جسدها ذاته — لوناً تمجه النفس . وبدأ امرأ متناقضاً للغاية ، إذ كنت أحس حينذاك بأنني أحبها أكثر من أي وقت مضى ، رغم أنني كنت أجد صعوبة بالغة في مضاجعتها دون أبذل جهداً . كان ينخر في أضراب في المشاعر وشعور بالخيبة لم أحس به من قبل ، مما جعلني أغضب معها في بعض الأحيان .

كانت أحاسيسي معها تختلف اختلافاً تاماً عن أحاسيسي مع « جوستين » ،

التي كانت تعاني اضطراباً بين أفكارها ومقاصدها يكاد يماثل الاضطراب الذي أعانيه ، والتي قالت لي : « إنني أتساءل من الذي اخترع قلب الإنسان ؟ أخبرني ثم أرني المكان الذي شئت فيه » .

* * *

أما عن « القابال » نفسها ، فماذا يمكن أن يقال عنها ؟ إن « الإسكندرية » مدينة الملل والطوائف الدينية . لقد قذفت المدينة بداعر من رجال الدين - « كاربوكراتس » و « أنطونيوس » - مقابل كل ناسك . داعر قد أمد ليغرق في الحسيات بعمق وصدق كما يغرق في العقل أى راهب في الصحراء . قال « بلتازار » ذات مرة : « إنك تتكلم باستهانة عن الإيمان بعدة أديان . ولكن ينبغي عليك أن تدرك حتى تتمكن من العمل هنا - وأنا إذ أتكم الآن فلنما أتكم كرجل متدين إلى حد الهوس لا كفيلسوف - إنه يجب على المرء أن يحاول التوفيق بين النقيضين من العادة والسلوك اللذين لا يرجعان إلى الاستعداد الذهني للمواطنين ، ولكن إلى الأرض التي يعيشون عليها ، إلى الهواء والطبيعة . أقصد الحسية إلى أقصى مداها والتكشف الذهني إلى أقصى مداه . إن المؤرخين يتناولون الإيمان بعدة أديان على أنها حصيلة مزيج من المبادئ الفكرية المتصارعة ، وهو تفسير لا يعطي تحديداً كاملاً للمشكلة . إنها ليست قضية أجناس ولغات مختلطة . إنها لخاصية قومية أن يسعى سكان « الإسكندرية » للتوفيق بين أعرق خاصيتين نفسانيتين يعون ويدركون وجودهما . وذلك هو السبب في أننا متهوسون ومتطرفون . وذلك هو السبب أيضاً في أننا العشاق الذين لا نظير لنا » .

ليس هذا المكان بالمكان المناسب لمحاولة كتابة ما أعرفه عن « القابال » ، حتى لو كنت عازماً على محاولة تعريف « الأرضية غير المتينة لتلك المعرفة بالأسرار الروحية » . والتي لا يستطيعها أحد من أتباع « هرفس » الطامحين -

لأن مثل تلك الشذرات من الإلهام ، جذورها الممتدة إلى أسرار تلك الفلسفة . إنها خبرات فجة لا يمكن أن يشارك فيها غير المطلعين .

لقد تعرضت لمثل تلك الأمور في « باريس » من قبل ، وكنت على اعتقاد بأنني قد أجد فيها طريقاً يمكن أن يقودني إلى فهم أعمق لنفسي — النفس التي تبدو كمجموعة هائلة من الشهوات والنزوات المشوشة والتي لا شكل لها . واعتبرت كل هذا الحقل من الدراسة شيئاً منتجاً يعود بالفائدة على أعماقي كرجل ، رغم أن تشككاً طبيعياً وغريزياً قد جعلني غير مقيد إلى أية ملة دينية — ولقد درست قرابة عام على يدى « مصطفى » ، وهو رجل صوفي كنت أجلس في شرفة منزله الخشبية المتداعية كل مساء أستمع إليه وهو يتحدث في صوته الرقيق الذي يشبه نسيج العنكبوت . وكنت قد شربت الشربات مع حكيم تركى مسلم . ولهذا سرت إلى جوار « جوستين » يحتوييني شعور بالآلفة خلال التواءات الشوارع التي تشبه جحر الأرانب والتي تتوج قلعة « كوم الدكة » ، أحاول بنصف عقلي أن أتخيل كيف بدا هذا المكان عندما كان حديقة مقدسة للأوثان ، وقد نحتت كل الرابية البنية الأحجار على هيئة ثمرة الصنوبر . إن ضيق الشوارع هنا يعطي المرء إحساساً بالآلفة رغم أنه لم يكن على جانبها شيء غير مساكن كجحور الأرانب الدودية الشكل ومقاه صغيرة مظلمة تضاء بمصابيح الزيت المرتعشة . وقد غمر هذا المكان الصغير من المدينة جو غريب من الطمأنينة ، منحها بعضاً من جو قرى الدلتا . وهناك أسفل عند الميدان البنى — البنفسجي غير المنتظم والقريب من محطة السكة الحديدية والذي بدا مهماً في الغسق المتلاشي ، تجمعت جمهرات صغيرة من الأعراب حول مجموعات المتبارين الذين يلعبون العصا ، وقد كتمت صرخاتهم الحادة في الغسق الذاوى . وإلى الجنوب كانت تلمع صفحة « مريوط » القاتمة . وسارت « جوستين » بسرعتها المعتادة في صمت ، وقد نفذ صبرها لأنى كنت أثلثا وألقى بناظرى خلال الأبواب على مناظر الحياة العائلية التي بدت (وهي مضاعة كمسارح العرائس) مليئة بمغزى درامي هائل .

كانت جمعية « القابال » تجتمع في هذا الوقت فيما يشبه كوخًا خشبيًا مهملاً من أكواخ الحراسة ، بنى عند الحوائط الترابية لسد قريب للغاية من عمود « بومبي » ، وأعتقد أن حساسية البوليس السقيمة للاجتماعات السياسية هي التي أملت اختيار مكان كهذا المكان . كان على المرء أن يعبر الخنادق والحواجز الموحشة التي أقامها علماء الآثار وأن يتبع ممراً موحلاً عبر البوابة الحجرية ، ثم ينحرف بصورة حادة في زاوية قائمة فيدخل هذا الكوخ الكبير الخالي من الطلاء والذي كانت إحدى حوائطه جزءاً من سد ترابي وأرضيته من التراب المقوى بالطفلة . كان مضاء بقوة من الداخل بمصباحين بتروليين ومؤثناً بعدد من الكراسي المصنوعة من الأغصان المجدولة .

كان الجمع مكوناً من حوالى عشرين شخصاً قادمين من أنحاء المدينة المختلفة . وقد لاحظت في شيء من الدهشة وجود « كابوديستريا » في أحد الأركان بقامته النحيلة وهيئته التي يبدو عليها الضجر . وكان « نسيم » ، بالطبع ، هناك . غير أن عدد الذين يمثلون الأقسام الأكثر ثراء والأكثر تعليمًا في المدينة حينئذ كان قليلاً للغاية . كان هناك على سبيل المثال - ساعاتى متقدم في السن كنت أعرفه جيداً بالعيان - رجل حلو الشمائل فضي الشعر كانت تبدو لى سماته الصارمة وكأنها تحتاج إلى كمان يوضع أسفلها حتى تغدو معبرة . عدد قليل من السيدات المتقدمات في السن واللواتى لا داعى لوصفهن - كيميائياً - وجلس « بلتازار » أمامهم على كرسى منخفض وقد رقدت راحتاه القبيحتان في حجره . وعرفته في الحال في صورة جديدة كلية عن ذلك المقيم في قهوة « الأقطار » والذي لعبت معه الطاولة ذات مرة . ومرت بضع دقائق في ثرثرة متفرقة بينما أعضاء جمعية « القابال » في انتظار من لم يحضر بعد من الأعضاء . ثم وقف الساعاتى العجوز واقترح أن يفتح « بلتازار » أعمال الجلسة واتكأ صديقى إلى الخلف في مقعده ، وأغلق عينيه وأبتدأ يتكلم بذلك الصوت الغليظ الذي يشبه النقيق والذي أخذت تتجمع فيه عذوبة غير عادية .

وتكلم ، كما أتذكر ، عن ي نابيع النفس وقدرتها على إدراك نظام فطرى قائم في الكون يكمن تحت « التحكم الواضح للظاهرة وفقدانها لكيانها » . إن عمليات تدريب المخ يمكن أن تمكن الناس من اختراق حجاب الحقيقة واكتشاف أشكال من التوافق بين المكان والزمان تتطابق مع التركيب الداخلي لنفوسهم . غير أن دراسة « القابال » كانت علماً وديناً معاً . وكان كل هذا مألوفاً للغاية بالطبع . غير أنه خلال المسائل التي كان يعرضها « بلتازار » كانت تخرج منه شذرات من الفكر غير عادية على صورة حكم رسمية تظل تلح على العقل طويلاً بعد أن يغادر المرء مجلسه . إنني أتذكره يقول على سبيل المثال : « لم تفعل أى من الديانات أكثر من المنع والحرمان وإضافة قائمة طويلة من المحرمات . إلا أن المحرمات تخلق الرغبة التي أرادت الأديان علاجها . إننا أعضاء هذا « القابال » نقول « إنغمس ولكن انتق » . إننا نطوع كل شيء حتى المنفعة كي نجعل كمال الإنسان نداً لكمال الكون - إننا نعد إلى التحطيم الدقيق للعقل بانغماسه في المتعة » .

كانت جمعية « القابال » تقوم في تكوينها على حلقة داخلية من الأعضاء المطلعين على كل شيء (لو سمع « بلتازار » هذه الكلمة لأصابه الفزع ولكني لا أعرف كيف أعبر عنها بكلمة أخرى) وحلقة خارجية من الدارسين وإلى تلك الحلقة ينتمي « نسيم » و « جوستين » كانت الحلقة الداخلية تتألف من اثني عشر عضواً منتشرين بصورة واسعة على طول البحر الأبيض المتوسط - في « بيروت » و « يافا » و « تونس » وهكذا . وفي كل مكان كان يوجد معهد علمي صغير مكون من الدارسين الذين كانوا يتعلمون استعمال الحساب الغريب ، حساب التفاضل والتكامل - العاطفي الذي وضعت جمعية « القابال » عن فكرة الإله . وكان أعضاء الحلقة الداخلية من الجمعية يتبادلون المراسلات مع بعضهم البعض كثيراً ، مستخدمين في ذلك الطريقة القديمة الغريبة في الكتابة ، والمعروفة بالخطوط المتعاقبة في اتجاهات متضادة ، والتي يمكن القول أنها

كتابة تقرأ من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين في أسطر متبادلة . إلا أن أبجدية الحروف المستخدمة كانت رموزاً لحالات عقلية وروحية . لقد قلت ما فيه الكفاية .

في تلك الامسيات الأولى جلست « جوستين » بيننا ، وقد شبكت ذراعيها في رقة بذراعيها ، تستمع في تواضع وتركيز مؤثر . وكانت عينا المحاضر في بعض الأحيان تستقران عليها للحظة في ألفة ومودة . هل أدركت حينئذ — أو هل اكتشفت فيما بعد — أنه ربما كان « بلتازار » هو صديقها الوحيد وبالطبع الشخص الوحيد الذي تضع فيه ثقتها في المدينة ؟ إنني لا أتذكر . كانت تقول « لقد كان « بلتازار » هو الشخص الوحيد الذي في وسعي أن أخبره بكل شيء ، لم يكن يفعل شيئاً إلا أن يضحك . ولكنه كان يساعدني بصورة ما على أن أطرد الفراغ الذي أحسه في كل ما أفعل » . وإلى « بلتازار » كانت تكتب تلك الرسائل الطويلة المعذبة والتي أثارَت اهتمام عقل « أرناؤوطي » الفضولي . لقد سجلت في يومياتها أنهما قد فازا ذات ليلة قمرية بالدخول إلى المتحف حيث جلسا مدة ساعة بين التماثيل « العمياء كالكوابيس » تستمع إليه وهو يتكلم . قال أشياء كثيرة أشرت فيها حينذاك ولكنها اختفت فيما بعد من عقلها عندما حاولت كتابتها . ومع ذلك فإنها تتذكره وهو يقول في صوت هادئ متأمل شيئاً ما عن « هؤلاء الذين كتب عليهم من بيننا أن يسلموا أجسادنا إلى الغيلان » . ولقد اخترقت تلك الفكرة « جوستين » حتى النخاع على أساس أنها تومئ إلى نوع الحياة التي تحياها . أما بالنسبة « نسيم » فإنني أتذكره وهو يخبرني بأن « بلتازار » قد قال له في جفاء ذات مرة عند ما كان يعاني من أجل « جوستين » عذاباً عقلياً شديداً ، « كل غيور على زوجته فاسق » .

ثم أضاف بعد ذلك قائلاً : « إنني لا أتكلم الآن باعتباري شخصاً عادياً ولكنني أتكلم بصفتي عضواً في « القابال » . إن الحب العاطفي الحاد إنما هو نوع من الزنا أيضاً حتى لو كان من رجل لزوجته » .

محطة « الإسكندرية » الرئيسية : في منتصف الليل . ندى ثقيل كالمت .
وضجة العجلات وهي تشق أرصفة الشوارع الموحلة الزلقة ، برك جعلها
الضوء الفوسفوري صفراء اللون ، وممرات من الظلام كالدموع في واجهة
مسرح كثيفة مبنية بالطوب . ورجال البوليس في الظلام . وأنا واقف إزاء حائط
طوبي ملوث لأقبلها قبلة الوداع إنها ستذهب لأسبوع ، ولكني أستطيع أن
أرى ، في رعبي ونعاسي أنها لن تعود أبداً . لقد ملأتني بالخواء قبلتها الناعمة
المليئة بالعزم وعيناها اللامعتان . وتأتي من عند الرصيف المظلم أصوات
قرقعة مؤخرات البنادق وطققة الجنود البنغاليين . قوات هندية على صورة
فرق صغيرة منقولة إلى « القاهرة » في مهام روتينية خاصة . ولم أحس بأن
« ميليسا » تتركني حقاً إلا عند ما أخذ القطار يتحرك ، وعند ما أخذ الشبح
الواقف بالنافذة ، القائم في الظلام ، يفلت يدي ، أخذت أحس بكل ما جحدته
بطريقة قاسية لا رحمة فيها — وجرة القطار الطويلة نحو الضياء الفضي
تذكرني بحركة سلسلة ظهرها الأبيض وهي تتقلب في الفراش . وأنادي
« ميليسا » غير أن زفير القطار المدوي يمحو كل صوت . وبدأت القاطرة تميل
وتتحني وتنزلق وتأخذ المحطة في طي الإعلانات واحداً بعد الآخر ثم تكومها في
الظلام بسرعة تشبه سرعة الشخص المكلف بتغير المشاهد في المسرح . ووقفت
وكأنني قد تركت وحيداً على قمة جبل جليد عائم . وإلى جوارتي وقف جندي من
« السيخ » يحمل بندقية وقد سد فوهتها بوردة . وهيكل القطار الذي يشبه
الظلال ينساب على قضبان الصلب في الظلام ، وللمرة الأخيرة يميل القطار ثم
يتدفق داخل نفق وكأنه قد تحول إلى سائل .

وأسير ذلك المساء خلال « محرم بك » ، أرقب القمر تغطيه السحب ،
ينهشني قلق لا يوصف .

خلف السحب ضوء ساطع ، وفي الساعة الرابعة رزان خالص رفيع كالإبر
وقد تصلبت الزهور المكسيكية في حديقة القنصلية ، وعلى أعضاء التذكير حطت

قطرات ماء فضية . لا طيور تغني في الفجر وريح خفيفة تجعل أشجار النخيل تميل بأعناقها تطلق طقطقة متزنة خفيفة جافة . والمطر فوق « مريوط » صوت رائع صامت .

الساعة الخامسة . أتقل في حجرتها ، أتفحص الحاجيات الخالية من الحياة بتركيز عميق . علب المساحيق الفارغة . أدوية إزالة الشعر من عند «سارديس» . رائحة الساتان والجلد . الرائحة البشعة لفضيحة توشك أن تقع ...

إنني أكتب هذه السطور في ظروف مختلفة تمام الاختلاف ، أكتبها هنا ، تحت شجرة الزيتون هذه ، في بركة الضوء التي يلقي بها مصباح زيتي ، وقد انقضت عدة شهور منذ تلك الليلة . إنني أكتب وأعيش مرة أخرى تلك الليلة التي تحتل مكانها في الذخيرة الهائلة لذكريات المدينة . وفي مكان آخر ، في حجرة مكتب واسعة وقد تدلت على منافذها ستائر سمراء نحاسية اللون كانت «جوستين» تنقل إلى يومياتها حكم «هيراكلييتس» الفظيعة . إن الكتاب يرقد الآن إلى جواربي . وعلى إحدى صفحاته تكتب : « من العسير أن يحارب المرء رغبة قلبه . فمهما كانت تلك الرغبة ، فإنها تبثاعها على حساب الروح » . وأسفل الصفحة على الهامش : « السائرون — ليلاً ، المجوس ، والمطلعون على الأسرار » .

هل فاجأني « منمجيان » في ذلك الوقت بأن همس في أذني تلك الكلمات : « هل تعرف ، أن « كوهين » يموت . كان تاجر الفراء قد اختفى عن الأنظار منذ شهور مضت . وكانت « ميليسا » قد سمعت أنه بالمستشفى يعاني من تسمم بولي . إلا أن المدار الذي وصفناه ذات مرة عن الفتاة كان قد تغير ، وكان الكاليد وسكوب « المنظار الملون » قد مال مرة أخرى وغاب « كوهين » عن الأنظار كشظية مختفية من الزجاج الملون . والآن فإنه يموت . ولم أقل شيئاً وأنا أجلس أتمعن ذكريات تلك الأيام المبكرة — اللقاءات في زوايا الشوارع والبارات . خلال الصمت الطويل الذي أعقب كلمات « منمجيان » الذي جز شعري تماماً

بموسى حلاقة ، وأخذ في رش رأسي بعطر ورق الغار المنقوع في الروم . وتنهد تنهيدة قصيرة وقال ، « كان يسأل عن فتاتك » ميليسا » .

وقلت له : « سأخبرها بالأمر » . وأوما الرجل الارشيف برأسه ونظرة لزجة تأمرية في عينيه . ثم قال وهو يمسك بأنفاسه : « أى مرض فظيع هذا المرض . إنه كبريه الرائحة . إنهم يكشطون له لسانه بسكين طبي . تفوه » . ووجه رزار بصاقه إلى أعلى نحو السقف كأنه يزيل ما علق بالذاكرة من عفونة : وكأن الرائحة قد غزت الدكان .

كانت « ميليسا » تترقد فوق الكنبه في ثوبها المنزلى وقد أدارت وجهها نحو الحائط . واعتقدت في أول الأمر أنها نائمة ، ولكن ما إن وصلت حتى استدارت وجلست . وأخبرتها بأنباء « منمجيان » فقالت : « إنني أعرف بالامر ، فقد أرسلوا إلى الخبر من المستشفى ولكن ماذا في وسعى أن أفعل ؟ إنني لا أستطيع الذهاب ورؤيته . إنه لا يعني شيئاً بالنسبة لي . لم يكن كذلك البتة ، ولم يكن كذلك أبداً . » ثم نهضت وسارت بطول الحجرة وأضافت في غضب يوشك أن يكون بكاء : « إن له زوجة وأطفالاً ، ماذا يفعلون به ؟ » وجلست وواجهتني مرة أخرى ذكرى ذلك الكلب الاليف من كلاب البحر وهو يحملق بحزن في كأس خمر آدمية . واعتقد أن « ميليسا » قد أخذت صمتي مأخذ النقد الموجه إليها لأنها جاءت إلى وهزتنى في رفق من كتفي ، وتساءلت : « ولكن ما العمل إذا كان يموت بالفعل ؟ » . كان السؤال موجهاً إلى بنفس القدر الموجه إليها . فانفجرت تبكى فجأة وركعت وقد وضعت رأسها على ركبتي : « أوه ، إنه لأمر مقرر للغاية ، أرجوك ألا تجربني على الذهاب » .
« بالتأكيد كلا » .

« ولكن إن كنت ترى ضرورة ذهابي فساذهب » .

ولم أقل شيئاً . كان « كوهين » على نحو ما قد مات ودفن بالفعل بالنسبة إلينا . كان قد فقد مكانه في تاريخنا . وبدا لي أن بذل أى جهد عاطفي عليه إنما

هو شيء لا جدوى منه . لم يكن لهذا علاقة بالرجل الحقيقي الراقد وسط بقايا جسده الراحل في غرفة بيضاء نظيفة بالمستشفى . لقد غدا بالنسبة إلينا مجرد شخصية تاريخية . ومع ذلك فإنه ما زال هنا يحاول في عناد أن يؤكد شخصيته ، يحاول العودة إلى حياتنا من عند نقطة أخرى في محيطها . ما الذي في وسع « ميليسا » أن تعطيه له الآن ؟ وما الذي تستطيع أن تحرمه منه ؟ .

وقلت لها : « هل ترغبين في ذهابي إليه ؟ » ولقد وانتني هذه الفكرة غير المعقولة فجأة ، في وسعي أن أدرس حبي أنا ونهايته ، في موت « كوهين » . لقد أرعبني أن يستغيث إنسان أوشك على النهاية بحبيب قديم فلا ينال منه غير صرخة اشمئزاز . لقد انقضى الزمان الذي كان في وسع الرجل العجوز أن يوقظ حنان حبيبتي أو حتى مجرد إثارة اهتمامها ، فقد حلت بها نواشب جديدة مقابل ماضيها الذي ذبلت فيه نواشبها القديمة وتفتت . وربما خلال فترة قصيرة ، إذا ما حدث واستنجدت بي واستنجدت أنا بها ، فهل يعود أي من عند الآخر بصرخة تعبر عن الفراغ والتقرز ؟ وادركت حينئذ حقيقة الحب كله : أدركت أنه شيء مطلق يأخذ كل شيء أو يخسر كل شيء . أما المشاعر الأخرى كالحنان والرقّة وغيرهما ، فإنها لا توجد إلا عند الخطوط الحدية وتنتمي إلى تراكيب المجتمع وما تعود عليه . إلا أن « إفروديت » ذاتها — « إفروديت » الصارمة القاسية — إنما هي وثنية . إنها لا تنتقي عقولنا وغرائزنا ولكنها تنتقي عظامنا . لقد أفزعني أن أفكر في أن هذا العجوز في مثل تلك اللحظة من حياته ، كان عاجزاً على أن ينال لحظة حنان إكراماً لذكرى أي شيء قاله أو فعله : حنان من المرأة التي هي في أعماقها أكثر البشر حناناً ورقّة .

أن يُنسى الإنسان على هذا النحو كان معناه أن يموت ميتة الكلاب . وقلت لها : « سأذهب لأراه من أجلك » ، بالرغم من أن قلبي كان ينتفض تقززاً من هذا المشهد ، غير أن « ميليسا » كانت قد نامت ورأسها الفاحم على ركبتَيَّ كلما كدرها شيء ما تلوذ بعالم النوم البريء ، تنزلق إليه في يسر وسهولة كفضال أو

طفل . ووضعت يديّ داخل « الكيمونو » الحائل اللون وذلك ضلوعها البارزة وجبينها في رقة . وتحركت وهي نصف نائمة وتمتت شيئاً ما في صوت خافت عند ما تركتني أرفعها وأحملها في رقة مرة أخرى إلى الكنبه . وتأملت لها مدة طويلة وهي نائمة .

حل الظلام وكان سكان المدينة يتدافعون ، كما يتدافع غرس من أعشاب البحر ، نحو المقاهي المضاءة في أعلى المدينة . وتوجهت إلى « باسترودي » وطلبت كأساً مضاعفاً من الويسكي شربته في ببطء وأنا أمعن الفكر . ثم أخذت تاكسيّاً واتجهت به إلى المستشفى .

تبعث الممرضة المنوط بها العمل خلال الممرات الطويلة الخضراء الخالية مما يميزها والتي تنضح جدرانها المطلية بالزيت جواً من الرطوبة . وكانت المصابيح البيضاء الشبيهة بالأبصال والتي يشع منها الضوء فتحدد طريقنا تنغمس في الظلام كحشرات منتفخة مضيئة .

كانوا قد وضعوه في الغرفة الصغيرة ذات السرير الواحد الذي تحجبه الستائر والتي كانت ، كما علمت فيما بعد من « منمجان » ، محجوزة للحالات الخطرة والتي لا يتوقع لها أن تعيش طويلاً . لم يرني في بادئ الأمر ، فقد كان يراقب في إعياء ممزوج بالدهشة الممرضة بينما كانت ترتب له وسائده . وأدهشني تعبير وجهه المتسيد المتأمل الحذر ، الذي يخلق من فوق المرتبة ، فقد غدا نحيلاً إلى حد يجعل التعرف عليه أمراً صعباً . غار اللحم من على عظام وجنتيه معرياً الأنف الطويلة المعقوفة بعض الشيء حتى الجذور ، مظهرًا بروز المنخرين كقنرتين . وقد أعطى هذا للقم والفكين تعبيراً فحراً لا بد أنه كان يميز وجهه في صباه المبكر . كانت عيناه محققتين من أثر الحمى ، وشعره داكن خشن يظلل رقبتة وحلقه ، غير أن خطوط وجهه العارية كانت نقية نقاء خطوط وجه رجل في الثلاثين . واختفت للحال صورته التي احتفظت بها طويلاً في ذاكرتي — صورة قنفذ يقطر عرقاً ، صورة عجل بحر أليف . وحلت محلها

صورة هذا الوجه الجديد ، هذا الرجل الجديد الذي يبدو مثل - واحد من وحوش سفر الرؤيا . ووقفت برهبة طويلة أرقب في دهشة شخصية غريبة عني وهي تتلقى رعاية المرضات ، بلإعياء ذاهل يختص به الملوك وحدهم . وهمست للمرضة المنوط بها العمل في أذني : « لقد أحسنت بالحضور . إن أحدًا لن يحضر ويراه . كان يهذي في بعض الأحيان . ثم يفيق ويطلب الناس . هل أنت أحد أقاربه ؟ » .

وقلت لها . « إنني شريكه في العمل » .

« سيفيده أن يرى وجهًا يعرفه » .

غير أنني كنت أتساءل إذا ما كان سيعرفني ؟ فلو أنني تغيرت نصف ما تغير لغدا كلانا غريبًا تمام الغربة عن الآخر . كان يرقد الآن على ظهره ، وأنفاسه تصفر بطريقة فظة خلال ذلك الأنف الطويل الذي يشبه أنف الثعلب وقد استرخى على وجهه كتحسب شامخ في مقدمة سفينة مهجورة . وأزعجته همساتنا إذ استدار نحوى فوجه إلى نظرة غائبة وإن كانت نقية متاملة بدت وكأنها نظرة طائر كبير من الطيور الجارحة . غير أنه لم يتعرف على إلا عندما تحركت بضغ خطوات إلى جوار الفراش . ومرة واحدة فاضت عيناه بالضياء - مزيج غريب من المذلة والكبرياء الجريئة ، والخوف البريء . وأدار رأسه نحو الحائط . وأدليت في اقتضاب برسالتني كلها في جملة واحدة . قلت ، إن «ميلييسا» غائبة ، وأنني قد أبرقت لها لتعود بأسرع ما في استطاعتها . وفي تلك الأثناء حضرت لأرى إن كان في وسعي أن أساعد على أى وجه من الوجوه . واهتزت كتفاه وخيل إلى أن أنينًا لا إراديًا على وشك أن ينفجر من بين شفثيه ، إلا أن ضحكة ساخرة فظة لا مبالية خالية من النغم انطلقت للحال مكان الأنين . وكأنها تسخر من جيفة نكتة مائتة بالية بالغة العفن لا تستطيع أن تثير فيه شيئًا أكثر من فتحة فمه الشاحبة المقورة في خديه المشدودين .

قال : « إنني أعرف أنها هنا » وامتدت إحدى يديه في سرعة فوق الغطاء كفأر خائف تتلمس يدي : « إنني أشكرك للطفك » . وبهذا بدأ فجأة وكأنه قد أخذ يهدأ رغم أنه أبقي وجهه بعيداً عني . وقال في ببطء وكأنه يجمع شتات نفسه حتى يعطي للجملة معناها المحدد : « لقد أردت ، أردت أن أسوى حسابي معها بشرف ، لقد عاملتها بطريقة سيئة ، سيئة للغاية . إلا أنها بالطبع لم تلحظ ذلك ، إنها ساذجة للغاية ، غير أنها طيبة ، فتاة طيبة » . كان غريباً أن يسمع المرء جملة « فتاة طيبة » من شفتي واحد من « الإسكندرية » وقد نطقت بالإضافة إلى ذلك بلجهة متكسرة ممطوطة منغمة مألوفة لهؤلاء الذين تلقوا تعليمهم في هذا المكان . ثم أضاف ، وهو يبذل جهداً واضحاً ، ويناضل في مواجهة مقاومة داخلية هائلة : « لقد خدعتها فيما يختص بمعطفها . لقد كان مصنوعاً من جلد عجل البحر حقاً كذلك كانت العثة قد غزته . فعملت على أن تعاد خياطته . لماذا كان على أن أفعل شيئاً كهذا ؟ وعندما كانت مريضة لم أكن أعطيها مالاً حتى تذهب إلى الطبيب . أشياء بسيطة ، ولكنها ثقيلة العبء » . وتزاحمت الدموع في عينيه وضاق حلقه وكأنه قد غص بجسامة تلك الأفكار . وابتلع ريقه بجهد قاس وقال : « لم تكن تلك الأفعال جزءاً من شخصيتي . سل أيّاً من رجال الأعمال الذين يعرفونني ، سل أي إنسان » .

غير أن الارتباك بدأ يسيطر عليه ، فقداني وهو يمسكني في رقة من يدي إلى غابة أوهامه الكثيفة ، حيث كان يسير خلالها بقدم ثابتة ومعرفة راسخة حتى إنني وجدت نفسي أكاد أساير تلك الأوهام أيضاً . وشكلت أوراق أشجار مجهولة كانت تمر على وجهه في سرعة قوساً فوق رأسه ، بينما أُرصفة من الحمي تحدد طريق العجلات المطاطية لنقالة مليئة بأجسام معدنية وأخرى قائمة ، تتحدث عن حافة الجحيم ، وعواء كرية تتخلله عبارات زاجرة باللغة العربية . وكان الالم أيضاً قد بدأ يبلغ عقله وإدراكه ويجسد له الأوهام . وتحولت أطراف السرير البيضاء الصلبة إلى قوالب من القرميد الملون ،

وتحولت الورقة البيانية البيضاء الخاصة بدرجة الحرارة إلى وجه بحار أبيض.

كانا يسبحان يداً في يدهو « ميليسا » ، عبر مياه « مريوط » الضحلة الحمراء كالدم ، نحو الأكواخ الطينية المزخمة بلا نظام حيث وقفت «راكوتيس» ذات مرة . وأعاد سرد أحاديثهما بدقة شديدة حتى أنني رغم ضالة نصيب حبيبتي من الحديث ، استطعت أن أسمع صوتها الرصين ، وأن أستنتج أسئلتها من الإجابات التي قدمها لها . كانت تحاول في استماته إقناعه بالزواج منها ، وهو يلف ويدور لا يرغب في فقد جمال شخصها ، وبالمثل لا يرغب في توريط نفسه . لقد شدتني أماتته الغريبة التي كان يعيد بها سرد كل تلك المناقشة . والتي كان من الواضح أنها تحتل في ذاكرته مكان واجدة من أعظم التجارب التي مر بها في حياته . لم يكن يعرف حينذاك كم كان يحبها ، وكان على أن أعلمه هذا الدرس . ومن الناحية الأخرى كيف حدث أن «ميليسا» لم تحدثني على الإطلاق عن رغبتها في الزواج ، لم تكشف لي على الإطلاق عن أعماق ضعفها وإرهاقها كما فعلت معه ؟ لقد جرحني هذا جرحاً عميقاً . لقد طعن كبريائي فكرة أنها قد أظهرت له جانباً من طبيعتها في حين أنها احتفظت به خافياً عني .

وتغير المشهد الآن مرة أخرى ووقعت قدماه على طريق أكثر وضوحاً . لقد بدا الأمر وكأننا قد عثرنا في هذا الدغل الشاسع من اللامعقول على أماكن خالية يسيطر عليها العقل السليم حيث استطاع أن ينفض عنه أوهامه الشعاعية . هنا تكلم عن « ميليسا » وهو يفيض بالمشاعر وإن كانت مشاعر رصينة ، كزوج أو كملك . لقد بدا الآن والجسد يموت وكان كل مكونات نفسه الداخلية والتي احتجزت طويلاً خلف أكاذيب حياة مورست بطريقة خاطئة ، قد انفجرت عبر السدود وقاضت تغطي أقرب الأجزاء من وعيه . لم تكن « ميليسا » وحدها التي تكلم عنها - فقد تكلم عن زوجته - وكان في بعض الأحيان يخلط اسميهما .

كذلك كان هذا اسم ثالث ، « ربيكا » ، كان ينطقه بتحفظ أعمق ، بأسى عاطفي أكثر من الآخرين . وأخذت الاسم على أنه اسم ابنته الصغيرة ، لأن الأطفال هم الذين يوجهون الطلقة الأخيرة القضائية وسط كل تلك التعاملات الفظيعة التي يقوم بها القلب .

وبينما أجلس إلى جواره أحس نبضنا يدق في انسجام وأصغى إليه وهو يحدثني عن محبوبتي بهدوء جديد مهيب ، لم يسعني إلا أن أرى الكثير من السجايا التي يتمتع بها هذا الرجل والتي كان من الممكن أن تحبها « ميليسا » . أى صدفة غريبة جعلتها تخطئ الرجل الحقيقي ؟ لقد بدا لي الآن منافساً خطيراً لم أكن متنبهاً لقدراته ، بعيداً كل البعد عن ذلك الشيء الذي يوضع موضع الازدراء كما كنت أنظر إليه على الدوام ، وواتتني فكرة دنيئة حتى أنني أخجل من كتابتها . لقد شعرت بالسرور لأن « ميليسا » لم تحضر لترأه وهو يموت وإلا لراته كما رأيته أنا الآن ، وربما اكتشفته مرة أخرى في غمار الصدمة . ولقد وجدت نفسي بسبب واحد من تلك التناقضات الوهمية التي يسبح فيها الحب منتشياً ، أحس الغيرة منه وهو يموت أكثر مما أحسست بها خلال حياته . لقد كانت تلك الأفكار أفكاراً فظيعة بالنسبة لا مرئى عانى من الحب طويلاً وكان من مريديه الظرفاء . ولكنني عرفت فيها مرة أخرى وجه « إفروديت » الصارم اللامبالي البدائي .

وعرفت من خلاله على نحو ما ، من صدى صوته وهو ينطق باسمها ، نضجاً كنت أفتقده ، لأنه قد تغلب على حبه لها دون أن يدمره أو يصيبه بالضرر . لقد تركه ينضج كما يجب أن ينضج كل حب إلى صداقة متقانية تذوب فيها شخصيته . إنه لم يطلب أن يراها خوفاً من الموت أو لحاجته إليها كي تواسيه ، ولكنه أراد أن يقدم لها من خزائن رجل يحتضر ، من خزائنه التي لا تقني ، عطية أخيرة .

كان معطف السمرور الفاخر يرقد ملفوفاً في ورق رقيق للغاية فوق الكرسي

عند نهاية الفراش ، وكان في وسعي أن أدرك من نظرة واحدة أنه لم يكن من نوع الهدايا التي تقدم إلى « ميليسا » ، فقد كان حرياً به أن يثير الاضطراب في صوان ملابسها الضيق الرث ، متفوقاً بحسنه على كل ما لديها . وقال في سعادة : « لقد كنت وأناحي أحس على الدوام بالقلق فيما يختص بالمال . ولكن عندما تحتضر فإنك تجد نفسك فجأة رجلاً ذا مال . » لقد كاد أن يكون قادراً على الابتهاج لأول مرة في حياته . غير أن المرض كان يربض هناك كعليل صبور ونذير لا يرحم .

كان يمر بين الحين والآخر بفترة قصيرة من النوم القلق والظلام يطن حول أذني المتعبتين مثل خلية نحل . كان الوقت متأخراً ورغم ذلك لم أستطع أن أحمل نفسي على تركه . وأحضرت لي ممرضة ممن يناط بهن العمل كوجباً من القهوة وتحدثنا في همس . لقد كان مريحاً لي أن أسمعها تتكلم ، فالمرض بالنسبة لها لم يكن غير مهنة أجادتها وموقفها منه هو موقف الأجير الذي ينال أجره عن كل يوم يعمل فيه . قالت في صوتها البارد : « لقد هجر زوجته وطفلاته من أجل امرأة ما . والآن لا ترغب زوجته ولا المرأة التي كانت عشيقته في رؤيته . حسناً » . وهزت كتفها إن تلك المشاعر المعقدة من الوفاء لا تثير في نفسها أى إحساس بالشفقة ، فقد كانت لا ترى فيها إلا نقاط ضعف لا تستحق منها غير الازدراء . وسألتها : « لماذا لا تحضر الطفلة ؟ ألم يطلب رؤيتها ؟ » ولكنها سلكت سنتها الأمامية بظفر أصبعها الصغير وقالت : « نعم لقد طلبها ، ولكنه لا يود أن يفزعها بأن يجعلها تراه وهو مريض . إنك تدرك أن هذا الأمر لا يسعد طفلة . » والتقطت رشاشة وأخذت تبخ في تراخ شيئاً من المطهر في الهواء فوقنا ، مما ذكرني بشكل قاطع « بمنجيان » . ثم أضافت قائلة : « لقد تأخر الوقت ، فهل ستمضي الليل هنا ؟ » .

كنت على وشك أن أتحرك غير أن النائم استيقظ وقبض على يدي مرة أخرى وقال في صوت عميق ممزق لكنه يدل على سلامة العقل ، وكأنه قد سمع

العبارات الأخيرة من حديثنا . « لا تذهب . ابق قليلاً . هناك شيء آخر كنت أفكر فيه ويجب أن أصارحك به » . واستدار نحو الممرضة وهو يقول في هدوء ولكن في وضوح « اذهبي » فسوّت الفراش وتركنتا وحدنا مرة أخرى . وأطلق تنهيدة عميقة تبدو للمرء ، إن لم يكن مراقباً وجهه ، وكأنها تنهيدة ارتياح وسعادة . وقال : « ستجد ملابسي في الدولاب » . كان هناك بدلتان غامقتان وأخرجت حسبما أشار صديرية واحدة منهما ، وأخذت أصابعي تتحسس ما في جيوبها حتى عثرت على خاتمين : « لقد عزمت على أن أتقدم أطلب الزواج من « ميليسا » إن رغبت الآن . لهذا السبب أرسلت إليها . ومع ذلك فما فائدتي ؟ إسمي مثلاً ؟ » وابتسم ابتسامة غامضة وهو ينظر إلى السقف . « والخاتمان... » وأمسك بهما بين أصابعه في رقة وتبجيل كما يمسك المرء بقربان المناولة المقدس : « إنهما الخاتمان اللذان اشتريتهما « ميليسا » لنفسها منذ زمن طويل . ولهذا يجب أن تأخذهما . قريباً ... » ونظر إلى نظرة طويلة بعينين متالمتين متسائلتين . وقال : « ولكن كلا . إنك لن تتزوجها . ما الذي يضطرك إلى ذلك ؟ ولا يهمك خذهما والمعطف إليها » .

ورضعت الخاتمين في جيب معطفي العلوي ولم أقل أى شيء . وتنهد مرة أخرى ولدهشتي أخذ يغني ، في صوت واهن يكاد أن يكون خافتاً كصوت قزم صغير ، يتلو أبياتاً قليلة من أغنية شائعة إسمها « محال » . والتي كانت ذات يوم الأغنية التي جنت بها « الإسكندرية » ، والتي كانت « ميليسا » ما تزال ترقص على أنغامها في الكباريه . وقال لي : « اصغ إلى الموسيقى . » وفكرت في الحال في « أنطونيو » وهو يحتضر في قصيدة « كافافي » - قصيدة لم يقرأها على الإطلاق ، ولن يقرأها ألبته . وزعقت الصفارات فجأة عند الميناء كنجوم تعاني الألم . ثم سمعت هذا القزم مرة أخرى يغني في رقة عن الحزن والسعادة ، لم يكن يغني « لميليسا » ولكنه كان يغني « لربيكا » . وما أشد اختلاف هذا الغناء عن غناء جوقة المرتلين العظيم الممزق للقلب الذي سمعته « أنطونيو » - الثراء

الذي تتمتع به حدة الأوتار والأصوات التي انطلقت في الشارع المظلم - آخر ما تمنح « الإسكندرية » لهؤلاء الذين اختارهم نماذج يعبرون عنها . إن كل إنسان يغادر هذا العالم على أنغام موسيقاه الخاصة ، وفكرت وتذكرت وأنا أحس بالخجل والألم الحركات غير المتقنة التي كانت تقوم بها « ميليسا » وهي ترقص .

كان قد انساق الآن إلى حافة النوم وقدرت أن الوقت قد حان كي أتركه وأنصرف . فأخذت المعطف ووضعت في درج الدولاب السفلي قبل أن أخرج على أطراف أصابعي وأستدعي الممرضة المنوط بها العمل . والتي قالت « إن الوقت متأخر للغاية » فقلت لها « سأحضر في الصباح » . وكنت أعنى ما أقول .

وبينما أسير على مهل إلى منزلي عبر الشارع المظلم الذي تصطف الأشجار على جانبيه أذوق ريح الميناء المالحة الطعم ، تذكرت « جوستين » وهي تقول في صوت أجش بينما ترقد في السرير : « إننا نستخدم بعضنا البعض كمعاول نهدم بها هؤلاء الذين نحبهم حباً حقيقياً » .

* * *

كثيراً ما قيل لنا إن التاريخ محايد ، إلا أننا نأخذ ما يصدر عنه من تقتير أو وفرة مأخذ الأمر الذي تدبره قوة ما ، إننا في الحقيقة لا نصغي أبداً

وها أنذا الآن أسير على شبه الجزيرة المكفهرة تلك ، التي تشبه ورقة مسطحة ، وتمتد كأصابع اليد (حيث تطقطع أمطار الشتاء بين الصخور في ضُوت كصوت القش) أسير وأنا متصلب متيبس تلفنى الرياح قرب شاطئ يخنقه أنين الإسفنج أبحث عن معني للنموذج .

وأعتقد كشاعر للوجدان التاريخي أنني مضطر إلى رؤية الطبيعة كحقل تسوده الرغبة الإنسانية - حقل قد مزق إلى مزارع وكفور ، وحرث لتقام عليه المدن . منظر عام شخبطة توقيعات الرجال والعصور . ومع ذلك فقد بدأت أعتقد الآن ، أن الرغبة قد آلت إلى الإنسان من الموقع الذي يعتمد عليه في تزويد

وتأكيد إرادته على مكانه في الأرض ، سواء كان مستأجراً لفدادين مثمرة أو لغابة مجدبة . إنني لا أرى الآن أثر ضرباته الإرادية فوق الطبيعة (كما اعتقدت) ولكني أرى النمو الذي لا يقاوم ، لنظريات الطبيعة التلقائية غير المحدودة عن التباين والألم من خلال هذا الإنسان . لقد اختارت الطبيعة هذا المكان المسكين المتشعب نموذجاً لها . ولذا يبدو من التفاهة بمكان أن يقول أى رجل كما سمعت « بلتازار » يقول ذات مرة « إن رسالة : « القبايل » ، إذا كان لها ثمة رسالة ، هي أن تشرف الوظيفة حتى إن قدر الأكل والإفراز يرتفع إلى مرتبة الفنون » ، وسترى في كل هذا ازدهاراً للشك الكامل الذي سيقوض إرادة البقاء . إن الحب وحده هو الذي في وسعه أن يمد الإنسان بسند لفترة أطول قليلاً .

إنني أعتقد ، أيضاً ، أن شيئاً كهذا كان يجول بخاطر « الأرنأوطي » عندما كتب : « لقد انتهى البشر كحالات نفسية تطرح أمام الكاتب . إن النفس الإنسانية المعاصرة قد انفجرت في ظل الأبحاث التي يقوم بها هؤلاء الذين يفسرون ما غمض من الأمور فماذا بقي الآن للكاتب ؟ » .

لعل إدراكي لهذا الأمر هو الذي حدا بي إلى اختيار تلك البقعة الحالية كي أقضي بها السنوات القليلة القادمة - في هذا اللسان الذي حرقته الشمس في جزر بحر « إيجة » . إن هذه الجزيرة المحاطة بالتاريخ من كل جانب هي وحدها الخالية من كل مرجع تاريخي . إنها لم تذكر ألبتة في تواريخ الجنس الذي ننتمي إليه . إن ماضيها قد رد إليها من خلال المكان - لا عبر الزمان - حيث لا توجد بها معابد ولا حداثق ولا مدرجات تفسد الأفكار بمقارناتها الزائفة . صف من القوارب الملونة ، وميناء فوق التلال ، ومدينة صغيرة جعلها الإهمال جرداء .

هذا كل ما هناك . وسفينة تجارية تمر بها مرة كل شهر خلال طريقها إلى « أزمير » .

وتتسلق عواصف البحر ، في تلك الأمسيات الشتوية ، صخور الساحل
الوعرة وتغزو أحراش الوديان الهائلة التي لا يرها أحد حيث أسير أحدث
فجأة بلغة عامية برية وأنا أدفع وأزيع جانباً تلك الأشجار ذات الفروع التي
تشبه قلاع السفينة .

إنني أسير هنا ترافقني تلك الإحياءات التي تثير الحسد لماض لا يستطيع أن
يشاركني فيه أحد . وحتى الزمن نفسه لا يستطيع أن يحرمني منه . إن شعري
مثبت إلى الخلف فوق رأسي ، وراحة يدي تحمي من قوة الريح بقايا التبغ
المشتعل في غليونى . وقد رصعت السماء من فوق بصفوف متماثلة من النجوم
المتلألئة . ونجم « قلب العقرب » ينساب هناك وقد غلفه الرزاز إنني أهجر -
وأنا أحس بالبهجة - أصدقاء وكتباً في متناول اليد ، غرقاً مضاءة ، مدافئ بنيت
لتقام حولها المناقشات - كل رغبة العقل المتمددين - إنني أفعل ذلك الشيء وأنا لا
أندم عليه ولكن أحرار له فقط .

وأرى في هذا الاختيار أيضاً شيئاً عرضياً ولدته بواعث أجد نفسي مضطراً
لاعتبارها شيئاً خارج نطاق ما جبلت عليه . ومع ذلك ، فإنه لأمر غريب حقاً
إنني هنا فقط استطعت أخيراً أن أدخل من جديد وأن أستوطن مرة أخرى ، أنا
وأصدقائي ، المدينة التي لا تندثر وأن أصوغهم في نسيج متماسك كالفلولاذ في
الكتابات التي سوف تدوم نصف عمر المدينة . أو هذا ما أتمناه . هنا على الأقل
أستطيع أن أرى تاريخهم وتاريخ المدينة كشيء واحد وكظاهرة واحدة .

غير أن أغرب ما في الأمر : أنني مدين بهذه الانطلاقة « لبورسواردن » -
آخر شخص كان على أن اعتبره مصدرًا محتملاً من مصادر الخير . ففي ذلك
اللقاء الأخير ، مثلاً ، في الفندق في حجرة النوم القبيحة الغالية والتي كان ينتقل
إليها كلما عاد « بومبال » من إجازته لم أدرك في رائحة الحجرة العفنة
الثقيلة رائحة انتحار وشيك الوقوع ، وأنى لي أن أدرك ذلك ؟ كنت أعرف أنه
تس ، حتى لو لم يكن كذلك . فقد كان مضطراً لأن يتظاهر بالتعاسة . إنه لأمر

متوقع ، من جميع فناني هذا العصر أن ينموا - على سبيل الموضحة - شيئاً من التعاسة في نفوسهم . ولكونه « انجلو ساكسونياً » فقد كانت به لمسة من الضعف والإشفاق العاطفي الشديد على ذاته ، مما حدا به كي يشرب قليلاً . لقد كان في الليلة متوحشاً وغيباً وسريع الخاطر على التوالي . وأذكر أنه بينما كنت أستمع إليه خطر ببالي ذلك الخاطر فجأة : « هنا إنسان أهمل أحاسيسه بينما كان ينمى موهبته ، ولم يحدث هذا الأمر عرضاً ، ولكنه حدث عن قصد وعن عمد ، فقد كان التعبير عما بنفسه خليقاً بأن يضعه في تناقص مع العالم ، أو أن وحدته كانت تهدد عقله وإدراكه . لم يكن في مقدوره احتمال حرمانه واستبعاده ، وهو ما زال على قيد الحياة ، من قاعات الشهرة والتمايز . وتحت كل هذا كان يعاني على الدوام من إدراك لا يكاد يحتمل بخسته الذهنية . والآن لقد بلغ مجرى حياته مرحلة مثيرة : أعني النساء الجميلات ، اللواتي كان يحس دائماً ، شانه في ذلك شأن ريفي هياب ، أنهن بعيديات المنال ، وهن الآن سعيدات بأن يراهن الناس في صحبته . إنهن يلبسن في حضرته مسوح عرائش الشعر الساهيات قليلاً واللائي يعانين من الإمساك . ويرضي غرورهن إن هو أمسك على مشهد من الناس بيد موضوعة في قفاز لمدة أطول مما يسمح به العرف . ولابد أن كل هذا كان في البدء بلسماً لغرور رجل يعاني الوحدة ، ولكنه عمق في النهاية شعوره بالقلق والخطر . لقد بدأت حريته التي اكتسبها عن طريق نجاحه المالي المتواضع تبعث بالضجر في نفسه ، لقد أخذ يحس أكثر فأكثر بحاجة إلى العظمة الحقيقية بينما كان اسمه ينتفخ كل يوم كلافطة مقززة . لقد أدرك أن الناس يسرون الآن في الشوارع مع الاسم الذي اشتهر وليس مع الرجل الذي يحمل هذا الاسم . إنهم لم يعودوا - مع أن كل أعماله إنما كتبها لتجذب الانتباه إلى الشخصية التي تعاني الوحدة وتتالم والتي أحس أنه يعبر عنها . لقد غطاء اسمه كشاهد القبر . والآن تأتي الفكرة المرعبة : ربما لم يعد هناك أحد ليراه الناس ؟ ومع ذلك فمن يكون هو ؟ .

إنني لست فخوراً بتلك الأفكار ، فهي تقضح الحسد الذي يحسه كل فاشل
إزاء كل ناجح . غير أن الضغينة غالباً ما ترى بوضوح كذلك الوضوح الذي
يرى به البر والإحسان . وفي الحقيقة فقد عبرت خاطري وفي خط متواز لتلك
الأفكار كلمات « كليا » التي استخدمتها ذات مرة في وصفه ، والتي لسبب ما
أتذكرها الآن وأمعن الفكر فيها : « إنه منفر في بعض النواحي . ويمكن جزء من
ذلك السر في تجهمه الطبيعي إذ يوجد في موهبته بذرة من الخجل ترجع إلى
انزوائه . وللخجل قوانين : إذ ليس في استطاعتك أن تهب ذاتك بطريقة
مأساوية ، إلا لأولئك الذين يفهمون أقل مما يفهم الجميع . لأن تفهم الإنسان
يتطلب إظهار الشفقة على ما في هذا الإنسان من ضعف الإرادة . ومن هنا فإن
النساء اللواتي يحبهن والرسائل التي يكتبها إليهن ، إنما تقوم في عقله مقام
الرموز لهؤلاء اللواتي يعتقد أنه يرغب فيهن ، ويستحقهن على أى حال من
الأحوال - يا صديقي العزيز » .

وتنقطع عبارات « كليا » دائماً في منتصفها وتنتهي بتلك الابهتامة
الساحرة المليئة بالركة - « هل أنا مسئول عن حراسة أخى ؟ » .

(إن أهم ما احتاج إليه هو تسجيل التجارب ، لا بالترتيب الذي وقعت به -
لأن ذلك هو التاريخ - ولكن بالترتيب الذي غدت فيه لأول مرة ذات دلالة
بالنسبة إلى) .

ماذا إذن ، كان حافظ « بورسواردن » كي يترك لي خمسمائة جنيه بشرط
واحد هو أن أنفقها مع « ميليسا » ؟ واعتقدت أنه ربما أحبها هو نفسه ، ولكن
بعد تفكير عميق انتهيت إلى أنه لم يحبها هي ، ولكنه أحب حبي لها . وأنه
بالنسبة لجميع فضائي لم يكن يحسدني إلا لقدرتي على الاستجابة بحرارة
لتودد الآخرين الأمر الذي كان يعرف قدره ، حتى لعله تمناه ، غير أنه سيكون
محروماً منه إلى الأبد لأنه يشمئز من نفسه . والحقيقة أن هذا الشيء بذاته كان

لطمة موجهة إلى كبريائي ، فقد كنت أحب منه أن يبدي إعجابه - إن لم يكن بالعمل الذي أنجزته - فعلى الأقل بما يكشف عنه هذا العمل من أمل يرجى لمستقبل أعمال الأدبية . ما أغيانا - وما أضيق أفقنا ، إننا مجرد أباطيل تسعى على أقدام .

لم نكن قد التقينا لأسابيع ، فإن أحدا منا لم يكن يتردد عادة على مسكن الآخر ، وعندما حدث أن التقينا تم ذلك في المرحاض المصنوع من الصفيح في الميدان الرئيسي إلى جوار محطة الترام ، كان ذلك بعد أن حل الظلام ، وكان من الممكن ألا يرى أحدهنا الآخر ، لولا أن غمرت المصابيح الأمامية لإحدى السيارات هذا المكان الكريه الرائحة صدفة بضوء أبيض كالرزاز . وقال وقد تعرف علي : « آه » ، قالها دون اتران وبعد تفكير ، فقد كان مخموراً (وكان قبل ذلك بعدة أسابيع قد ترك لي في وصيته خمسمائة جنيه ، وهذا يعنى أنه قد حكم علي بقيمتي - رغم أن هذا الحكم لم يكن ليبلغني إلا عندما يذهب إلى القبر) .

كان المطر يقرض السقف المصنوع من الصفيح فوقنا . وتقت للذهاب إلى منزلي ، فقد قضيت يوماً مرهقاً ، لكنني تريت في ضعف ، وقد عاقني عن الذهاب ما أحسه على الدوام من آداب المجاملة نحو هؤلاء الذين لا أكن لهم حباً . وحدد الجسد المترنح بعض الشيء ملامحه أمامي في الظلام . وقال في لهجة عاطفية واضحة : « دعنى أستودع فيك سر حرفة الروائي . فأنا ناجح وأنت فاشل . إن الجواب أيها العجوز ، هو الجنس والكثير من الجنس » . ورفع رأسه وذقنه وهو يقول أو يلقي بطريقة خطابية ، بكلمة « الجنس » : « وأمال رقبتة الضامرة كما تفعل الدجاجة عند الشرب وقضم الكلمة وهو ينبج كصول يدرب الجنود . وقال مكرراً بطريقة أكثر طبيعية : « سيات الحب ولكن تذكر » ، ثم جعل صوته يهبط إلى تمتمة كمن يهمس سراً خاصاً . « عليك بالبقاء متحفظاً حتى التزمت . فتقاليد الجدة الخالدة كفيلة بأن تنقذك ، عليك أن تظل متحفظاً تعاني الألم . حاول وأبدو كأنك تعاني انقباضاً ، فذلك عنوان النخبة الممتازة في

المجتمع . أما عن الأنخاب الوقحة ، والتصرفات القبيحة ما كان منها طبيعياً أو هزلياً ، فهي أمور لا يسمح بها . لقد كانت هذه أعمال لا غبار عليها أيام «شوسر» و «اليسابات» إلا أنها لا ترفع من قدر المرء في هذه الأيام — كن متمزماً وتلفع بثياب الوقار كشيوخ من شيوخ الكنيسة . وأدار نحوي في نفس اللحظة التي نفض فيها عن نفسه كل دخيلته وجهاً تشكل فحاكى غطاء الزرار . كان مشدوداً ضيقاً غريب المنظر . وشكرته غير أنه أزاح شكري جانباً بطريقة ملكية . وقال : « كل هذا مجاناً بلا مقابل » . ثم أمسك بى من يدي وقادنى إلى الخارج ، إلى الشارع المظلم . وسرنا نحو وسط المدينة كعبددين ، ككاتبين تربطهما الزمالة ، يتقل كلنا منا إحساس مختلف بالفشل . كان يتحدث بثقة إلى نفسه في تمتمة لم أستطع تمييزها عن أمور تهمه . وعندما استدرنا نسير في «شارع الراهبات» توقف أمام باب مضاء هو باب منزل سيء السمعة وقال : «يقول «بودلير» إن المضاجعة هي موال الرعاع ، ولكنها للأسف لم تعد كذلك ! إذ أن الجنس يموت . وبعد قرن آخر سترقد ولسان كل منا في فم الآخر ، في صمت وبلا وجد كفاكهة البحر . حقاً ! سيحدث هذا ما في ذلك شك » . ثم استشهد بالمثل العربي الذي يستخدمه كالشيء المميز لثلاثيته . « الدنيا زى الخيارة — النهاردة في إيدك وبكرة في » وتابعنا بعدئذ خطانا نتقدم نحو الفندق الذي يقطنه «كأبو جلمبو» وهو يكرر في سعادة ظاهرة قوله « ما في ذلك شك . لما في جرسه من نعمة متفجرة . كان شاحباً هزلياً ، وقد طالت ذقنه ، غير أنه كان يتمتع بمعنويات طيبة بعد هذه النزهة ، والتجأنا إلى زجاجة من الجن كان يحتفظ بها في «الكومودينو» إلى جوار سريريه . وأشارت إلى الحقيبتين المنتفختين والقائمتين إلى جوار منضدة الزينة وقد تم ربطهما بالأحزمة ، وكان معطفه الواقعي من المطر ملقى فوق أحد الكراسي وقد حشي بالصحف ، كذلك بيجامته ، ومعجون الأسنان إلخ . فقال إنه كان يعتزم اللحاق بقطار المساء إلى «غزة» . كان يود أن يستجم وأن يزور «بترا» .

وكانت ترقد فوق رخام منضدة الزينة ، مسودات آخر رواية كتبها وقد صححت ولفت وكتب عليها العنوان . وعرفت في مسلكه الفظ واكتابه الإرهاق الذي يلاحق الفنان عندما يصل بوحدة من أعماله إلى نهايتها . تلك هي لحظات الهبوط النفسي عند ما تبدأ هواجس الانتحار في الانتعاش من جديد .

إنني لا أستطيع لسوء الحظ أن أستعيد إلا القليل من المناقشة الفعلية التي دارت بيننا ، رغم أنني كثيراً ما أحاول استعادتها كاملة . وإذا عدنا إلى الماضي ، فإنني أجد كون هذا اللقاء هو اللقاء الأخير قد أحاطه بأهمية لا يستحقها دون شك . فإن « بورسواردن » لم يكف عن الوجود كهدف من أهداف هذا الكتاب ، لقد انتقل كما سننتقل جميعاً إلى المرأة الزئبقية العاكسة التي هي ذكرى أصدقائنا ، حيث نترك وراءنا أمراضنا ، وأفعالنا الشريرة ، وأوكر رغباتنا التي تشبه أعشاش الزنابير ، والتي مازالت تؤتي الخير أو الشر في العالم الحقيقي . ومع ذلك فإن وجود الموت يزيد من حنكتنا - وتلك هي وظيفته : إنه يساعد على إبعاد الفكر في كل ما يجد على الزمن . ومع ذلك ففي تلك اللحظة كان كلانا يقف على بعد متساو من الموت - أو هذا ما ظننته . ولربما كان يزدهر في أعماقه حينذاك شيء من التصميم الصامت على الموت - ما المشكلة ؟ ليس في وسعي أن أحدد ، إذ ليس خافياً أن أى فنان يرغب في إنهاء حياة قد استنفدها - (ففي كتابه الأخير تصرخ إحدى الشخصيات : « لسنوات كان على المرء أن يحتمل الشعور بأن الناس لا تعبأ به ، لا تبالي به مبالاة حقيقية ، ثم يدرك المرء ذات يوم بانزعاج متزايد ، أن الله هو الذي لا يعبأ وأن الأمر لا يقف عند هذا الحد ولكنه لا يعبأ به على أى حال من الأحوال) .

غير أن هذا الجانب يذكرني بجزء صغير من ذلك الحديث المخور فقد تكلم في هزة وسخرية عن « بلتازار » ، وعن انشغاله بأمور الدين ، عن « القابال » (التي كان قد سمع باسمها فقط) واستمعت إليه دون أن أقاطعه وأخذ صوته يهبط بالتدريج كساعة حائط قهرها ثقل الثواني . وانتصب ليصب لنفسه

كأساً وقال : « إن المرء يحتاج إلى قدر هائل من الجهل حتى يقرب الله . واعتقد أنى كنت أعرف على الدوام أكثر مما يجب » .

إن تلك الشذرات تثير الغيظ في عقل اليقظ في مثل تلك الأمسيات ، وأنا أسير في ظلام الشتاء ، إلى أن أعود في النهاية إلى طقطقة نيران خشب الزيتون في المدفأة المقوسة القديمة الطراز ، التي ترقد إلى جوارها « جوستين » الطفلة نائمة في سريرها الهزاز المصنوع من خشب الصنوبر الذكي الرائحة .

إلى أى مدى أستطيع الادعاء بأنى أعرفه ؟ إنني أدرك أن كل امرئ في وسعه أن يدعى معرفة جانب من شخصيتنا كجزء من خبرته . إننا ندير لكل إنسان وجهاً مختلفاً من وجوهنا التي تشبه المنشور . ولقد وجدت نفسي مرة بعد أخرى مفاجئاً بمشاهدات تذكرني بهذه الفكرة . كما حدث مثلاً عندما قالت « جوستين » عن « بومبال » : « إنه واحد من أعظم فرسان الجنس » . رغم أنه لم يبد لي على الإطلاق مفترساً سلاباً . لم يكن غير مفرط في ذاته إلى حد يثير الضحك والسخرية . كنت أرى فيه شخصاً مسلياً ومؤثراً ، خليقاً بأن يكرم بعض الشيء لقدرته الفطرية على السخرية . غير أنها لا بد وقد رأت فيه القط الكبير الناعم .

وأما بالنسبة « لبورسواردن » ، فإنني أتذكر ، أيضاً ، أنه شد قامته في نفس الوقت الذي كنا نتحدث فيه عن الجهل الديني ولمح صورته الشاحبة المنعكسة في المرآة . فرفع الكأس إلى شفتيه ، وأدار رأسه ، ثم ألقى بملء فيه من الشراب على انعكاس صورته اللامع . ستظل تلك الصورة باقية واضحة في رأسي ، انعكاس متميع لصورة تلك الحجرة القذرة الباهظة الإيجار والتي تبدو الآن مكاناً مناسباً تماماً للمشهد الذي حدث فيما بعد في تلك الليلة ذاتها .

* * *

« محل زغلول » - أو ان فضية وحمام في الأقفاص . كهف كالقبو رصت على جانبيه براميل سوداء وقد اختنق بدخان السمك المقلي ورائحة

«الريتزيناتو» . رسالة قد شخبطت على طرف جريدة . هنا سكبت الخمر على معطفها ، وقد لمست نهديها دون قصد بينما كنت أحاول مساعدتها في إصلاح الضرر . لم تصدر ولا كلمة واحدة عن أى منا . بينما « بورسواردن » ما زال يتكلم في تالق عن « الإسكندرية » ومكتبها التي احترقت . وفي الحجرة التي فوقنا يصرخ فقير مصاب بالتهاب سحائي .

يجئ اليوم ، على غير انتظار ، مطر ربيعي غير طبيعي ، يجمد غبار المدينة وحبوب لقاح أزهارها ، يدق سقف المرسم الزجاجي حيث يجلس « نسيم » عاكفاً على الرسم التخطيطي لوجه زوجته . لقد أمسك بها لحظة كانت تجلس تغني أمام النار وبين يديها جيتار ، وقد لفت عنقها بوشاح منقط ، وقد مالت برأسها . ويتداخل ضجيج صوتها في مؤخرة رأسه كأثار صوت هزة أرضية تندفع متراجعة . وينصب المطر فوق الحداثق صب نبال هائلة حيث تميل أشجار النخيل إلى الوراء وقد توترت ، أسطورة الأمواج الصفراء الهامات تهاجم الفزاعة .

ومتلئ المدينة في الليل بأصوات جديدة ، أصوات شد الريح وضغطها ، حتى تحس وكأن المدينة قد غدت سفينة ، أخشابها القديمة تئن وتزيق مع كل هجمة يقوم بها الطقس .

هذا هو الطقس الذي يعشقه « سكوبي » . إنه يرقد على فراشه يدلك منظاره المكبر في حب ، ملقياً بنظرة مشتاقة إلى الحائط الطيني الأصم ، الذي يحجب عنه منظر البحر .

إن « سكوبي » يناهز السبعين من عمره ولكنه ما زال يخشى الموت ، والشيء الوحيد الذي يخافه هو أن يستيقظ ذات صباح فيجد نفسه ميتاً . اللفتنانت كوماندر « سكوبي » الضابط بالإمبراطورية البريطانية . ولذا تهزه بشدة صيحات السقائين كل صباح تحت نافذته قبل الفجر فتوقظه ، إنه يقول : إنه يظل للحظة لا يتجاسر على فتح عينيه ، فيبقيهما مغلقتين تماماً (خشية أن

تفتحا على مضيئ سماوي أو على الملائكة وهم يترنمون) ويتحسس حامل ـ
القطائر الموجود إلى جانب سريرته حتى يمسك بغليونه . إنه محشو على الدوام
منذ الليلة السابقة وقد وضعت إلى جواره علبه ثقاب مفتوحة . ويستعيد رباطة
جأشه وإبصاره مع أول نفس من أنفاس الدخان . فيتنفس في عمق مسروراً
لتأكد أنه ما زال على قيد الحياة مرة أخرى . فيبتسم . ويتفرس فيما حوله .
ويسحب فروة الخروف التي يستخدمها كغطاء حتى أذنيه وينشد للصباح
أغنيته القصيرة أغنية الشكر على انتصاره في صوت يقطع كرقائق الصفيح :
« اسكت أيها الطفل الصغير ، دع أمك تتكلم » . ويتلون خداه المترجبان كخدي
نافخ البوق باللون الوردي من الجهد الذي يبذله . ويكتشف عندما يتنبه إلى
نفسه أنه يعاني من الصداع الذي لا مفر منه . ولسانه يؤله من خمر الليلة
الماضية . غير أن منظر يوم آخر من أيام الحياة يساوي الكثير لديه في مقابل تلك
المضايقات التافهة . ويفغى « أسكت أيها الطفل الصغير » وهكذا . ثم يتوقف عن
الغذاء ليدس طاقم أسنانه في فمه . إنه يضع أصابعه المجددة على صدره يعزى
نفسه بصوت قلبه وهو يعمل ، محافظاً على دورته الدموية المترجفة في ذلك
الجهاز المكون من الأوردة ، والذي لا يعوض قصوره (لست أدري إن كان هذا
حقاً أم من نسج الخيال) إلا جرعات يومية قاتلة من البراندي ، لذا فهو فخور
بقلبه . ولو حدث أن زرتة وهو في الفراش فكن على يقين بأنه غالباً ما سيقبض
على راحتك قبضة فك حيوان صلب صلابة القرن ويسألك أن تحس نبضه .
« إنه قوى كقلب ثور ، ماذا ؟ » يتكلم « بطريقة ظريفة » . هكذا يتحدث عن قلبه ،
رغم البراندي . وحتى تجاريه بعض الشيء فإنك تدس يدك داخل سترة نومه
الرخيصة وأنت تبلع ريقك لتختبر ضربات الحياة ، القليلة ، الحزينة ، الضعيفة
الناثية — والتي تشبه دقات قلب جنين في شهره السابع . ثم يزرر بيجامته في
إعزاز ويطلق صيحته التي يقلد فيها زئير الحيوان الذي يتمتع بصحة جيدة .
ويقول : « وأقوم وأثباً من فراشي كالأسد » . وتلك واحدة أخرى من مآثراته .

إنك لن تتعرف على سحر هذا الرجل تعرفًا كاملاً ، حتى تراه بالفعل ، وقد انحنى ظهره من الروماتيزم ، خارجاً يزحف كحطام إنسان من بين بطاطينه القطنية الخشنة ، إن عظامه لا تلين بمقدار يجعله قادراً على أن يقف منتصب القامة إلا في أكثر شهور العام دفئاً ، وهو يتمشى في عصارى أيام الصيف في الحديقة ، وطاسة رأسه الصغيرة تتوهج كشمس صغيرة ، وغلبيونه مسدد نحو السماء ، وقد أطبق فكيه في تقطبية عنيفة كمن يتمتع بصحة فاجرة.

إن أسطورة المدينة لا تكتمل دون « سكوبي » ، وستفتقد « الإسكندرية » شخصيته عندما يتدلى ، في النهاية ، جسده الذي جففته الشمس ، وقد لف في علم المملكة المتحدة ، في المقبرة الضحلة التي تنتظره في جبانة الروم الكاثوليك قرب شريط الترام .

إن راتب التقاعد الضئيل الذي يتقاضاه من البحرية لا يكاد يكفي إيجار الحجرة الوحيدة التي يسكن فيها في المنطقة القذرة الفقيرة المزدهمة خلف « شارع التتويج » والتي تحتلها الصراصير ، ولكنه يغطي النقص الذي يعانيه براتب تقاعد مماثل يتقاضاه من الحكومة المصرية . فهو يحمل بالإضافة إلى ذلك لقب « بمباشي » بقوة البوليس وهو لقب يثير في النفس الكبرياء ، وقد رسمت له « كليا » صورة رائعة وهو في زي رجل البوليس والطربوش القرمزي على رأسه ، وقد رقدت منشته الهائلة السمكية سمك ذيل الحصان في رشاقة على ركبتيه العظمتين .

إن « كليا » هي التي تمدّه بالتبغ وأنا أمدّه بالإعجاب والصحة والبراندي إذا كانت حالة الجو تسمح بذلك . وقد أخذنا على عاتقنا أنا و « كليا » أن نتناوب الإشادة بصحته . ونقوم بإنهاضه عندما يضرب صدره بقوة زائدة في غمرة حماسه لإثبات قوته . ليس « لسكوبي » أصل ينسب إليه — إذ يتجمع ماضيه كمادة أسطورية حقيقية عبر دسنة من القارات . كما أن حاضره غنى بما

يتخيله عن صحته حتى أنه لا يطلب المزيد - إلا رحلة يقوم بها أحياناً إلى «القاهرة» خلال شهر «رمضان» عندما يغلق مكتبه حيث يفترض أن تتوقف كل الجرائم بسبب الصيام .

الشباب أمرد وكذلك مرحلة الطفولة الثانية . ويشد «سكوبى» في حنان بقايا لحية كانت ذات يوم وسيمة كثة تشبه الطورييد - ولكنه يشدها في رقة ، ودلال ، خوفاً من أن يقتلعها كلها ويترك وجهه عارياً تمام العرى . إنه يتشبث بالحياة تشبث نوع من الأصداف بالصخور ، نوع لا يظهر عليه تأثير البحر كل عام إلا في صورة طفيفة للغاية . يبدو وكأن جسده يتضائل ، يتقلص ، بمرور فصول الشتاء ، وسرعان ما ستغدو جمجمته في حجم جمجمة الطفل ، سيمر عام آخر أو عامان ، وبعدها سنكون قادرين على أن نحشر جمجمته في قنينة وأن نخللها هناك محتفظين بها إلى الأبد . إن التجاعيد ترك على مر الأيام بصمات أشد عمقاً . ويبدو وجهه بدون أسنان كوجه قرد من العصور القديمة . وتوجد فوق لحيته الهزيلة وجنتاه الحمران في لون التوت المعروفتان على سبيل التدليل بيسار السفينة ويمينها ، وهما تشعان دفئاً في جميع الأجواء .

ولقد تردد «سكوبى» كثيراً على عنبر الاستبدال ، ففي عام ١٩٠٠ نقلت سقطة من على الصاري فكه من موضعه وتحطم عظم الجمجمة المحيط بالتجويف الأمامي . ويسلك طاقم أسنانه الصناعية عندما يتكلم سلوك سلم متحرك . إنه ينتقل إلى أعلى ويدور داخل جمجمته في حلزون هزاز . كما لا تستقر ابتسامته على حال ، إذ من الممكن أن تظهر من أى مكان مثلها في ذلك مثل ابتسامة القط «شيشير» . وفي عام ١٨٨٤ بصبص بعينه لزوجة رجل آخر (كما يقول هو) ففقد واحدة منهما . والمفروض أن أحداً لا يعرف بهذا الأمر غير «كليا» ، إلا أن استبدال العين التالفة بعين صناعية لم تكن عملية متقنة . إذ عندما يكون هادئاً يصعب ملاحظة عينه الصناعية ، غير أن التفاوت بين العينين يبدو واضحاً عندما يكون نشطاً . كذلك توجد هناك مشكلة فنية

صغيرة ، وهي أن عينه الطبيعية تكاد تكون على الدوام حمراء كالدم . ولقد لاحظت منذ اللحظة الأولى عندما دعاني لرؤية رسم بالغاب بعنوان « أيها الحارس ، ماذا عن الليل ؟ » بينما وقف في ركن الحجرة ممسكاً في يده بمبولة قديمة ، لاحظت أن عينه اليمنى تتحرك أبطأ قليلاً من عينه اليسرى . وبدأت حينذاك وكأنها تقليد مكبر لعين النسر المحنطة التي تطل متجهمة كثيبة من تجويف في المكتبة العامة . على أن عينه الصناعية وليست الطبيعية هي التي تنبض بعنف في الشتاء بطريقة لا تحتمل وتجعله عبوساً بذىء اللسان لا يهدأ حتى يلقي بقليل من البراندي في معدته .

ويشبه « سكوبي » بعض الحيوانات البدائية عندما يكون هناك ضباب ومطر ، إنه يحمل معه شيئاً من الطقس الإنجليزي ، ولا يسعده شيء قدر استطاعته الجلوس في الشتاء إلى نار صغيرة ، يتحدث ، تنسال ذكرياته واحدة بعد الأخرى من ذهنه الذي يشبه آلة تالفة حتى يختلط الأمر عليه فلا يتبين أيها تخصه هو . وأرى من خلفه أمواج الاطلنطى الطويلة الرمادية تطوى المحيط ، وتحيط بذكرياته تحاصرها ، تخنقها في الرزاز ، تعميه فلا يرى . وهو عندما يتحدث ، وكان وسائل الاتصال ضعيفة بالفعل ، والجو غير موات للإرسال . لقد تجمد الرجال العشرة الذين ركبوا النهر في « داوسون » وماتوا . هبط الشتاء عليهم كالطرقة ، وأصابهم الويسكي والذهب والقتل بفقدان الإحساس - إنها حرب تشبه الحرب الصليبية ، إنها تجرى في الشمال في بلاد الأخشاب . في ذلك الوقت سقط أخوه في شلالات أوغندا ، لقد رآه في حلمه ، رأى جسده الصغير للغاية وهو يسقط كذبابة وللحال داعبته مخالب المياه الصفراء . كلا : لقد حدث ذلك فيما بعد عندما كان يحاول جاهداً أن يتذكر متى حدث هذا الأمر بالضبط ، وقد أسقط رأسه المصقولة بين راحتيه ، غير أن الأمواج الرمادية تتداخل وتحمي التيارات العالية الحاجز القائم بينه وبين ذاكرته دون عناء . لذا كانت تصلنى كلمة العاصفة بدلاً من كلمة القرصان وتبدو جمجمته وكأنها قد

امتصت واعتصرت حتى لم يبق منها غير فاصل رقيق من الجلد يفصل بين ابتسامته وابتسامته الجمجمة المخفية أسفل الجلد . خذ بالك من جمجمته بمعالمها الواضحة : الفروع العظمية داخل أصابعه الشمعية : القضبان الشحمية التي تسند قصبتي ساقيه المرتعشتين إن « سكوبي » العجوز كما لاحظت « كليا » ، يشبه بحق آله .. صغيرة قديمة تستخدم في إجراء التجارب وقد تركت من القرن الماضي ، شيء ودود يثير العواطف مثله في ذلك مثل أول صاروخ ناري اخترعه « ستيفنسون » .

إنه يعيش كناسك في الطابق الأعلى المنحدر بعض الشيء . و « ناسك » تلك واحدة أخرى من مآثراته ، إنه يقطع — عندما ينطق بها — أصابعه وهو يضغطها بطريقة فظة إلى خده ، تاركاً عينه الدوارة تشير إلى كل ما انغمس فيه سراً من علاقات نسائية ، إنه يتصرف على هذا النحو من أجل خاطر « كليا » ، ففي حضرة « سيدة كاملة » مثلها يحس بضرورة التلون بالشكل الذي يستره ، وسرعان ما يلقي هذا القناع جانباً لحظة أن تغادر . غير أن الحقيقة أكثر مدعاة للحرزن . إنه يعترف لي في صوت خفيض : « لقد قمت على الوجه الاكمل ، بعمل ضابط الكشافة في فرقة « هاكني » . كان ذلك بعد أن سرحت بسبب ضعفي . غير أنه كان على أن أبقى خارج « إنجلترا » أيها الصبي العجوز . كان الضغط هناك أكثر مما أحتمل . كنت أتوقع كل أسبوع أن أرى عنواناً رئيسياً في جريدة نيوز أوف ذي ورلد « أخبار العالم » يقول ، شاب آخر يقع ضحية النزوات القدرة لضابط الكشافة .

لم تكن الأمور في « هاكني » تهمنى كثيراً . كان صبيتي مهرة في صناعة الأدوات الخشبية بطريقة يدوية . كانوا ، كما تعودت أن أدعوهم ، صغاراً يتمتعون بالأناقة والرشاقة . ولقد سجن ضابط الكشافة الذي كان من قبلي عشرين عاماً . وهذا أمر كاف يثير الريب في نفسي . فمثل تلك الأشياء تدعوك للتفكير . وكيفما كان الأمر فإنني لم أستطع الاستقرار في « هاكني » . خذ بالك ،

تذكر لقد تخطيت الآن كل شيء ، إلا أنني أحب أن أكون هادئ البال — كما هو الحال الآن بالضبط . وعلى نحو ما فإن المرء لم يعد يحس بالحرية في إنجلترا ، انظر الطريقة التي يخلعون بها القساوسة ، رجال الدين المحترمين . لقد اعتدت أن أرقد يقطاً أفكر في قلق .

وأخيراً غادرت إنجلترا إلى الخارج بصفتي « حامل بوق » خاص . فقد كان «توبى مانرينج» ، وهو ابن عضو في البرلمان ، يبحث عن ذريعة للسفر . فقالوا إنه يجب أن يكون لديه حامل بوق كان يريد الالتحاق بالبحرية . هذه هي الطريقة التي حضرت بها إلى هنا . وللحال رأيت أن الحياة هنا ظريفة سهلة وبلا قيود .

وحصلت للفور على وظيفة في فرقة مكافحة الرذيلة تحت قيادة « نمرود باشا » . وها إنذا أيها الولد العزيز ، لا أشكو كما ترى . وماذا أرى عندما انظر من شرق هذه الدلتا الخصبة إلى غربها ؟ السمير الصفار الملائكيين يغطون الأرض ميلاً بعد ميل .

كانت الحكومة المصرية ، بكرمها النموذجي الخيالي والذي تغدقه تذبذباً شرقياً على أى أجنبي بيدي قليلاً من الود والصدقة ، قد قدمت له سبيلاً للعيش في « الإسكندرية » . ويقال إن الرذيلة قد بلغت بعد تعيينه في فرقة مكافحة الرذيلة حداً هائلاً ، حتى وجد أنه من الضروري ترقيته ونقله ، غير أنه كان يؤكد على الدوام أن نقله للعمل بفرع البوليس الخاص بدائرة المباحث كان ترقية يستحقها — وأنا من ناحيتي لم تكن لدى الشجاعة لأغيظه في هذا الموضوع . لم يكن عمله شاقاً .

فهو يعمل لمدة ساعتين في حجرة آيلة للسقوط في الجزء العلوي من المدينة ، تحوطه البراغيث التي تقفز من خشب مكتبه المتعفن القديم الطراز . إنه يتغذى غذاء متواضعاً في « اللوتيشيا » ، ويشترى لنفسه إذا ما سمحت نقوده بالشراء تفاحة وزجاجة من البراندي لوجبة المساء . إنه يقضي عصارى الصيف الطويلة

القاسية في النوم ، وتصفح الجرائد التي يستعيرها من بائع جرائد يوناني يكن له الود ، (وبينما يقرأ يرقى النبض في أعلى جمجمته ويهدأ) . إن بلوغ الكمال هو كل شيء في الحياة .

ويكشف تأثيث غرفته الصغيرة عن روح عالية القدرة على الاختيار ، فالأشياء القليلة التي تزين حياة الناسك تحمل رائحته الخاصة على نحو حاد ، وكأنها معاً تشكل شخصية مالكها . ولهذا السبب تعطي الصورة التي رسمتها له « كليا » إحساساً بالشمول ، فقد رسمت في خافيتها كل ممتلكات الرجل العجوز : مثلاً ، الصليب الصغير الذي تغطيه القذرة والمعلق فوق الحائط خلف السرير ، مع أنه قد مضت بضع سنوات منذ تلقى « سكوبي » مواساة كنيسة الروم المقدسة وتعزياتها له لمواجهة الشيخوخة ولمواجهة تلك المثالب الشخصية التي غدت الآن طبيعة ثانية له . وبالقرب من الصليب توجد هناك صورة صغيرة ملونة « للموناليزا » والتي كانت ابتسامتها الغامضة تذكر « سكوبي » بأمه (أما من ناحيتي فإن الابتسامة الشهيرة تبدو لي على الدوام ابتسامة امرأة تناولت غذاءها لتوها بعيداً عن زوجها) . ومع ذلك فإن هذه أيضاً قد دمجت نفسها على نحو ما في وجود « سكوبي » ، وأقامت معه علاقة خاصة وسرية . وكان « موناليزا » التي تخصه لا تشبه أية واحدة أخرى ، إنها هاربة من « ليوناردو » .

ثم هناك بالتأكيد حامل الكعك الذي يستخدمه « ككومودينو » ، وحقيبة كتب ودرج للكتابة في نفس الوقت . ولقد منحته « كليا » كل ما يستحق من معاملة حاذية ، فرسمته بأمانة دقيقة . ويتكون هذا الحامل من أربع طبقات كل منها محاطة بحافة مائلة ضيقة غير أنها أنيقة . لقد اشتراه بتسعة بنسات من شارع « بوستون » عام ١٩١١ ، ولف معه حول العالم مرتين . إن « سكوبي » سيسامدك بنفسه على أن تعجب به دون أن يعتمد ذلك أو يبدو عليه أي أثر للمزاح . سيقول لك وهو يتناول قطعة من القماش يتفرض بها التراب عنه : « إنه

شيء صغير جذاب اليس كذلك ؟ » وسيشرح لك في عناية أن الطبقة العليا قد صممت خصيصاً من أجل الخبز المحمر المدهون بالزبد ، والطبقة الوسطى من أجل القطاير ، والسفلى من أجل « نوعين من الكعك » . ومع ذلك فإنها الآن تقى بأغراض أخرى . فعلى الرف العلوى يرقد المنظار المكبر والبوصلة والإنجيل ، وعلى الرف الأوسط توجد مراسلاته التي تتكون من ظروف خطابات معاش التقاعد ، وعلى الرف الأسفل ترقد في وقار مهيب مbole يشير إليها دائماً باعتبار أنها « المتاع المنقول الموروث » ، والتي تقتزن بها قصة غامضة سوف يستودعني إياها يوماً ما .

ويضىء حجرته مصباح كهربى ضعيف ، وحزمة من شعلات الزيت القائمة في مشكاة والموضوعة على « زلعة » فخارية مليئة بماء الشرب البارد . ويطل شباك حجرته الوحيد الخالى من الستائر على حائط طيني قاتم تساقطت قشرته كما أنه يحجب كل شيء . إنه يذكرني وهو راقد في السرير وميض أنوار الليل الباهتة في لون الدخان تنعكس على زجاج بوصلته - يذكرني وهو راقد في السرير بعد منتصف الليل والبراندي ينبض في جمجمته بكعكة زواج قديمة ، في انتظار من ينحني فوقها ويطفى شمعاتها .

إن آخر تعليقاته في الليل ، بعد أن يضعه المرء في السرير ويطمئن عليه ويحشر حوله الغطاء عدا عبارته السوقية « قبلني في غف » والتي يصحبها على الدوام بطرقة وغمزة من خده - إن آخر تعليقاته أن يقول بطريقة أكثر جدية : « أصدقني القول ، هل أبدو في حدود عمري ؟ » .

وفي صراحة فإن « سكوبى » يبدو مناسباً لجميع الأعمار ، إنه أسن من ميلاد المأساة وأصعب من الموت الاثينى . ولد في فلك « نوح » حصيلة لقاء وقران عابر بين الدب والتعامه ، ولد قبل ميعاده من صيحة السأم التي تشبه قباع الخنزير والتي أطلقها قاع السفينة وهو يحط على « جبل أرارات » . وقد خرج « سكوبى » من الرحم على كرسي ذى عجلات إطاراتها من المطاط ،

مرتدياً قمطاً من جلد الغزال ولفة من الصوف الأحمر . يغطي أصابع قدميه القابضة الملع زوج من الأحذية ذات الرقبة المرنة الجوانب . يحمل في يده إنجيل العاتلة المهترئ وقد كتب على صفحته الأولى « يشوع صموئيل سكوبى ١٨٧٠ . أكرم أبك وأمك » . وقد أضيفت إلى تلك الممتلكات عينا كقميرين ميتين ، تقوس واضح في العمود الفقرى لهذا القرصان ، وحاسة ذوق للسفن القديمة . لم يكن ما يجري في عروقه دمًا ولكن ماء أخضر مالح ، من قاع البحر . مشيته دحرجة بطيئة عسيرة تطحن ما تحتها كقديس يسير في الجليل . حديثه رطانة الماء الأخضر وقد غسل في خمسة محيطات - دكان أنتيكات مليئًا بالخرعيلات المهذبة منتفشًا بالمازول ، أجهزة ملكية ، البروبنيتينات وأجهزة قياس الضغط الجوي . عندما يغني ، وهو غالبًا ما يفعل ذلك فإنه يغني بنفس النبرات التي كان إله البحر العجوز يغني بها . وكقديس من الأولياء فإنه يترك قطعة من لحمه في كل مكان من العالم ، في « زنجبار » « كولومبو » ، « توجولاند » ، وفي « ووفو » : الشذرات الصغيرة . المتساقطة والتي كان ينثرها منذ زمن طويل ، كقرون قديمة ، وأزارار أكامم القمصان ، الأسنان والشعر والآن يتركه المذبح المنحسر عاليًا وجافًا فوق أمواج الزمن التي تنطلق في سرعة ، « يشوع » المفلس رجل الأنواء ، ساكن الجزيرة ، الناسك .



إن « كليا » ، « كليا » الرقيقة المحبوبة والتي لا يمكن معرفة ما في أعماقها هي أعظم صديق « لسكوبى » ، إنها تقضى الكثير من وقتها مع القرصان العجوز ، تهجر مرسما الذي يشبه عش العنكبوت لتصنع له الشاي وتستمتع بالإصغاء إلى ذلك المونولوج الذي لا ينتهى عن حياة تقهقرت منذ أمد بعيد ، فقدت دافعها الجوهرى ، لتعيش عوضًا عن ذلك في متاهات الذاكرة .

أما عن « كليا » نفسها : إنني أتساءل إذا ما كان خيالي وحده هو الذي يجعل رسم صورتها يبدو لى وكأنه أمر عسير للغاية ؟ إنني أفكر فيها كثيرًا جدًا -

ومع ذلك فإننى أرى كم راوغت في كل ماكتبته من التعرض لها بشكل مباشر . ربما تكمن الصعوبة هنا : في أنه لا توجد كما يبدو علاقة سهلة بين عاداتها ومزاجها الحقيقي . وإن كان على أن أصف بنيان حياتها الخارجي — وهي البسيطة إلى حد يجرّد المرء من غضبه ، فهي رشيقة تتحكم في ذاتها — فهناك خطر حقيقي في أن تبدو إما كراهبة أخلت مجال النزوات الإنسانية كله ليحل محله استغراق في البحث عن ذاتها التي لا تعرف الخوف . وإما كعذراء خاب أملها وانطوت على نفسها ، وقد حرمت نفسها من العالم بسبب نوع من الخلل العقلي أو بسبب جرح قديم لا يرجى له النّثام .

إن كل شيء يحوط شخصها ذهبي في لون العسل ؛ دائم النغم ، شعرها الأشقر المقصوص والمسوى بطريقة مجمّدة تتركه ينساب قليلاً على ظهرها وقد عقصته عند أسفل العنق ، مما يبرز الوجه الصانق لعروس الشعر الصغيرة بعينيهما الرماديتين الخضراوين المبتسمتين . إن في يديها المطبوعتين على الهدوء حدقاً وجمالاً لا يمكن للمرء أن يلحظهما إلا عند يراها وهي تعمل ، وبما وهي تمسك بفرشاة الرسم أو وهي تجبر ساق عصفور مكسورة بجبيرة مصنوعة من عيدان الكبريت .

إنني أستطيع القول إنها قد صبت ، وهي ما تزال دافئة ، في جسد الرشاقة صبية : أى في جسد ولد بلا غرائز ولا شهوات . أن تحوز الجمال الرائع ، وتملك ما يكفي من المال لتبنى حياة مستقلة وأن تكون حاذقة ، تلك هي العوامل التي أغرت الحساد وضعاف النفوس إلى اعتبارها محظوظة دون وجه حق . غير أن من ينتقدونها ويراقبونها يتساءلون عن السبب الذي من أجله حرمت نفسها من الزواج ؟

إنها تعيش حياة متواضعة رغم أنها ليست حياة بائسة ، تقطن في مرسوم مريح يوجد في أعلى طابق بالبناء ، مؤسس بسرير حديدى صغير وعدد قليل من كراسي الشاطئ البالية والتي تنقل بكاملها إلى كابينة الصغيرة في « سيدى

بشر . « أما الشيء الكمالى الوحيد لديها ، فهو حمام مبلط بالقيشانى البراق ، وضعت في أحد أركانها موقدًا صغيراً لتغطيه بأى طيخ تحس ميلا نحو طهيه لنفسها ، ومكتبة تدل أرضها المكتظة على أنها لا تبخل عليها بشيء .

إنها تعيش بلا عشاق ولا روابط عائلية ، بلا أحقاد ولا حيوانات مدللة ، مركزة كل اهتمامها على ما تقوم به من أعمال الرسم التي تأخذها مأخذ الجد ، غير أنها لا تبالغ في تلك الجدية . وهي محظوظة أيضاً في عملها ، فتلك اللوحات الجسورة الظريفة تشع لطفًا ومرحًا . إنها مليئة بروح المداعبة - إنها كأطفال محبوبين غاية الحب .

ولكنني أرى أنني قد تكلمت عنها سخفًا . باعتبار أنها « تحرم نفسها من الزواج » . كم سيثير هذا القول غضبها ، إنني أتذكرها وهي تقول ذات مرة : « إذا أردت أن نظل صديقين فعليك ألا تفكر أو تتكلم عني كامرأة تحرم نفسها من أى شيء في الحياة . إن وحدتى لا تجردنى من أى شيء ، كما أنى لست مؤهلة لأى شيء غير ما أنا عليه . إنني أودك أن ترى مقدار نجاحي ولا تتخيلني مليئة بأنواع الفشل الداخلية . أما عن الحب ذاته - يا صديقى العزيز - فلقد أخبرتك من دى قبل بأنه لا يعنيني إلا قليلاً جداً - ويعنيني الرجال بدرجة أقل من ذلك . إن التجارب القليلة ، وفي الحقيقة التجربة الوحيدة ، التي أثرت في نفسي كانت تجربة مارستها مع امرأة . ومازلت أعيش في سعادة تلك العلاقة التي أنجزت على الوجه الاكمل ، وأى بديل جسدى لهذا الذي أحسه يبدو لي اليوم سوقياً وفارغاً إلى درجة بشعة . ولكن لا تظن أنني أعانى أى مظهر من مظاهر الموضة الحديثة عن القلوب المحطمة . كلا . إنني أحس على نحو يثير الضحك بأن حبنا قد ربيع حقاً بخلاصه من المحبوب ، إذ يبدو الأمر وكأن الجسد كان يقف بصورة ما في طريق النمو الحقيقي للحب ، في طريق استيعابه وإدراكه لذاته . هل يبدو قولى هذا مفاجئاً ؟ » وضحكت .

كنا ، كما أتذكر ، نسير في الخريف على الكورنيش الذي غسلته الأمطار تحت سماء معتمة هلالية ملبدة بالغيوم ، عندما وضعت ذراعها في ذراعي بطريقة ودودة ، بينما أخذت تتكلم ، وابتسمت لى في حنان حتى أن العابر بنا لا يلام إذا ما ظن أننا عاشقان .

وتابعت حديثها : « إن هناك شيئاً آخر قد تكتشفه من تلقاء نفسك ، شيئاً عن الحب - لا أقول معيياً ، فالعيب يرقد في أعماقنا نحن ، ولكنه شيء أخطأنا فهم طبيعته . فحبك الذي تحسه الآن ، مثلاً ، نحو « جوستين » ليس حباً مختلفاً لشيء مختلف ، إنه نفس الحب الذي تكنه « لميليسا » : يحاول التعبير عن نفسه خلال « جوستين » . والحب شيء ثابت بقدر هائل وليس مخصصاً لكل منا ، إلا جزء منه ، نصيب ما . إنه قادر على الظهور في صور لا نهاية لها والارتباط بأناس لا حصر لهم . إلا أن كميته محدودة ويمكن استهلاكه ، فيغدو بضاعة باثرة ويذبل قبل أن يؤتى مفعوله الحقيقي . إن غاية الحب ترقد في مكان ما في أعماق أجزاء النفس حيث يمكن التعرف عليها بأسم حب الذات ، تلك الأرض التي قام عليها نوع من سلامة النفس ، إنني لا أعنى بذلك الانانية أو النرجسية » .

لقد كانت مثل تلك الأحاديث هي التي قربتني في بادئ الأمر من « كليا » . أحاديث كانت تستمر في بعض الأحيان حتى الهزيع الأخير من الليل - أحاديث علمتني بأنه في وسعي أن أعتمد على القوة التي استمدتها هي من التأمل ومعرفة الإنسان بذاته . إن صداقتنا قد جعلتنا قادرين على أن نتبادل أفكارنا وآراءنا الخاصة ، وأن تأثيرها على كل منا بطريقة كان يستحيل اللجوء إليها لو كنا أكثر ارتباطاً بقيود تفرق ، وياله من تناقض ظاهري ، بصورة أعمق مما تجمع . رغم أن الوهم البشري يمنعنا من تصديق ذلك . إنني أتذكرها تقول ذات مرة عندما نوهت لها عن تلك الحقيقة : « إنه لحق أنني أقرب من بعض النواحي ، أقرب إليك من كل من « ميليسا » و « جوستين » . أنت تعرف أن حب

الجزء الثالث

كانت رياح الخماسين في ذلك الربيع الثاني لوجودى في « الإسكندرية » ،
أسوأ مما عرفتُها من قبل أو من بعد . فقد تلونت سماء الصحراء قبل شروق
الشمس باللون البنى الذي يشبه لون ثياب خشنة منشأة ، ثم أخذت تعتم في
بطء وهي تنتفخ ككدمة وتحدد على الأقل ملامح السحب ، غايات عملاقة من
اللون الأصفر ، تكومت من الدلتا مثل كثبان من الرماد تحت بركان . المدينة
أحكمت إغلاق منافذها ، وكأنها تواجه ريحاً عاصفة . لفحات قليلة من الهواء
ومثلها من مطر ثقيل هي نذر الظلام الذي يحو ضوء السماء . والآن يغزو
الرمال كل شيء دون أن يُرى في ظلام الحجرات الموصدة النوافذ ويظهر كما لو
كان بفعل السحر ، في الملابس المصانة منذ أمد بعيد ، في الكتب والصور
وملاعب الشاي ، في أقفال الأبواب وتحت الأظافر . الهواء القاسي اللاهث يبيس
أغشية الحلق والأنوف ، ويجعل العينين تدمعان بصورة متصلة . سحب في
لون الدم الجاف تقطع الشوارع كالنبوءات ، وتستقر الرمال في البحر كما
يستقر مسحوق في خصلات شعر مستعار بال . أقلام الحبر غصت ، والشفاه
جفت — وكومة بيضاء رقيقة وكأنما هي ثلج حديث التكوين تغطي اردواز
النوافذ البندقية الطراز . والفلوكة التي تشبه الأطياف تعبر القناة تبحر بها
غيلان معصوبة الرؤوس . ومن حين لآخر تهبط من السماء مباشرة ريح
تطرقع تثير المدينة كلها فتدور وتدور حتى يخيّل للمرء أن كل شيء ، الأشجار
والمناظر ، النصب التذكارية والناس ، قد وقعت في قاع دوامة هائلة وأنها
سترجع في رفق في النهاية إلى الصحراء التي نبت منها الجميع عائدين مرة
أخرى إلى أرض الكثبان المجهولة التي نحتتها الأمواج ...
لا أستطيع أن أنكر أن كلانا تملكه في ذلك الوقت إرهاب روحى جعلنا

يائسين طاشين ، نتعجل انكشاف أمرنا . فالإثم يهرع دائماً نحو تتمته ، نحو جزائه : فهناك فقط تكمن راحته . وسيطرت على حماقة « جوستين » التي كانت تفوق حماقتي رغبة خفية في التكفير ، أو ربما انتاب كلانا ونحن مقيدين ذراعاً وساقاً إلى بعضنا البعض شعوراً مبهماً بأن هزة ما يمكن أن تعيد كلانا إلى صوابه . كانت تلك الأيام مليئة بالندر والتحذيرات التي كان يقتات عليها قلقلنا .

أخبرني « حميد » الأعور ذات يوم أن زائراً غامضاً أخبره أن يسهر على حماية سيده ، حيث إن شخصية عالية المكانة تتهدده بخطر كبير . وكان وصفه للرجل ينطبق على « سليم » ، سكرتير « نسيم » : إلا أنه ينطبق كذلك على أي من الـ ٥٠,٠٠٠ الذين يسكنون الإقليم . وفي تلك الأثناء كان موقف « نسيم » حيالي قد تغير ، أو بالأحرى قد عمق إلى عذوبة غامرة يشوبها القلق . لقد ألقى بتحفظه السابق جانباً . وأخذ عندما يتكلم إلى يستخدم عبارات تودد غير مألوفة . كان يمسكني من كمي في محبة . وأحياناً بينما نتكلم كان يتورد وجهه من الخجل فجأة : أو تغرورق عيناه بالدموع فيدير رأسه ليخفيها . وكانت « جوستين » ترقب هذا باهتمام من المؤلم أن تلاحظه . غير أن الذل وتائب الضمير الذي كنا نحسه لأننا أسأنا إليه كان يقربنا أكثر فأكثر كشريكين في الذنب . وتكلمت « جوستين » في بعض الأحيان عن الرحيل ، وفعلت أنا بالمثل في أحيان أخرى . غير أن أحداً منا لم يكن في وسعه أن يتحرك . كنا مجبرين على انتظار النتيجة في تسليم ونفاذ صبر كانا في الحقيقة تجربة مخيفة .

ولم تقلل هذه التحذيرات من حماقاتنا ، بل ضاعفتها . وساد أفعالنا استهتار مخيف ، وتميز سلوكنا بالطيش المفرع . لم يكن لنا حتى أن نأمل (وهنا أدركت أنني قد أضعت نفسي تماماً) في تجنب ما أعده لنا القدر . لم يكن يعيننا لحماقتنا سوى خوفنا ألا نتمكن من اقتسام قدرنا سوياً — خوفنا أن يفرقنا عن بعضنا البعض . وأدركت من خلال هذا التلمس الواضح

للاستشهاد أننا قد أظهرنا حبنا وهو في أشد حالاته فراغاً وقصوراً . قالت «جوستين» ذات مرة : « لا بد أنني أبدو لك مقززة بما أقول من خليط قبيح من الافكار المتعارضة: كل هذا الاهتمام السقيم بالاش وعجز كامل عن طاعة أبسط وأعز خلقي صادر عن طبيعتي الداخلية. كأن أكون مثلاً وفيه لرجل واحد أحبه لدرجة العبادة . إنني أرتجف يا عزيزي إشفافاً على نفسي . إنني أرتجف . كم أود لو كان في استطاعتي أن أنجو من تلك الشخصية التقليدية المتعبة لليهودية المختلة الأعصاب . لو كان في وسعي أن أنزعها عن نفسي » .

خلال تلك الشهور ، بينما كانت « ميليسا » تستشفى في فلسطين (وكنت قد استدنت المال اللازم من « جوستين » حتى تتمكن « ميليسا » من السفر) أفلتتا من عدة مآزق . فمثلاً كنت ذات يوم أتحدث أنا و « جوستين » في حجرة النوم الكبيرة بالمنزل . كنا قد عدنا من الاستحمام بالشاطي وكنا قد أخذنا دشاً بارداً كي نزيل الملح من على أجسادنا . وجلست « جوستين » فوق السرير عارية تحت بشكير الحمام الذي لفته حولها في رشاقة كرداء يوناني الطراز . وكان « نسيم » في القاهرة حيث كان مفروضاً أن يقدم حديثاً في المذيعان نيابة عن جمعية خيرية أو ما شابه ذلك ، وخارج النافذة كانت الأشجار تميل بأوراقها المتربة في جو الصيف الرطب . بينما كان من الممكن سماع ضجيج حركة المرور الخافتة في « شارع فؤاد » .

وجاءنا صوت « نسيم » الهادئ من المذيع الصغير الأسود الموجود قرب الفراش ، وقد حوله مكبر الصوت إلى صوت رجل شاخ قبل أوانه . وعاشت العبارات الخالية من أي فكرة في الصمت الذي غزته حتى بدا الجو وكأنه قد ازدحم بالتفاهات . غير أن الصوت كان جميلاً ، كان صوت رجل أحكم عزل نفسه عن أية مشاعر . وكان باب الحمام خلف ظهر « جوستين » مفتوحاً . وخلفه يوجد باب به لوح زجاجي أبيض بياض العيادات الطبية يؤدي إلى سلم حديدي يستخدم للنجاة عند الحريق - فقد كان بناء المنزل مصمم حول بئر

تتوسط المكان حتى يمكن ربط حجرات الحمام والمطابخ بشبكة من السلالم الحديدية كتلك التي تمتد في غرفة الآلات بالسفينة . وفجأة ، بينما الصوت ما زال يتكلم وبينما نصغى نحن إليه وصلت أسماعنا خطى خفيفة شابة سريعة تصعد السلم الحديدى خارج الحمام : خطوة « نسيم » التي لا يخطئها السمع . أو خطوة أى من الخمسين ألفاً الذين يقطنون الإقليم . رأيت عندما نظرت من فوق كتف « جوستين » ، رأس وكتفى رجل نحيل ، يرتدى قبعة طرية من اللباد مشدودة إلى عينه ، تظهر فوق زجاج الباب الأبيض . كانت تتضح معالمه مثل صورة تطبع في وعاء التخميض . وتوقف الشبح وقد مد يده إلى مقبض الباب . وادارت « جوستين » رأسها عندما رأت اتجاه نظرتى . ووضعت ذراعاً عارية حول كتفى ، بينما أخذ كلانا يرقب - في هدوء كامل يخفق كالقلب بشعور من الإشارة الجنسية المحمومة العاجزة - الشبح المعتم الواقف هناك بين عالمين وقد تحددت معالمه كأنما على شاشة أشعة « إكس » ، وعلى وجهينا ارتسم شعور بالبراءة لا شعور بالخوف .

ووقف الشبح هناك لفترة طويلة ، كأنما يفكر بعمق ، وربما كان يتصنت إلى شيء ما . ثم هز رأسه في بطء مرة واحدة ، وبعد لحظة استدار وقد لاحت عليه الحيرة ثم بدأ يذوب في بطء من فوق الزجاج . وبينما يستدير بدا وكأنه يضع شيئاً في جيب سترته الأيمن . وسمعنا خطاه تتلاشي ببطيئة - كسلم من الانغام الهابطة الرديئة - فوق سلم البشر الحديدى . ولم يتفوه أى منا . فقط استدرنا وبتركيز عميق إلى المذيع الصغير الأسود الذي ينساب منه صوت « نسيم » ، في دمائه ورقة متصلتين . وبدا أنه من المستحيل أن يوجد في مكانين في وقت واحد . ولم ندرك حقيقة الأمر إلا بعد أن أوضح لنا المذيع أن الحديث قد سجل من قبل . لماذا لم يفتح الباب ؟

الحقيقة أنه كان قد وقع في قبضة دوامة الشك التي تتبع قراراً اتخذ للعمل على ضوئه ، عند من كانت طبيعتهم مسالمة . فطوال ذلك الوقت كان هنالك شيء

ينمو في داخله حبة فحبة ، حتى غدا وزنه فوق ما يحتمل . كان متنبهاً إلى أن تغييراً في طبيعته يتم في أعماقه وأن هذا التغيير ينفض عنه أخيراً ذلك الشلل الطويل ، شلل الحب العاجز الذي كان يسيطر على أفعاله . وألحت عليه كشيء طريف مخدر فكرة عمل محدد مفاجئ ، عمل يحسم الأمر إن خيراً وإن شراً وأحس (كما أخبرني فيما بعد) أنه كمقامر يوشك أن يجازف في ضربة واحدة يائسة بالبقايا التافهة لثروة مفقودة . إلا أنه لم يكن قد استقر بعد على طبيعة هذا العمل . ما الشكل الذي يتخذه ؟ وتفجرت في داخله كومة من النزوات المضطربة .

وبلغ تياران رئيسيان من تيارات هذه الرغبة مصبهما ، نهايتهما ، يستحثانه على العمل . فمن ناحية بلغ دوسيه المعلومات الذي جمعه له عملاؤه عن « جوستين » حجماً لا يمكن التغاضي عنه ، وتملكته من الناحية الأخرى فكرة جديدة ومخيفة فكرة لم تطرأ على باله من قبل - إن « جوستين » قد وقعت في الحب أخيراً . لقد بدا أن مزاج شخصيتها العام يتغير ، وأنها قد غدت للمرة الأولى ، متاملة ، مفكرة ، تفيض عذوبة من تلك العذوبة التي في وسع المرأة أن تمنحها للرجل الذي لا تحبه . « ونسيم » أيضاً ، كما ترى ، كان يتعقب خطاها من خلال صفحات كتاب « الأرنأوطي » .

« كنت أعتقد في بادئ الأمر أنه يجب السماح لها بأن تقا تل خلال دغل الحائل متجهة نحوى . وعندما كانت تلح على فكرة خيانتها الموجهة كنت أذكر نفسي بأنها ليست امرأة ممن ييحثن عن اللذة ، ولكنها امرأة تتصيد الألم في بحثها عن نفسها - وعنى . واعتقدت أنه لو تمكن رجل واحد من تحريرها من نفسها فإنها ستصبح في متناول جميع الرجال ، وكذلك أنا أولى الناس بها . غير أن فكرة فظيعة طرأت على بالي ، عندما رأيتها تذوب مثل غطاء من الثلج : وهي أن الرجل الذي سيحطم الحائل سيحتفظ بها إلى الأبد ، حيث إن الراحة التي أعطاها لها بالتحديد هي الشيء الذي كانت تبحث عنه في جنون خلال أجسادنا

ومصائرنا . وللمرة الأولى سيطرت على مشاعر الغيرة التي كان يغذيها خوفي .
ولقد بدا غريباً لي أن تصيب الغيرة « نسيم » على الدوام وحتى الآن من كل
شخص ما عدا الشخص الحقيقي الذي يسطر حاضر « جوستين » - منى أنا .
ورغم كومة الأدلة الغامرة إلا أنه لم يجرؤ على السماح لنفسه بالشك في . ليس
الحب هو الأعمى ، ولكن الغيرة هي العمياء . لقد مضى وقت طويل قبل أن
يتمكن من ترويض نفسه على أن يثق في كومة المستندات والأدلة التي جمعها له
عملاؤه عنا ، عن لقاءاتنا ، وتصرفاتنا . غير أن الحقائق فرضت نفسها الآن
بصورة واضحة لا يحتمل معها الخطأ . وغدا السؤال كيف السبيل إلى التخلص
منى - « إنني لا أبالي بالجسد كثيراً : لقد غدوت مجرد خيال يحجب عني
الضياء . ربما كنت أراك تموت ، أو تذهب بعيداً . لم أكن أدري . كان عدم اليقين
ذاته مثيراً إلى حد السكره » .

غير أنه جنباً إلى جنب مع تلك المشاغل ، كانت هنالك مشاغل أخرى -
المشاكل التي انبعثت عند « الأرنأوطي » والتي عجز عن حلها والتي كان
يتابعها « نسيم » على مدى سنتين بفضل شرقي أصيل . لقد غدا الآن قريباً
من الرجل ذي العصاية السوداء على عينيه - أقرب إليه من أى منا في أى وقت .
هنا كان في حوزته جزء آخر من المعرفة لم يكن قد قرر بعد أفضل السبل
للإفادة منه . وإذا كانت « جوستين » تخلص نفسها بالفعل منه ، فما الفائدة
إذن من أن ينتقم لنفسه من الشخص الحقيقي لذلك الكائن الغامض ؟ ومن
الناحية الأخرى ما الحل إذا كنت أنا على وشك أن أحتل المكان الذي خلا بزوال
هذا الشبح ؟

ولقد سألت « سليم » صراحة إذا ما كان قد زار شقتي ليحذر « حميد »
الأعور . غير أنه لم يجب ، أحنى رأسه وقال في صعوبة : « إن سيدى على غير
طبيعته في تلك الأيام » .

وفي تلك الأثناء اتخذت أقدارى طريقاً غير معقول ولا متوقع . فقد سمعت

ذات ليلة طرقات مدوية على باب شقتي وفتحت الباب ليدخل منه ضابط مصري من ضباط الجيش أنيق الهيئة يرتدى حذاء متألّفاً وطربوشاً . ويحمل تحت إبطه منشأة ضخمة ذات مقبض من الأبنوس وكان « يوسف بك » يتحدث بلغة إنجليزية سليمة ، تنتال من شفتيه في سهولة ، كلمة بعد أخرى منتقاة بعناية ، من وجه جاد أسود كالفحم به أسنان ممتازة صغيرة ذات سناء كحبات اللؤلؤ . كان يتمتع بالوقار المحب لبطيخة ناطقة قادمة لتوها من « كامبريدج » . وقدم له « حميد » القهوة المعتادة ومشروب كحولى حلو لزج ، وأثناء تناوله للمشروبات أخبرنى أن صديقاً كبيراً لي يحتل مركزاً عالياً يود أن يرانى بالراح . وللحال اتجهت أفكارى إلى « نسيم » ، غير أن هذا الصديق ، كما زعم البطيخة كان ضابطاً إنجليزياً . وأنه ليس في وسعه أن يقول أكثر من هذا . كانت مهمته سرية . هل أذهب معه وأزور صديقي ؟

كانت تملأنى الشكوك والريب « فالإسكندرية » التي تبدو من الخارج مسالمة ، لم تكن في الحقيقة مكاناً مأموناً للمسيحيين ، ففي الأسبوع الماضى فقط ، جاء « بومبال » إلى المنزل يحكي قصة نائب القنصل السويدي الذي أصيبت سيارته بعطب على طريق مطروح . كان قد ترك زوجته بمفردها بينما اتجه هو إلى أقرب تليفون ليتصل بالقنصلية ويطلب منها إرسال سيارة أخرى . وعاد ليجدها تجلس في المقعد الخلفي بطريقة طبيعية — جسداً بلا رأس . واستدعى البوليس وفتشت المنطقة كلها بدقة . وكان بين الذين يجرى استجوابهم بعض البدو الذين يقيمون في مخيم قرب هذا المكان . وبينما كانوا غارقين في إنكار أى معرفة بالحادث ، تدرجت الرأس المفقودة من فوطة إحدى النساء . كانوا يحاولون اقتلاع أسنانها الذهبية والتي . كانت تعطى لابتسامتها سمة غير محببة في الحفلات . لم تكن مثل هذه الحادثة من الندرة بالقدر الذي يجعل المرء يقدم على زيارة الأحياء القريبة من المدينة بعد أن يحل الظلام ، ولذا فقد تبعت الضابط دون أى إحساس بالاطمئنان إلى سيارة

حكومية جلست في مقعدها الخلفي ، خلف سائق يرتدى رداء رسمياً ، ووجدت السيارة تدور بسرعة نحو أقذر أحياء المدينة . وأخذ « يوسف بك » يتحسس شاربهِ الصغير الأنثيق بطريقة من يتوقع شيئاً كالموسيقي عندما يشد أوتار آلة . كان من العبث سؤاله المزيد من الأسئلة : ولم أكن أود أن أكتشف شيئاً من القلق الذي أعانيه . ولذا فقد استسلمت في دخيلتي للموقف ، وأشعلت سيجارة ، وأخذت أراقب شريط الكورنيش الطويل وهو يتلاشى خلفنا . وتوقفت السيارة فهبطنا وقادنى الضابط سيراً على الأقدام عبر مجموعة من الأزقة والحوارى المتشعبة قرب « شارع الراهبات » . فإذا كان الهدف من إحضارى هنا هو أن أفقد سيطرتى على نفسي فقد تحقق على الفور تقريباً . كان يسير بخطى خفيفة واثقة ، يدندن في صوت خافت . وأخيراً خرجنا من الشوارع الضيقة إلى شارع في الضواحي ملى بالمتاجر ووقفنا أمام باب كبير نحتت عليه بعض النقوش ودفع الضابط الباب ففتحه بعد أن دق الجرس . ودخلنا إلى ساحة بها بعض أشجار النخيل العاجزة عن النمو ، وقد وضع فانوسان باهتا الضوء فوق الحصى على جانبي الممر الذي يقطع تلك المسافة . وعبرنا الممر وصعدنا بضع درجات حيث كان مصباح كهربى ناصع البياض يلقي بنوره القوي على باب أبيض طويل . وطرق الباب ودخل ورفع يده بالتحية في حركة واحدة . وتبعته إلى حجرة كبيرة أميل إلى أن تكون أنيقة ودافئة وقد زينت أرضيتها النظيفة المصقولة سجاجيد عربية جميلة . وفي أحد الأركان جلس « سكوبى » على مكتب عال مطعم يحيط نفسه بجو من الخيلاء الكاذبة ، وعلى وجهه تقطعية المعتد بنفسه تغطى ابتسامة الترحيب التي حيانى بها . وقلت « يا إلهى » . وأطلق القرصان العجوز ضحكة مكتومة من ضحكات حارة « درورى لين » ، وقال : « أخيراً ، أيها الرجل العجوز ، أخيراً » . ومع ذلك فإنه لم ينهض لاستقبالى وظل جالساً على كرسيه غير المريح ذى المسند العالى ، طربوشه على رأسه ، ومنشته على ركبته يحيط نفسه بجو يترك في النفس إحساساً بالغموض . ولا حظت

مزيدياً من النجوم على كتفه . السماء القادرة وحدها تعلم مصدر تلك الزيادة في الرتبة والسلطة . وقال وهو يشير بيده في حركة ضجرة تشبه حركة المنشار وتحمل شبهاً ضئيلاً للإيماءات الإمبراطورية : « اجلس أيها الرجل العجوز » . وسمح للضابط بالانصراف فغادر المكان وهو عابس . وبدأ لي أن « سكوبي » لا يبدو شديد الارتياح في هذه الأبهة التي تحيط به . كان يحيط نفسه بإطار من الدفاع عن النفس ، وقال وهو يخفض صوته إلى همس مسرحي : « لقد طلبت منهم القبض عليك ، لسبب خاص للغاية » . كان يوجد على مكتبه عدد من الملفات الخضراء ، وغطاء براد شاي عديم المنظر بصورة غريبة . وجلست .

نهض « سكوبي » في سرعة وفتح الباب . لم يكن هناك أحد بالخارج ، ففتح النافذة . لم يكن هناك أحد يقف عند حافة الشباك . فوضع غطاء الشاي فوق تليفون المكتب ثم عاود الجلوس . ثم مال إلى الأمام ، وبينما كان يتكلم في حرص ، أخذ يفحصني بعينه الزجاجية بطريقة حادة تأمرية . قال : « ولا كلمة لأى إنسان ، أيها الرجل العجوز . أقسم أنك لن تتفوه بكلمة واحدة » . وأقسمت . « لقد جعلوني رئيساً للشرطة السرية » . وصفرت الكلمات من خلال طاقم أسنانه الصناعية بطريقة ظريفة . وأومات براسي وأنا في دهشة . وسحب نفساً عميقاً وكان عبثاً قد أزيح عن كاهله واستمر يقول : « أيها الولد العجوز ، ستقع الحرب . معلومات داخلية » . وأشار بأصبعه إلى صدغه : « ستقع الحرب . والعدو يعمل ليل نهار هنا بيننا ، أيها الولد العجوز » لم يكن في مقدوري أن أجادله فيما يقول . غير أنى كنت أتعجب من « سكوبي » الجديد الذي يجلس أمامي كصورة في مجلة رديئة . « في استطاعتك أن تساعدنا في مباحثتهم والإجهاز عليهم ، أيها الرجل العجوز » . واستمر في حديثه بطريقة أمره مدمرة : « إننا نود أن نضمك إلى قوتنا » . وكان لهذه الجملة وقعاً أكثر قبولاً على نفسي . وانتظرت التفاصيل . قال الرجل العجوز في صوت له هدير وصرير : « إن أخطر العصابات جميعاً هنا ، في « الإسكندرية » ، وأنت في قلبها ، إنهم جميعاً أصدقاؤك » .

وفجأة رأيت في حاجبيه المعقودين وعينيهِ المضطربتين ، رأيت كاللمحة البديهية الخاطفة صورة « نسيم » ، وهو يجلس إلى مكتبه الضخم في الحجرة ذات الأنابيب الباردة المصنوعة من الصلب ، في انتظار مكالمة تليفونية بينما حبات العرق تتجمع فرق جبهته . كان يتوقع رسالة عن « جوستين » - وخزة أخرى من وخزات السكين ، وهز « سكوبي » رأسه وقال : « ليس هو على وجه التحديد . بالطبع إنه واحد من العصاة . الزعيم رجل يدعى « بلتازار » ... انظر ما عثرت الرقابة عليه » .

وأخرج بطاقة من أحد الملفات وناولها لي . إن خط « بلتازار » أنيق ، كان من الواضح أن الكتابة بخطه ، غير أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام عندما رأيت أن ظهر البطاقة البريدية لم يكن يحتوى إلا على تخطيط للوحة شطرنج بطريقة الخطوط المتعاقبة في اتجاهات متضادة . والحروف اليونانية تملأ المربعات الصغيرة . وقال « سكوبي » : « إنه يتمتع بوقاحة لاحد لها حتى أنه يرسل تلك البطاقات بالبريد المفتوح » . وفحصت التخطيط وحاولت أن أتذكر القليل الذي تعلمته من صديقي عن حساب التفاضل ، وأضاف « سكوبي » وهو يلهث : « إنه نظام القوة التاسعة . وأنا لا أستطيع قراءة تلك البطاقة . إنهم يجتمعون بطريقة منتظمة كي يجمعوا المعلومات . إننا نعلم هذا علم اليقين » . وأمسكت بالبطاقة البريدية بخفة بين أصابعي وبدا لي أنني أسمع صوت « بلتازار » وهو يقول « إن مهمة المفكر هو أن يقترح ، أمام عمل القديس فهو أن يلتزم الصمت إزاء ما يكتشف » .

وعاد « سكوبي » ليتكىء في كرسيه ، يغمره شعور ظاهر بالرضا عن نفسه . كان قد نفخ نفسه كحمامة ممثلة الحوصلة . وخلع طربوشه من فوق رأسه وتامله في حذب ولطف ووضعه فوق مفرش الشاي . ثم حك صلغته المشققة بأصابع ناتئة العظام واستمر يقول : « إننا في بساطة عاجزين عن فك الشفرة ، ولدينا العشرات من أمثال تلك البطاقة » . وأشار إلى ملف متخم بالنسخ

المتشابهة والتي تماثل تلك البطاقات : « لقد لفت كل الحجرات المختصة بحل الشفرات : حتى أساتذة الجامعة المقتدرين في الرياضة . ولكن بلا طائل ، أيها الرجل العجوز » .

ولم يثر هذا الأمر دهشتي . ووضعت البطاقة البريدية فوق كومة من مثيلاتها وعدت أتأمل « سكوبي » ، الذي قال وهو مقطب الجبين : « وهنا يجيء دورك ، إن شئت أن يكون لك دور ، أيها الرجل العجوز . إننا نود منك أن تفك الشفرة مهما استغرق هذا الأمر من وقتك وستنال ما يرضيك تماماً . فما قولك في هذا ؟ » .

ماذا في وسعي أن أقول ؟ لقد كانت الفكرة تبهج النفس ، وكان على المرء ألا يتركها تغلت منه . يضاف إلى ذلك أن عملي المدرسي خلال الشهور الأخيرة قد هبط كثيراً حتى أنني كنت متأكداً من أن عقدي مع المدرسة لن يجدد عند انتهاء المدة الحالية . كنت أصل على الدوام متأخراً بسبب لقاءاتي مع « جوستين » . ولم أعد أبالي بتصحيح أوراق الطلبة .

وأصبحت حاد الطبع مشاكساً مع زملائي ورؤسائي . هنا لاحظت لي الفرصة كي أعود سيد نفسي . وسمعت صوت « جوستين » يقول من داخل رأسي « لقد غدا حبناً كخطأ مخيف ورد في مثل شعبي » ، بينما كنت أميل إلى الأمام مرة أخرى وأنا أومئ برأسي ، وأطلق « سكوبي » أهة ارتياح وانسباط واستعداد شخصية القرصان مرة أخرى . وعهد بشئون مكتبه إلى شخص ما يدعى « مصطفى » كان من الواضح أنه يعيش في مكان ما داخل التليفون الأسود . كان « سكوبي » ينظر على الدوام خلال حديثه إلى بوق التليفون وكأنه ينظر إلى عين آدمية . وغادرنا المبني سوياً وحملتنا إحدى السيارات العسكرية نحو البحر . كان من الممكن مناقشة المزيد من التفاصيل عن وظيفتي حول زجاجة البراندی الصغيرة الموجودة في قاع حامل الفطائر إلى جوار سريره .

تركنا السيارة عند الكورنيش وسرنا معاً نقطع باقي الطريق في ضوء القمر الساطع العرييد ، نرقب المدينة القديمة وهي تتلاشي ثم تعود تلتئم من جديد فيما يرسمه ضباب المساء من أشكال ، مثقلة بصمت الصحراء التي تحيطها ، وخضرة الدلتا التي تغوص فيها حتى النخاع ، فتعطيها مالها من قيمة . وتحدث « سكوبي » عن غير هذا وذاك . إنني أتذكر أنه كان يندب يتمه منذ سن مبكرة - لقد قتل والداه معاً في ظروف مأساوية أمدته بمادة دسمة يمعن فيها فكره : « لقد كان والدي من رواد سباق السيارات الأول أيها الرجل العجوز . سباقات الطرق التي أقيمت في فترة مبكرة - كان ينطلق بسرعة عشرين ميلاً في الساعة . ويمتلك سيارة « لاندو » . التي أستطيع أن أراه الآن وهو جالس خلف عجلة القيادة بشاربه الكث . الكولونيل « سكوبي » ، لقد كان فارساً . وقد جلست أمي إلى جواره ، أيها الرجل العجوز . إنها لم تكن تتخلي عن جواره حتى في سباق السيارات . كانت تقوم بوظيفة الميكانيكي . وكانت الصحافة تأخذ لهما على الدوام صوراً في بداية السباق ، وهما يجلسان مرتديان أقنعة كتلك التي يلبسها أصحاب المناحل - والله يعلم لماذا كان الرواد الأول يرتدون مثل تلك الأقنعة الضخمة . ربما كان ذلك بسبب التراب . »

ولقد أثبتت تلك الأقنعة قدرتها على القتل . إذ بينما كان والده يجتاز منحني يستدير إلى الوراء في سباق على طريق « لندن - بريتون » القديم أمسك وشاح قناعه بالمحور الأمامي لعجلة السيارة التي كان يقودها ، فجذبه وألقاه في الطريق ، بينما اتجهت رفيقته رأساً لتصطدم بشجرة وتتهشم . « إن عزائي الوحيد أنه قد مات على النحو الذي كان يتمناه . فقد كانا يتقدمان غيرهما من المتسابقين بربع ميل . »

لقد كنت مغرمًا على الدوام بالميتات التي تحدث بطريقة هزلية ، ولذا ، وجدت صعوبة كبيرة في ضبط ضحكتي عندما كان « سكوبي » يصف تلك الكارثة وعينه الزجاجية تدور دورات شؤم ونحس . ومع ذلك فبينما كان

يتكلم وأنا أنصت لما يقول ، كانت نصف أفكارى تنطلق في خط مواز مشغولة بالوظيفة الجديدة التي سأقوم بها . أقيّمها بقدر الحرية التي ستمنحها لي . كنت سألتقي « بجوستين » في ساعة متأخرة من تلك الليلة قرب المنتزه . والسيارة الكبيرة تهر كفراشة في عتمة الطريق التي تطفئها أشجار النخيل . ماذا سيكون رأيها ؟ بالطبع سيههجهما أن ترانى وقد تحررت من قيود عملي الحالى . إلا أن جزءاً من أعماقها سيئن ألماً لفكرة أن هذه النجدة لن تخلق إلا مزيداً من الفرص كي نزداد التصاقاً ، كي نمضي في زيفنا ، كي نكشف عن أنفسنا لقضائنا أكثر من أى وقت مضى . هنا يكمن تناقض ظاهرى آخر من تناقضات الحب ، إن الشيء الذي يقربنا من بعضنا البعض - كالحركة المتعاقبة في اتجاهات متضادة - يكون على وجه الخصوص ، لو سيطرنا على الفضائل التي يصورها - هو مصدر فرقتنا إلى الأبد - أعنى يفرق نفسينا اللتين تغذت كل منهما بشراهة على خيال الأخرى الذي يسحر الالباب .

« وفي تلك الأثناء » كما كان يقول « نسيم » في تلك النبرات الرقيقة المفعمة بالرزانة المبهمة التي تحل بأصوات هؤلاء الذين أحبوا في إخلاص إلا أن حبيهم كان من جانب واحد « وفي تلك الأثناء كنت أعيش في قلب حالة من الاستفزاز تصيب المرء بالدوار ولا مخرج لى منها إلا من خلال عمل لم يكن في وسعي أن أدرك كهنه وطبيعته . كانت تنفجر في نفسي مشاعر هائلة من الثقة بالنفس تتبعها حالات من الاكتئاب عميقة إلى حد أنها كانت تبدو وكأنني لن أشفى منها البتة . وشعور غامض ينتابني بأنني أعد نفسي لمبارزة - وكما يفعل الرياضي - بدأت في أخذ دروس في اللعب بالسيف وتعلمت كيفية إطلاق الرصاص من مسدس جيب أوتوماتيكي . ودرست تركيب وتأثير السموم من كتاب صغير خاص بعلم السموم استعرتة من الدكتور « فؤاد بك » .

كان قد بدأ يرسى في أعماقه مشاعر تستعصي على التحليل وكانت تعقب الفترات التي يعيشها كالسكران فترات أخرى يحس فيها بثقل وحدته : وكان

هذا الشعور ينتابه للمرة الأولى . كان يعاني ألماً نفسياً داخلياً ، ومع ذلك فقد كان عاجزاً على أن يجد له متنفساً ، في الرسم أو في العمل . إنه يسلي نفسه الآن بأن يعود دائماً إلى باكورة حياته ، إلى تلك السنين المليئة بشعور مستقر بالثراء ، إلى بيت أمه الظليل وسط أشجار النخيل والزهور المكسيكية في « أبي قير » : حيث تصعد المياه وتنزلق بين طوابي القلعة القديمة ، إنه يجمع أيام طفولته المبكرة في مشاعر واحدة مركزة نابغة من ذكرياته المرثية . إنه يتشبث بهذه الذكريات في هلع ووضوح كما لم يحدث له من قبل . وهناك خلف ستار الكتابة العصبية ، عاشت طوال الوقت جرثومة التمزق عنيدة لا يمكن التحكم فيها . حيث إن العمل الذي فكر فيه حلاً لمشكلته لم ينته منه بعد ، إنه يرقد في أعماقه كعملية مضاجعة لم تكتمل . كان يبدو وكأن هناك من يحثه ، أن يتقدم أقرب وأقرب ولكن إلى ماذا بالتحديد ؟ لم يكن في وسعه أن يعرف ، إلا أن خوفه القديم من الجنون تقدم هنا وأمسك بتلابيبه ، وأخل بتوازنه الجسدى ، حتى أنه بدأ يعاني من نوبات دوار كانت تجبره على أن يتحسس ما حوله كالاعمى يبحث عن شيء يجلس عليه – مقعد أو كنبه . إنه يجلس وهو يلهث قليلاً ويحس العرق وقد بدأ يتصبب من جبينه ، غير أنه كان يحس بالارتياح لأن أحداً من العابرين لن يرى شيئاً مما يعانيه من صراع داخلي . إنه يكرر بصوت عال ، كما لاحظ هو ذلك الآن أيضاً ، جملاً يرفض عقله الواعى أن يستمع إليها . لقد سمعته « جوستين » ذات مرة يتحدث إلى نفسه في واحدة من مراهاته قائلاً : « حسناً ، إذن فانت تتردى في النورستانيا » .

ومرة أخرى فيما بعد سمعه « سليم » وهو جالس إلى عجلة قيادة السيارة ، بينما كان خارجاً إلى جو يغمره ضوء النجوم الزاهية وقد ارتدى ملابس المساء المتقنة التفصيل سمعه يضيف قائلاً : « أعتقد أن هذه الثعلبية اليهودية قد ألهمت حياتي » . وفي بعض الأحيان أيضاً كان مرعوباً إلى حد أنه كان يسعى ، إن لم يكن وراء من يقدم له يد العون ، فعلي الأقل وراء ما انقطع من اتصال

بالأكدميين الآخرين ، لقد وصف له أحد الاطباء دواء مقوياً من الفوسفور ونظاماً خاصاً بالغذاء إلا أنه رفض أن يتبع العلاج . وساقه منظر طابور من رهبان « دير الكرمل » وقد حلقت قمة رؤوسهم كالقردة الافريقية الضخمة ، وهم يعبرون شارع « النبی دانيال » إلى أن يجدد صداقته السابقة مع الاب «بول» الذي كان يبدو في الماضي رجل غاية السعادة يغلفه دينه كما يغلف الجراب الموسي . غير أن كلمات التعزية الشفوية التي كان يقدمها له الآن هذا البهيم المحظوظ ، السعيد ، مجذب الخيال ، قد ملأت نفسه بالتقزز .

وقد ركع ذات ليلة إلى جواره سريره - وهو شيء لم يفعله منذ كان في الثانية عشرة - وفرض الصلاة عمداً على نفسه . لقد ظل هناك لفترة طويلة ، ذاهل العقل ، مربوط اللسان بلا أفكار ولا كلمات تشكل نفسها في ذهنه . كان يتملكه شعوراً رادعاً مربحاً كما لو كان صدمة عقلية - وظل هناك كذلك حتى لم يعد يحتمل المزيد - حتى أحس أنه قد بلغ حد الاختناق . فقفز إلى سريره وسحب الأغشية فوق رأسه وهو يتمتم مزقاً محطمة من لعنات وابتهالات لا إرادية لم يكن يدرى أين مصدرها في نفسه .

ومع ذلك فإن مظهره الخارجي لم يحمل أى إشارة تنبئ عن هذه الصراعات ، فقد ظل حديثه جافاً موزوناً رغم حمى الأفكار التي تكمن وراءه . وقد مدحه الطبيب لما يعكسه من ردود فعل رائعة وأكد له أن بوله خال من أى نسبة زائدة من الزلال . كما أثبت الصداق الذي يصيبه ما بين حين وآخر بأنه ضحية توقعك بسيط - أو شيء آخر من تلك الأمراض المعتادة عند الاثرياء والكسالي .

لقد كان مستعداً من ناحيته أن يعاني كل هذا طالما ظلت المعاناة تحت سيطرة وعيه وإدراكه . لم يكن يخشى غير الشعور بالوحدة الكاملة ، كان يدرك عجزه عن إطلاع أى من أصدقائه أو الأطباء ، الذين يحتمل استدعاءهم

ليفحصوا تصرفاته الشاذة والتي لا يرون فيها غير أعراض اضطرابه ، على تلك الحقيقة .

لقد بذل جهوداً محمومة للعودة إلى الرسم ، ولكن دون جدوى . إن إحساسه بما يجري في أعماقه كان ينخر كالسم في الألوان ، فيجعلها فاترة مية . لقد كان عسيراً عليه حتى مجرد أن يعمل بالفرشاة وهناك يد خفية تشد ذراعه طوال الوقت ، تمنعه ، تهمس إليه ، تزيح بعيداً كل قدرات الحركة ، كل حريتها وانسيابيتها .

وعندما أحس أنه محاصر بهذا الغروب الذي يتهدد مشاعره ، اتجه مرة أخرى ، في محاولة يائسة لاستعادة اتزانه وسكينة نفسه إلى استكمال القصر الصيفي — كما كنا ندعوه من قبيل المزاح — إنه مجموعة من الأكواخ والاصطبلات العربية في « أبي صير » . فقد عثر نسيم منذ مدة طويلة بينما كان في رحلة على ظهور الخيل إلى « بنيغازى » ، على ثنية في الصحراء تبعد عن البحر أقل من ميل ، حيث ينفجر فجأة في قلب حزام الرمال نبع ماء صاف يتعرج قليلاً نحو الشواطئ المهجورة قبل أن تدركه كثبان الرمال وتخفقه . هنا زرع البدوى ، وقد تملكه ذلك الجوع التلقائي للخضرة الذي يرقد في أعماق كل عشاق الصحراء ، نخلة وشجرة تين تشبثت جذورهما بقوة بالحجر الرملى الراقد تحت الأرض والذي تنبع منه المياه النقية . وجلسوا يستريحون وخيولهم في ظل هاتين الشجرتين النضرتين .

وعين « نسيم » تمعن النظر عجباً في منظر القلعة العربية القديمة البعيدة ، والندية البيضاء الممتدة على الشاطئ الخالى حيث تتكسر الأمواج ليل نهار . لقد طوت كثبان الرمال نفسها في الجوار فغدت على شكل واد طويل كان خيال «نسيم» قد بدأ يصوره في الحال عامراً بأشجار النخيل وهي « تطلق » وبأشجار التين الخضراء التي ستلقى ، وهي المزروعة قرب المياه الجارية — ظلالاً وارفة حتى أنها تشبه قطعة قماش مبتلة تلتف حول الرأس ترطبها .

وترك تلك المنطقة تترعرع وتنضج في خياله لمدة عام . كان كثيراً ما يتوجه إليها على حصانه يدرسها في كل أنواع المناخ ، حتى تمكن من خصائصها . لم يخبر أحداً بها . غير أن فكرة بناء منزل صيفي يدخل السعادة على قلب « جوستين » كانت تكن في خلفية ذهنه . واحة مصفرة حيث يمكنها أن توفر اصطبلًا لجيادها الثلاثة العربية الأصيلة وتقضى أكثر مواسم العام حرارة تمارس هوايتها المفضلة ، السباحة وركوب الخيل .

حفر النبع ، وشقت منه قناة وتجمع الماء في حوض رخامي يشكل مركز الساحة ، التي رصفت بالحجر الرملي الخام ، والتي أقيم حولها المنزل والاصطبلات . وكلما ازدادت المياه زادت الخضرة بزيادتها ، وخلقت الظلال من نباتات الصبار ومن أدغال الذرة الهندية الكثيفة أشكالا مجردة ذات أشواك . وبمرور الزمن زرع حوض من البطيخ أيضاً - فبدأ كشيء نادر منفى من بلاد الفرس . وقد بنى اصطبل واحد موحش على النمط العربي يدير ظهره لرياح البحر الشتوية ، بينما أقيمت مجموعة من غرف الخزين وحجرات الجلوس على شكل حرف S ، غرف ذات نوافذ تغطيها شبكات حديدية «ودرف» من الحديد الأسود اللون .

حجرتان أو ثلاثة من حجرات النوم التي لا تزيد في حجمها عن حجم صومعة رهبان القرون الوسطى تفتح مباشرة في حجرة تتوسطها ، حجرة لطيفة مستطيلة منخفضة السقف تستخدم كحجرة استقبال وحجرة طعام في نفس الوقت ، ولقد أقيمت في أحد أطرافها مدفأة بيضاء كالكتلة وقد زخرفت حوافها بوحى من تصاميم الفسيفساء العربية . وانتصبت في الطرف الآخر من الحجرة منضدة حجرية ومقاعد حجرية تذكر المرء ببعض قاعات الأكل القديمة التي ربما كان يستخدمها رهبان الصحراء . وحدث السجاجيد الفارسية الفاخرة والصناديق الضخمة المحفورة والمحلة بماء الذهب الذي يتلوى فوق مشابكها الخطافية وجنبها الجلدية المصقولة ، من القسوة التي كانت عليها

الغرفة . كان كل شيء ينطلق بالبساطة المتعمدة التي تعكس أرقى أنواع البهاء والفخامة . وعلى الحائط الموحش المطلي باللون الأبيض والذي تقدم نوافذه المغطاة بالشبكات الحديدية مناظر فجائية طويلة ضيقة ورائعة للشاطئ والصحراء ، علقت بعض تذكارات الصيد القديمة أو الخاصة بالحياة في منطقة البحر المتوسط : رمح يحمل علماً عربياً مثلثاً طويلاً ، كاتب بوذي ، بضع رماح أفريقية في المنفى ، قوس كبير ما زال يستخدم في صيد الأرناب ، يبرق إشارة خاص بأحد اليخوت . لم تكن هنالك أية كتب سوى نسخة قديمة من القرآن مغطاة بالعاج ولها مشابك معدنية لامعة ، إلا أن عدة مجموعات من ورق اللعب كانت ترقد على حافة النوافذ ، وكان من ضمنها مجموعة من أوراق اللعب القديمة ، لهواة قراءة الغيب والمستقبل .

ومجموعة أخرى للعبة « العائلات السعيدة » . كذلك كان يوجد في أحد الأركان « سيموفار » قديم ليشبعا إدمانهما الوحيد - ألا وهو شرب الشاي . وسار العمل في ببطء وتردد ، غير أن « نسيم » في النهاية ؛ وقد عجز عن الاحتفاظ بصره أكثر من ذلك ، أخذ « جوستين » لتراه . وعجزت « جوستين » عن منع دموعها وهي تسير في داخله ، من نافذة إلى أخرى من نوافذ الحجرات الرشيقة ، إنها تلمح الآن بشكل خاطف صورة البحر الزمردى يتدحرج فوق الرمال ، إنها ترى على نحو فجائي صورة حلزونية للكثبان الرملية وهي تنزلق شرقاً نحو السماء . ثم جلست فجأة قبالة نار الأشواك وهي ما تزال في ردائها واستتمعت إلى دقات البحر الواضحة الرقيقة على الشطآن الطويلة مختلطة بصهيل وطرقات حوافر الخيل في مرابطها الجديدة خلف الساحة . كان ذلك في أواخر الخريف ، عند ما بدأ الذباب المضيء ينهش بعضه البعض في عنف في الظلام الرطب الذي أخذ يتجمع ، وغمرهما هذا المنظر بالسعادة وقد ظناً أن راحتهما قد بدأت ، لتدعم حياة أخرى غير حياتهما .

وكان على « جوستين » أن تكمل الآن ما بدأه « نسيم » . لقد جعلت الشرفة

القائمة تحت شجرة النخيل تمتد نحو الشرق ثم سورتها حتى تصد كثران الرمال التي لا تكف عن الانتقال ، والتي تحركها الريح الشتوية نحو الأمام ، فتغطي أحجار الساحة بست بوصات من الرمال . وأشجار العليق الدائمة الخضرة والتي تشكل حواجز تنكسر عليها الريح وتزود الأرض بطبقة نحاسية قائمة من أوراق الشجر المتعفنة والتي ستغدو على مر الأيام أرضاً صلبة تمد الشجيرات الصغيرة والكبيرة بما تحتاجه فيما بعد من غذاء .

كانت حريصة أيضاً على أن ترد لزوجها اهتمامه فقدمت له هدية تتصل بالفلك الذي كان يسيطر حينذاك على مشاعره . فقد أقامت في أحد أركان البناية المقامة على شكل حرف L مرصداً صغيراً يحتوى على تلسكوب يكبر الأشياء إلى ثلاثين ضعفاً . هنا كان يجلس « نسيم » في الشتاء ليلة بعد أخرى ، مرتدياً عباءته القيمة الحائلة اللون ، يحملق باهتمام في « الجوزاء » ، أو يهيم في كتب التقاويم التي تبحث في كل شيء يخص العالم وكأنه عراف من القرون الوسطى، هنا أيضاً كان في استطاعة أصدقائهم أن ينظروا إلى القمر أو يغيروا زاوية المنظار فيكشف لهم فجأة عن نفث كالدخان من سحب لؤلؤى يبدو أن المدينة كانت تطلقه على الدوام زفرات بعيدة .

وغدا كل هذا بالطبع في حاجة إلى حارس ، ولم تصب الدهشة « نسيم » أو « جوستين » عندما جاء « بانا يوتيس » وأقام في حجرة صغيرة للغاية إلى جوار الاصطبلات . إن هذا الرجل العجوز بلحيته التي تشبه المجرفة وعيناه اللتان تشبهان الخرز كان يعمل لعشرين عاماً مدرساً ثانوياً في مذهب . وتلقي المراسيم الدينية وأمضى تسعة أعوام في « دير سانت كاترين » في صحراء سيناء . كان من المستحيل أن يعرف المرء ما الذي جاء به إلى تلك الواحة فقد قطع لسانه في فترة ما من حياته الخالية من أية مغامرة . ولقد بدا من الإشارات التي كان يقوم بها رداً على الأسئلة التي وجهت إليه ، بأنه كان يقوم بالحج سيراً على الأقدام إلى ضريح « سانت ميناس » الصغير والموجود في الغرب ،

فوقع على الواحة في طريقه . وعلى أى حال فقد بدا الأمر وكأن قراره بالبقاء في الواحة لم يكن صدفة البتة ، كان ملائماً للمكان تمام الملاءمة ، وهناك أقام طوال العام كحارس وبستانى في مقابل أجر ضئيل . كان رجلاً صغير الجسم قوياً ، نشيطاً كالعنكبوت ، يغار بصورة مخيفة على نباتاته الخضراء التي تدين بحياتها لمثابرتة ورعايته . لقد كان هو الذي روض حوض البطيخ على الحياة وهو الذي نجح أخيراً في إغراء كرمة عنب بأن تبدأ نموها وتسلكها قرب البوابة الوسطى . كانت ضحكته غير واضحة « كقوقة » الدجاج ، وكان من عادته أن يخفي رأسه في حركة خجلة في الكم البالى لردائه الكنسي القديم . كانت ثرثرته اللبونية وقد حجزها عجزه تفيض في عينيه حيث تلمع وتراقص لأقل ملاحظة أو سؤال .

لقد بدا وكأنه يقول : « ماذا يستطيع المرء أن يطلب من الحياة أكثر من هذه الواحة إلى جوار البحر ؟ » .

حقاً ماذا يريد المرء أكثر من هذا ؟ لقد كان هذا هو السؤال الذي ظل « نسيم » يردده لنفسه بينما السيارة تثن وهي متجهة نحو الصحراء « وسليم » بلامحه التي تشبه ملايح الصقر يجلس بلا حراك إلى عجلة القيادة . كان الطريق ينحرف قبل القلعة العربية متجهاً إلى الداخل بعيداً عن الشاطئ ، وكان على المرء كي يصل إلى الواحة أن يحيد عن الطريق ويسير بحذاء كتبان رملية على صورة رقائق متبيسة كزالال البيض المضروب ، لامعة تشبه الميكا في المنجم ، وكانت العجلتان الأماميتان لتلك العربية المترنحة تجدان على الدوام ما ينقذهما من طبقة الحجر الرملى الهشة والتي تشكل العمود الفقري لكل ذلك الجبل الممتد إلى داخل البحر ، كلما همتا بأن تغوصا في الرمال . لقد كان مبهجاً أن يمر المرء هذا البحر من المواد الهشة البيضاء كقارب شراعي يبحر أمام ربح لاحقة .

كانت تجول بخاطر « نسيم » منذ فترة مضت - وكان هذا الاقتراح في

الأصل اقتراح « بورسواردن » - فكرة أن يجازى « بنايوتيس » العجوز على تقانيه ، بالهدية الوحيدة التي يمكن أن يفهما الرجل العجوز وأن يتقبلها : كان « نسيم » يحمل في تلك اللحظة في حقيقته اللامعة تصريحاً من بطريرك «الإسكندرية» يسمح له بأن يبني في منزله كنيسة صغيرة وأن يهبها « لسانت أرسينيوس » . ولقد تم اختيار القديس كما هي العادة بطريقة عشوائية . فقد عثرت « كليا » على أيقونة لهذا القديس منذ القرن الثامن عشر . كانت الأيقونة في حالة جيدة وراقدة بين ركام دكان في الموسكي « بالقاهرة » .

كانت تلك هي الكنوز التي أفرغها أمام عيني الرجل العجوز المتطلعتين الفلقتين . لقد استغرقا قدرًا من الوقت حتى جعلاه يفهم ما يريدان ، فقد كان يتابع العربية بفتور كما أن « نسيم » لم يكن يعرف اليونانية إلا أنه عندما رأى تصريح البطريرك ضم راحتيه معاً وطوح لحيته وهو يبتسم ، وبدا وكأنه أوشك أن يتعثّر تحت ثقل العواطف التي غمرته . لقد فهم الآن كل شيء . وأدرك لماذا كان « نسيم » يقضي تلك الساعات الطويلة يفحص الإسطنبول الأخير الخالي ويخطط على الورق . وهز يدي « نسيم » بحرارة وهو يصدر أصواتاً غير واضحة تشبه قوقة الدجاج . ومال إليه قلب «نسيم» وهو يحس شيئاً من الحسد الخبيث وقد رأى كيف فاض قلب الرجل بالسعادة لهذا العمل الذي يدل على الاهتمام به . ومن أعماق ظلام الأفكار التي ملأت رأسه أخذ يفحص رجل الكنيسة العجوز في عناية ، وكأنه بهذا التقصي الشديد يود أن يفاجئ بساطة قلب الرجل التي عادت عليه بالسعادة وراحة البال .

وفكر « نسيم » فيما بينه وبين نفسه ، هنا سأبنى على الأقل بيدي شيئاً ما ، شيئاً يحفظ على ثباتي وانتباهي - وأخذ يفحص راحتي اليوناني العجوز الجافتين بإعجاب الحاسد ، بينما كان يفكر كم من الوقت قتلت تلك الأيدي من أجل صاحبها ، وكم أراحته من التفكير . قرأ فيهما سنوات من النشاط الجسدي الملء بالعافية والذي غلق المنافذ أمام انطلاق الفكر وجرده من

التأمل. ومع ذلك ... فمن يدرى ؟ تلك السنوات الطويلة التي قضاهما في التدريس : وتلك السنوات في الدير . والآن يطبق الشتاء الطويل بوحده على الواحة ، حيث لا أنيس لأفكار المرء غير هدير البحر وانزلاق أمواجه وحفيف سعف النخيل وصوت اصطدامه ببعضه البعض ... وفكر « نسيم » بينما كان يمزج الاسمنت والرمل الجاف بعزم وتصميم في جرن خشبي ، « هناك على الدوام وقت تتأزم فيه الروح » .

إن « نسيم » لم يُترك وحيداً حتى في هذا المكان ، فقد جاءت « جوستين » ، وقد بدأ ينتابها شعور جنوني بالذنب نحو الرجل الذي أحبته ، ومع ذلك فإنها تحاول تحطيمه ، جاءت إلى منزلها الصيفي في الواحة ومعها ثلاثي خيلها العربية . لقد كانت رفيقة قلقة متقلبة المزاج متنمرة . وقد هربت لها - تحفزني أحزاني المرعبة التي خلفها غيابها في نفسي - رسالة أخبرها فيها بأن تعود إلى المدينة أو تقنع « نسيم » بدعوتى إلى القصر الصيفي . وجاءنى « سليم » بالسيارة في الوقت المناسب وقادنى في صمت متعاطف لم يجرؤ على أن يقحم فيه أقل مظهر من مظاهر الاندراء والتحقير .

أما من ناحية « نسيم » فقد استقبلنى برقة مدروسة ، والحقيقة أنه كان سعيداً وهو يرانا متلازمين مرة أخرى ، وهو يعزلنا عن إطار تقارير عملائه الزائف ، وأن يحكم بنفسه ما إذا كنا ... ماذا أقول ؟ « نحب بعضنا البعض ؟ » إن الكلمة تدل على شمول تفتقده عشيقتي التي كانت تشبه إلهة قديمة في أن سجاياها قد تكاثرت عبر حياتها ولم تتلخص في فضيلة واحدة من فضائل القلب يمكن للمرء أن يحبها أو لا يحبها . أما من الناحية الأخرى فإن حب « التملك » قوى غاية القوة : فقد كنا بشراً لا شخصيات كرتونية من شخصيات « برونتي » . غير أن اللغة الإنجليزية تفتقر إلى المعانى المتميزة والتي يمكن أن تعطينا (كما تفعل اليونانية الحديثة) كلمة تعبر عن الحب العاطفي .

وما خلا ذلك فقد كنت عاجزاً عن تهدئة مخاوف « نسيم » الداخلية : وذلك

بأن أخبره أن « جوستين » تفعل معى نفس الشيء الذي يثير الهم والذي نهجته على صفحات كتاب « الأرناؤوطي » ، فقد كنت جاهلاً بما تنطوى عليه أفكاره واتجاه تلك الأفكار . إن « جوستين » تثير في إرادتها رغبة ، تتغذى سراً على ذاتها ولذا لا بد لها أن تذبل كالصباح - أو تنطفئ . إنني لم أدرك هذا إلا بجزء من عقلي : غير أنني اكتشفت هناك ذلك الشيء الحقيقي الذي تفتقد إليه الرابطة التي بيننا . إنها لم تكن قائمة على أى صورة من صور الإرادة الحرة . ومع ذلك كم بدت طريقة حياتها ساحرة .. محظية تفيض فطنة وفتنة حتى أن المرء ليعجب كيف حدث وأحب من قبل وكيف قنع بما كان عليه الحبيب من صفات . ولقد دهشت في ذات الوقت إذ أدركت أن جزئى المرتبط « بميليسا » كان يعيش وجوده المستقل ، تعلق بها في هدوء وثقة . ولكنه لا يرغب في عودتها . وكانت الخطابات التي أرسلتها إلى مرحلة مليئة بالعواطف التي لا يشوهها أى ظل من التائب أو الرثاء لذاتها .

ورأيت في كل ما كتبت كيف ازدادت ثقتها بنفسها . لقد وصفت المصحة حيث كانت تقيم ، بطريقة لطيفة وعين مدققة ، وصفت الأطباء والمرضى الآخرين كما يصف المرء نزهة قام بها . لقد بدت على الورق وقد نضجت وغدت امرأة أخرى . وجاوبت رسائلها بقدر ما استطعت غير أنه كان من العسير على أن أخفي الارتباك الذي لا حيلة لي فيه والذي تسلط علي حياتي ، لقد كان من المستحيل وبنفس القدر أن أشير إلى انشغال بالى « جوستين » - كنا نتحرك عبر عالم مختلف من الأزهار والكتب والأفكار ، عالم غريب تمام الغرابة على «ميليسا» . إن الوسط الذي نعيش فيه ، لا افتقارها إلى الحساسية ، هو الذي أغلق أبوابه دونها . ولقد قالت « جوستين » ذات مرة « الفقر فاصل كبير ، والثراء مانع كبير » . إلا أن « جوستين » نالت تصريحاً بدخول العالمين ، عالم الحاجة وعالم الوفرة ، ولذا فقد كانت حرة في أن تحيا حياة طبيعية .

غير أن المرء هنا في الواحة يعيش على الأقل في وهم بالسعادة الفائقة التي

أفلتت منه في حياة المدينة . كنا نستيقظ مبكرين ونعمل في الكنيسة حتى تبدأ حرارة النهار في الاشتداد ، حينما كان يعتزل « نسيم » إلى أوراق عمله في مرصده الصغير ، ونمطلى أنا و « جوستين » الجياد نقطع كثبان الرمال المتوجة كالريش إلى البحر نقضي وقتنا في السباحة أو الحديث . وكان البحر على بعد ميل من الواحة قد أزاح كمية كبيرة من الرمال على هيئة دائرة صغيرة كونت بحيرة ضحلة المياه ، قام إلى جوارها كوخ من الغاب سقفه مغطى بأوراق الشجر ، وقد حشر في صدارة واحدة من الكثبان الرملية ، كوخ يستخدمه المستحم مكاناً يستظل فيه ويغير ملابسه . وقضينا في هذا المكان معظم النهار . وكانت أخبار موت « بورسواردن » ما زالت طازجة ، فتحدثنا عنه في حرارة ورهبة ، وكانما نحاول جادين تقييم شخصية حجت صفاتها طبيعتها الحقيقية . وكأنه بموته قد نفخ عنه شخصيته الأرضية وتقمص بعض الأبعاد المؤثرة الموجودة في كتاباته ، والتي كانت تترأى لانظارنا أكثر فأكثر بينما كانت ذكرى الرجل تذبذب وتتلاشي . لقد أمدنا الموت بأسس انتقادية جديدة وبأفق عقلي جديد لتقييم هذا الرجل المتعب اللامع ، عديم التأثير والفاعلية ، الممل في أغلب الأحيان والذي كان علينا أن نتعامل معه . إن أحداً لا يراه الآن إلا من خلال المرآة السحرية التي تعطى للإنسان أشكالاً مشوهة مضحكة أو من خلال طيف الذاكرة المعتم . ولقد كنت أسمع الناس تتساءل فيما بعد إذا ما كان « بورسواردن » طويلاً أم قصيراً ، إذا ما كان له شارب أم لا : لقد كانت تلك الذكريات البسيطة هي أشق الأشياء التي يمكن للمرء استعادتها والتأكد منها . إن بعض الذي يعرفونه جيداً قالوا إن عينيه كانتا خضراوين ، وقال آخرون إنها كانت بنية ... كم كانت غريبة تلك السرعة التي تلاشت بها الصورة الإنسانية في الصورة الأسطورية التي خلقها لنفسه في ثلاثيته « الله يحب الفكاهة » .

في تلك الأيام التي كان ضوء الشمس فيها يعيشى الأبصار ، تحدثنا عنه هنا ،

كاناس يتلهفون الإمساك بالذاكرة الإنسانية وتثبيتها قبل أن تغيم تمامًا في الأسطورة النامية ، كنا نتحدث عنه مؤكدين ومكرين ومقارنين ، مثل عملاء سريين يتدربون على إلقاء قصة يقصد بها الترميم والتغطية ، لأنه برغم كل شيء فإن هذا الإنسان المخطئ كان ينتمى إلينا ، أما ذلك الإنسان الأسطورة فإنه كان ينتمى إلى العالم . لقد عرفت الآن أيضًا أنه قال « لجوستين » ذات ليلة ، بينما كانا يتفرجان على « ميليسا » وهي ترقص « لو أنني اعتقدت بوجود أى أمل في نجاحي لعرضت الزواج عليها غدًا . إلا أنها جاهلة للغاية وقد شوه الفقر وسوء الطالع عقلها تشويهاً كبيراً حتى أنها سترفض طلبى فهي لن تصدقه » .

غير أن « نسيم » كان يتبعنا بمخاوفه خطوة خطوة . وجدت ذات يوم كلمة « حذار » ، وقد كتبت باللغة اليونانية بعضاً فوق الرمال في مكان الاستحمام . وأوحت الكلمة اليونانية بأن كاتبها هو « بنايوتيس » غير أن « سليم » أيضاً كان يجيد اليونانية .

وقد تدعم هذا التحذير الموجه إلى بحادثة وقعت فيما بعد ذلك بفترة قصيرة للغاية ، وذلك عندما ضللت الطريق إلى مرصد « نسيم » الصغير ، بحثاً عن فرخ من السورق كي أكتب عليه خطاباً « لميليسا » ، ونقبت فوق مكتبه من أجل ما أريد . فلاحظت أن ماسورة التليسكوب كانت موجهة إلى أسفل حتى أنها لم تعد تشير إلى السماء ، ولكن عبر كئبان الرمال حيث ترقد المدينة في أبعادها الضبابية تغلفها السحب اللؤلؤية . لم يكن هذا بالأمر الغريب ، إذ أن رؤية أعلى المآذن بينما الأجواء تتكثف وتتبدل أمراً مسلياً . وجلست فوق الكرسي ذى الأرجل الثلاث ووضعت عيني فوق المنظر ، حتى تلتئم أمامي صورة المنظر الذي كان يهتز ويرتعش ارتعاشة خفيفة . ورغم القاعدة الحجرية المتينة التي يقف عليها الحامل الثلاثي فإن قدرة العدسة العالية على التكبير والشبورة الدخانية الناشئة عن الجو بينهما قد جعلتا الصورة تهتز هزات تشبه الريش مما جعل المنظر يبدو وكأنه يتنفس في رقة وبلا انتظام . ودهشت عندما رأيت

الكوخ الصغير المصنوع من الغاب ، حيث كنت و « جوستين » مستقلين كل في ذراع الآخر نتحدث عن « بورسواردن » ، يرتعش ويقفز ورغم ذلك فإنه واضح تمام الوضوح وحزمة صفراء لامعة فوق الكتبان الرملية تكشف غلاف كتاب من كتب الجيب هو « الملك لير » كنت قد أخذته معي ونسيت أن أعيده ولو لم تكن الصورة ترتعش على هذا النحو لكان في وسعي دون شك أن أقرأ العنوان من على الغلاف . وحملت في تلك الصورة وأنا ألهم لفترة طويلة وغمرنى الخوف . لقد بدا الأمر لي ، وكان المرء في غرفة مظلمة ولكنه معتاد عليها وعلى يقين بأنه لا يوجد بها أحد ، وفجأة أحس بيد تمتد وتحط على كتفه . وغادرت المرصد على أطراف أصابعي وقد أخذت معي رزمة الأوراق والقلم وجلست فوق كرسي كبير مريح أتطلع إلى البحر ، وأنا أحس الحيرة ماذا أقول « لميليسا » .



لم يكن قد تقرر شيء في ذلك الخريف ، عندما أنهينا معسكرنا وعدنا إلى المدينة لنمضى فيها فصل الشتاء ، حتى مشاعر الازمة كانت قد تضاءلت . وهناك غرقنا جميعاً في الحل الضبابى لحياتنا اليومية والتي سيتبلور منها المستقبل مهما كانت المأساة التي تنتظرنا . لقد استدعيت كي أبدأ وظيفتي الجديدة مع «سكوبى» وحاولت بلا جدوى أن أصل تلك الخطوط الملعونة المتتابعة في اتجاهات متضادة والتي ظل «بلتازار» يعلمنى إياها بين أدوار الشطرنج . وأقر أننى حاولت أن أخفف من وقع هذا الأمر على ضميرى بأن أطلعت في أول الأمر ، العاملين في مكتب «سكوبى» على الحقيقة ... وهى أن «القبال» جماعة لا ضرر منها وهبت نفسها للفلسفة «الهرمزية» وأن نشاطاتها لا تمت إلى الجاسوسية بصلة . ولقد قيل لى بطريقة جافة رداً على هذا بأننى يجب ألا أصدق هذه القصة الواضحة الزيف لتغطية حقيقتهم . وعلى بدلا من ذلك أن أحاول حل الشفرة - وطلبوا منى تقارير تفصيلية كنت أمدهم

بها في حينه ، إذ كنت أكتب على الآلة الكاتبة أحاديث «بلتازار» عن «أمون» و«هرمز بريسمجستس» وأنا أحس بلذة المشاكسة ، متخيلاً وأنا أفعل ذلك ، موظفى الحكومة وهم منهمكون يخوضون خلال تلك المادة في البديرومات الرطبة على بعد ألف ميل . غير أنى كنت أكافأ مالياً ، وأكافأ بسخاء ، وغدوت لأول مرة قادراً على إرسال قدر قليل من المال إلى «ميليسا» وأن أقوم بمحاولة لاسدد ما تديننى به «جوستين» .

وكان ممتعاً ، أيضاً ، أن أكتشف مَنْ من معارفى عضواً عاملاً فى شبكة الجاسوسية تلك . لقد كان «منمجان» ، مثلاً ، واحداً من الشبكة ، وكان دكانه مركزاً لمراجعة أعمال الجاسوسية العامة الخاصة بالمدينة . كان اختياراً يثير الإعجاب . وكان «منمجان» يؤدى عمله بحذر وبصيرة هائلتين ، كان يصر على أن يطلق لى ذقنى دون أجر ، ولقد حز فى نفسى عندما علمت فيما بعد بفترة طويلة أنه كان ينسخ فى صبر وأناة ثلاثة نسخ من الملخصات التى كان يعدها من أعمال التجسس وأنه كان يبيعها لهيئات الجاسوسية الأخرى .

وكان هناك جانب آخر ممتع فى هذا العمل ، فقد كان للعضو منا سلطة الأمر بشن غارة تفتيشية على منزل أحد الأصدقاء . ولقد استمتعت كثيراً عندما أمرت بتفتيش شقة «بومبال» . لقد كان لهذا الزميل البائس عادة مشثومة وهى أن يحضر معه إلى المنزل ملفات القنصلية ليعمل بها مساء . ولقد وقعت فى أيدينا مجموعة كاملة من الأوراق بعثت البهجة فى نفس «سكويى» فقد كانت تحتوى على مذكرات تفصيلية عن النفوذ الفرنسى فى «سوريا» ، وقائمة بأسماء عملاء «فرنسا» فى المدينة ، وقد لاحظت اسم «كوهين» تاجر الفراء العجوز فى واحدة من تلك القوائم .

وهزت هذه الغارة التفتيشية «بومبال» هزة عنيفة ، فظل لما يقرب من شهر بعد ذلك يتلفت خلفه وهو يسير ، كان مقتنعاً بأن هناك من يراقبه وروج لفكرة متهوسسة وهى أن البعض قد رشى «حميد» الأعور ليقضه بالسم ، ولم يعد

يقرب الطعام المطبوخ بالمنزل إلا بعد أن أتذوقه أنا أولاً . كان لا يزال في انتظار ترقيته ونقله ولذا كان شديد الخوف من أن يفقد الملفات قد يؤثر على كليهما . غير أننا تركنا أغلفة التبويب عن عمد فغداً في مقدوره أن يعيدها إلى تتابعها مع مذكرة يقول فيها إن الملفات قد حُرقت «طبقاً للتعليمات» .

وقد حقق أخيراً نجاحاً غير قليل خلال حفلات «الكوكتيل» التي كان يخرجها في عناية - والتي كان يقدم فيها من حين لآخر ضيوفاً من مجالات الحياة الفقيرة كالبغايا والفنانات . غير أن نفقات تلك الحفلات والعجز الذي كانت تثبire كان عذاباً شديداً الألم . إننى أتذكره وهو يشرح لى ذات مرة ، وفي صوته رنة شقاء ، أصل تلك الحفلات : «إن حفلات «الكوكتيل» - كما يدل اسمها عليها - قد اخترعتها الكلاب في الأصل . إنها في بساطة ارتفاع بعملية الشمشمة السفلية إلى مرتبة الحفلات الرسمية» . ورغم ذلك فقد واطب على إقامة مثل تلك الحفلات ، التي كوفئ عليها بأن أسبغ القنصل العام رعايته عليه ، ورغم احتقار «بومبال» لهذا القنصل العام فإنه كان ينظر إليه بخوف يليق بالأطفال . لقد نجح «بومبال» في إغراء «جوستين» ، بعد كثير من الاستعطاف الذي يثير الضحك ، كى تظهر في إحدى تلك الحفلات لتعضد خططه فى أن ينال الترقية . ولقد أعطتنا هذه الحفلات فرصة لدراسة «بوردر» وحلقة الدبلوماسيين الصغيرة «بالاسكندرية» - وكان الانطباع الذى تركه القسم الأكبر من هؤلاء الناس هو أنهم قد طليوا بالفرشاة . كم بدت لى شخصياتهم الرسمية شاحبة ومشتتة .

كان «بوردر» نفسه وهماً أكثر منه رجلاً . لقد ولد ليكون الشخصية التى يسخر منها رسام هزلى . كان له وجه شاحب طويل يحمل تقاطيع شخص مفسد ، تزيينه رأس فاخرة ذات شعر فضى تعود أن يصطنعه بنفسه ، إلا أنها كانت ملامح خادم تابع . إن زيف إيماءاته (واهتمامه وصدافته المبالغ فيها لأبسط المعارف) كان له وقع منفر مكننى من أن أفهم معنى الشعار الذى

وضعه صديقي للسلك الفرنسي الخارجي وكذلك العبارة التي أخبرني ذات مرة بضررة وضعها على ضريح رئيسه (لقد كان خلاصه في كونه وسطاً بين الجيد والردئ) . لقد حدث كل هذا بالطبع منذ سنوات قبل أن يشتهر «بوردر» بمفاوضاته من فوق الأسطول الفرنسي . ومع ذلك فإننى لا أستطيع أن أصدق أن ذلك الشخص ، كما عرفته ، قد أصابه أى تغيير : كانت شخصيته هزيلة نحيلة كقشرة من صفحة ذهبية سمكها غاية في الرقة — إنها قشرة التهذيب التي يكتسبها الدبلوماسيون بما يتميزون به عن غالبية الرجال .

ونجحت الحفلة إلى حد الكمال ، ودعا «نسيم» الدبلوماسى العجوز إلى الغداء فطغى عليه سرور مفرط لا ادعاء فيه ولا تصنع . فقد كان معروفاً أن الملك كثيراً ما يحل ضيفاً على مائدة «نسيم» وكان العجوز قد أخذ يكتب بالفعل رسالة في ذهنة تبدأ بالكلمات التالية . «بينما كنت أتغذى مع الملك في الأسبوع الماضى أدرت الحديث إلى السؤال ... فقال ... وأجبته ...» وأخذت شفتاه تتحركان ، وعيناه تزوغان أمام المحتفلين في واحدة من نوبات السبات التي اشتهر بها والتي كان يستيقظ منها بغتة ويفاجئ محدثيه بابتسامة اعتذار بلهاء كابتسامة سمكة البكالا ه .

ومن ناحيتي فقد وجدته أمراً غريباً أن أزور من جديد الشقة الصغيرة التي تشبه الحوض حيث أمضيت قرابة عامين من حياتي ، لأتذكر أنه في هذا المكان ، وفي هذه الحجرة بالذات ، التقيت «بميليسا» لأول مرة . لقد أجريت فيها تغييرات كبيرة على يدى آخر محظيات «بومبال» . فقد أصرت على أن تُكسى جدرانها بالأخشاب وتُطل باللون الأبيض وتزين بحواف من ألواح مدهونة باللون اللبني القرمزى . وأعيد تنجيد المقاعد القديمة ذات المساند ، والتي كان حشوها يتساقط في بطء في مزق من جوانبها ، أعيد تنجيدها بالدمقس الثقيل المحلى برسوم زهور الزنابق بينما الكنبات الثلاث البالية قد أزيجت تماماً لتغطى المكان إتساعاً . لا بد أنها بيعت أو حطمت . وتذكرت فقرة من شعر الشاعر

الشيخ : « في مكان ما ، لا بد وأن تلك الأشياء البالية البائسة ما زالت تنبض » .
كم تحقد الذاكرة ، وكم تمسك في مرارة بالمادة الخام التي تستخدمها في عملها
اليومي .

وأصبحت غرفة نوم «بومبال» الهزيلة تشبه بصورة غامضة غرف أواخر
القرن الماضي وكانت نظيفة كحلية جديدة . وربما وافق «أوسكار وايلد» على
استخدامها منظرأ في خاتمة الفصل الأول لإحدى تمثيلياته . لقد عادت حجرتي
كما كانت من قبل حجرة مخزن ، غير أن السرير كان ما يزال قائماً هناك إلى
جوار الحائط قرب البالوعة الحديدية . واختفت الستائر الصفراء بالطبع
واستبدلت بقطعة من القماش الأبيض القذر . ووضعت راحتي على الهيكل
الحديدي الصديء للسرير القديم قطعنتني حتى الأعماق ذكرى «ميليسا» وهي
تستدير بعينيها الصريحتين الصافيتين نحوى في ضوء الحجرة الصغيرة
المعتم . ولقد خجلت ودهشت من حزنى هذا . وعندما دخلت «جوستين» الغرفة
خلفي ركلت الباب فأغلقتة ، وللحال بدأت أقبل شفيتها وشعرها وجبهتها ،
وأعصرها بين ذراعى حتى تكاد تلهث ، وإلا فاجأتني والدموع في عيني . لكنها
أدركت الأمر في الحال ، وبادلتنى القبلات بحمية مذهلة لا تسبغها على
تصرفاتنا غير الصداقة وحدها . وتمتمت قائلة «إننى أعرف ، إننى أعرف» .

ثم خلصت نفسها منى في رقة وقادتني خارج الحجرة وأغلقت الباب خلفنا.
وقالت في صوت منخفض : «يجب أن أطلعك على شىء يخص «نسيم» . استمع
إلى . ففى يوم الأربعاء ، اليوم السابق على مغادرتنا القصر الصيفى ، خرجت
على ظهر الجواد في نزهة بمفردى قرب البحر . كان هناك سرب كبير من طيور
النورس فوق الشاطئ ، وفجأة رأيت السيارة عن بعد تتدحرج وتحبو عبر
الكتبان الرملية نحو البحر ، و«سليم» جالس إلى عجلة القيادة . لم أستطع تبين
ما يفعلان . كان «نسيم» جالساً في المقعد الخلفى . واعتقدت أن العربية لا محالة
غائصة في الرمال ، ولكن كلا ، لقد إنطلقا نحو المياه حيث الرمال متماسكة

وأخذا يسرعان على طول الشاطئ نحوى . لم أكن على الشاطئ ولكنى كنت في تجويف يبعد قرابة خمسين ياردة من البحر . وبينما يسرعان ليصبحا في محاذاتى ، وبينما طار سرب النورس ، رأيت «نسيم» وهو يحمل في يديه بندقيته القديمة عديدة الطلقات . ثم رفعها وأطلق النار مرة أخرى على سرب النورس ، الذى كان كالسحابة حتى أفرغ مخزن البارود . وسقطت ثلاثة أو أربعة منها إلى البحر وهى ترفرف ، غير أن السيارة لم تتوقف . وعبرا في لمح البصر . لابد أن هناك طريقاً للعودة يمتد من الشاطئ الطويل إلى الحجر الرمل وهكذا يعود مرة أخرى إلى الطريق الرئيسى ، لأننى عندما عدت ممتطية جوادى بعد نصف ساعة ، وجدت أن العربية قد عادت . و«نسيم» فى مرصده . كان الباب مغلقاً وقال إنه مشغول . وسألت «سليم» عن معنى هذا المشهد غير أنه من كتفيه فى بساطة وأشار إلى الباب الذى يجلس «نسيم» خلفه . وكان كل ما قاله : «لقد أعطانى الأوامر بذلك» . غير أنك لو كنت قد رأيت ، يا عزيزى ، وجه «نسيم» وهو يرفع البندقية ...» وإذ هى تفكر فى منظره رفعت أصابعها الطويلة بصورة تلقائية إلى وجنتيها وكأنها تعدل تعبير وجهها وقالت : «لقد بدا كمن أصابه الجنون» .

وفى الحجرة الأخرى كانوا يتكلمون بتأدب فى أحداث العالم السياسية ، وعن الحالة فى «المانيا» . كان «نسيم» قد حط فى رشاقة إلى جوار «بوردر» على كرسيه وكان «بومبال» يبتلع تتأو به الذى ظل يعاوده بطريقة مزعجة للغاية فى صورة كرمات متتالية . وكان عقلى ما يزال مشغولاً ب«ميلييس» . لقد أرسلت لها مبلغاً من المال فى ذلك الأصيل ، وكنت أحس بالدفء وأنا أفكر فيها تشتتت لنفسها بهذا المبلغ شيئاً من الملابس الأنيقة ، أو حتى تنفقه بطريقة حقا . كان «بومبال» يتحدث بطريقة تمثيلية إلى امرأة متقدمة فى السن تبدو كجمل تاب عن أاثامه . النقود . يجب أن يتأكد المرء على الدوام من وجود مصدر يمد به . لابد أن المدام تعرف المثل العربى القائل : «الغنى يشتري الغنى ، أما الفقر فيشتري بالكاد قبلة أبرص» .

وقالت «جوستين» : «هيا بنا» . وأدركت وأنا أنظر عينيها الداكنتين الدافئتين — بينما كنت أودعها — أنها تكهنت بأن رأسى مشغول تماماً فى تلك اللحظة «بميليسا» ، ولقد أعطى هذا الإدراك ليدها وهى تصافحنى مزيداً من الدفء والمشاركة الوجدانية .

واعتقد أنه فى تلك الليلة ، بينما كانت ترتدى ملابس العشاء ، جاء «نسيم» إلى غرفتها ، وتوجه بالحديث إلى صورتها فى المرآة التى تشبه المجرفة . قال فى حزم : «جوستين» ، لابد لى أن أسالك ألا تظنى بى الجنون أو أى شىء آخر يماثله ولكن — هل كان «بلتازار» فى يوم من الأيام أكثر من صديق لك؟ كانت «جوستين» تضع حلقة ذهبية على صورة حشرة مجنحة فى حلمة أذننها اليسرى ، فنظرت إلى أعلى إليه لفترة طويلة قبل أن تجيب بنفس لهجته : «كلا ، يا عزيزى» .

«شكراً» .

وبطلق «نسيم» فى صورته فى المرآة لفترة طويلة بثقة وترقب ثم تنهد وتناول من جيب صدريته التى يلبسها مفتاحاً صغيراً ذهبياً على شكل «عنخ» رمز الحياة عند المصريين القدماء ، وقال فى خجل شديد : «إننى فى بساطة لا أستطيع أن أعرف كيف وصل هذا المفتاح إلى حوزتى» . ومد لها يده بالمفتاح كى تراه . لقد كان مفتاح الساعة الصغير الذى سبب فقده كثيراً من القلق «لبلتازار» وحملت فيه «جوستين» ثم فى زوجها بشىء من الانزعاج وقالت : «أين كان؟»

«فى علبة الأزرار» .

واستمرت «جوستين» فى إتمام زينتها ولكن بخطى أبطأ ، وهى تنظر فى دهشة إلى زوجها الذى كان من ناحيته يتمعن تقاطيعه بنفس التدقيق العاقل المتأن : «يجب أن أجد وسيلة أعيده بها إليه . ربما سقط منه فى أحد الاجتماعات غير أن الشىء الغريب هو ...» وتنهد مرة أخرى : «إننى لا أتذكر» لقد كان

واضحاً لكل منهما أنه قد سرقه . واستندار «نسيم» على عقيقه وقال :
«سأنتظرك في الطابق الأسفل» . وعندما أغلق الباب خلفه في رقة فحصت
«جوستين» المفتاح الصغير في فضول .



في هذا الوقت كان «نسيم» قد بدأ يعيش تلك الدورة من الأحلام التاريخية ،
والتي حلت في عقله الآن محل أحلام صباه ، وألقت المدينة بنفسها في غمار
أحلامه تلك — وكأنها قد عثرت أخيراً على شيء إيجابى تعبر من خلاله عن
رغباتها الجماعية التي كانت تنبئ عن ثقافتها . كان يسهر ليرى الأبراج والمآذن
مطبوعة فوق السماء المرهقة المعفرة بتراب ناعم ، يراها وكأنما قد لصقت عليها
البصمات العملاقة لأقدام الذاكرة التاريخية التي تكمن وراء الذكريات
الشخصية للفرد ، لتكون الوجه والمرشد ، والمبدع الحقيقى ، حيث إن الإنسان
ليس إلا امتداداً لروح المكان .

ولقد أزعجته تلك الأحلام ، لأنها لم تكن بأى حال من الأحوال أحلام الليل ،
لقد غطت الحقيقة واحتوتها ، وأعاقت عقله اليقظ ، وكان غشاء وجدانه قد
تمزق فجأة في أماكن عدة ليسمح لها بأن تعبر وتتمر .

وانتابته جنباً إلى جنب مع تلك التراكيب الخيالية العملاقة — والتي تمثلت في
معارض، عصور على النمط التقليدى لفن المعمار في القرن السادس عشر
استنبطها من قراءته وتأمله في ماضيه الخاص وماضى المدينة — إنتابته نوبات
متزايدة الحدة من شك لا يستند إلى العقل ضد «جوستين» التي لم يكن قد
تعرف عليها من قبل إلا نادراً ، «جوستين» الصديقة المواسية والعاشقة
المتفانية . كانت تلك النوبات لا تستمر إلا لفترة قصيرة ولكنها كانت من العنف
بحيث أنه ، وهو يعتبرها عن حق الوجه الآخر للحب الذى يحسه نحوها ، بدأ
يخاف من الحلاقة في الحمام الأبيض القاحل كل صباح . وكثيراً ما لاحظ

الحلاق الصغير وهو ينثر فوطته البيضاء في صمته فوقه ، وجود الدموع في عيني زبونه .

ولكن بينما احتلت أحلام الماضي الجزء الأمامي من عقله كانت أشخاص أصدقائه ومعارفه ، حقيقة ملموسة ، تسير جيئةً وذهاباً بين تلك الأحلام ، بين انقراض «الإسكندرية» التقليدية ، وتحتل في الماضي فترة زمنية تثير الحيرة وكأنها أشخاص حقيقية ذات شأن . وعكف «نسيم» في جد واجتهاد ككاتب أمين على تسجيل كل ما رآه وما أحسه في يومياته ، مصدرراً أوامره «لسليم» ، الذي لا يؤثر فيه شيء ، بأن ينسخها له على الآلة الكاتبة .

لقد رأى «الموسوية» ، مثلاً ، بفنائها المتجهمين الذين أمدوا بالمال بسخاء ، ينقشون لوحة تذكارية لمؤسسيها : ورأى فيما بعد أن الفليسوف من بين المتوحدين والحكماء يتمنى في صبر وأناة أن يغدو العالم دولة خاصة محرمة لا جدوى منها لأحد سواه - حيث إنه في كل مرحلة من مراحل التطور يلخص كل رجل ، الكون جميعه ، ويجعله ملائماً لطبيعته الداخلية : بينما يخصب كل مفكر ، وتخصب كل فكرة الكون من جديد .

وتمتعت له النقوش المدونة فوق رخام المتحف عندما مر بها وكأنها شفاه تتحرك . كان «بلتازار» و «جوستين» في انتظاره هناك . وكان قد قام لرؤيتهما ، وأذهله ضوء القمر وظلال صفوف الأعمدة وقد بللها الماء . كان في وسعه أن يسمع صوتيهما في الظلام ، وأخذ يفكر ، بينما أطلق صغيراً خائفاً كانت تميزه به «جوستين» دائماً ، إنها لمسألة مبتدلة من الناحية الفكرية أن يقضى الإنسان وقته وثقاً أشد الوثوق في المبادئ الأولية كما يفعل «بلتازار» . وسمع صوت الرجل الذي يكبره سناً وهو يقول : «والأخلاق لا شيء إن كانت مجرد شكل مظهرى للسلوك الطيب» .

وسار عبر الأقواس متجهاً نحوهما في ببطء . وخطط ضوء القمر والظلام الأحجار الرخامية فبدت كالحمار الوحشى ، كانا يجلسان فوق غطاء تابوت

رخامى ، بينما كان «بورسواردن» يسير جيئةً وذهاباً يصفر نغماً من ألحان «دونيزتى» فى مكان ما فى ظلام الفناء الخارجى القائم كالقلب المتحجر . وتحولت «جوستين» بحليتها الذهبية التى فى أذنيها ، تحولت فى ناظره إلى واحد من أحلامه فأراها و«بلتازار» ، رؤى كأنها الحقيقة ، وهما يرتديان بطريقة مبتذلة رداءين نحتهما ضياء القمر نحتاً عميقاً . وكان «بلتازار» يقول فى صوت عذبه التناقض الظاهرى الذى يكمن فى قلب كل دين : «بالطبع فإن التبشير بالإنجيل على نحو ما يعتبر عملاً شريعياً ، هذه واحدة من سخافات المنطق الإنسانى . ليس الإنجيل على الأقل هو الذى يورطنا مع قوى الظلام ولكنه التبشير الذى يفعل ذلك . لهذا فإن «القبال» مفيد للغاية لنا . إنه لا يضع أيّاً من القواعد أكثر من علم اليقظة الصحيحة» .

وأفسحت «جوستين» و«بلتازار» له مكاناً فوق مقعدهما الرخامى ، غير أنه هنا أيضاً وقبل أن يصل إليهما اختلطت عليه الرؤيا ، وتداخلت بقوة مشاهد أخرى ، دون اعتبار لترابطها ، والوقت الذى يراها فيه ، ودون اعتبار للزمن التاريخى والاحتمالات العامة لحدوثها .

إنه يرى فى وضوح تام الضريح المقدس الذى بناه الجنود المشاة للآلهة «إفروديت» ... الحمام ... على ذلك الشاطئ المهجور الذى يغطيه الطمى . لقد كانوا جوعى . ودفعهم طول السير إلى أقصى حدود الاحتمال ، وبرز شبح الموت الذى يسكن أعماق كل جندى بصورة حادة حتى تراءى لهم فى دقة ووضوح غير محتملين . فدواب الحمل تنفق لقلّة العلف ، والرجال يموتون لنقص المياه . إنهم لم يجرؤا على الوقوف عند الآبار والينابيع المسمومة . والحمر البرية تتسكع حولهم بطريقة تثير الغيظ إذ أنها أبعد من مرمى سهامهم . إنها تصيبيهم بالجنون لما كانوا يتوقعونه من لحمها الذى لن ينالوه طالما أن الطابور يتقدم منتشراً عبر الحفر المتناثرة لذلك الشاطئ الشائك . كان عليهم أن يسيروا قدماً إلى المدينة رغم النبوءات والنذر . وسار المشاة عرايا رغم

إدراكهم أن هذا عمل جنونى . وقد تبعتهم أسلحتهم فى عربات كانت على الدوام متأخرة . وقد ترك الطابور خلفه الرائحة الحامضة لأجساد لم يمسسها الماء – رائحة العرق وبول الثيران : رماة المقاليع المقدونيين «يظربون ويفسون» كالماعز .

وكان أعداؤهم يتمتعون بأناقة تبهر الأنفاس – فرساناً فى دروعهم البيضاء التى كانت تبدو وتختفى عبر طريق مسيرتهم كالسحب . يراهم المرء عن قرب فيجدهم رجالاً يرتدون العباءات الأرجوانية وصديريات مطرزة وسراويل حريرية ضيقة . ويضعون سلاسل ذهبية حول أعناقهم السمرء ، وأساور حول أذرعتهم التى تحمل النبال . كان المرء يشتهيهم كما يشتهى سرباً من النساء . أصواتهم عالية وفتية . أى تناقض كانوا يشكلون مع رماة المقاليع ، رجال الطابور المدربين الأشداء والذين لا يعرفون إلا أيام الشتاء التى تجمد صنادلهم فى أقدامهم ، أو أيام الصيف التى يبیس عرقها جلد الصنادل تحت أقدامهم حتى يغدو فى صلابة الرخام . إن غنائم الذهب ، وليست العاطفة ، هى التى جعلتهم يلتحقون بهذه المغامرة التى يتحملونها فى صبر وأناة أولئك الذين ينالون أجرهم بكدهم . وغدت الحياة الخالية من الجنس كسير من جلد يغوص فى أعماق الجسد . كانت الشمس قد لفحتهم وحرقتهم ثم داوتهم وشفقتهم وحبس الغبار أصواتهم وغدا من العسير عليهم وقد اشتدت حرارة الشمس أن يرتدوا خوذاتهم المزدانة بريش الشجاعة والتى خرجوا بها لغزوتهم – وأفريقيا التى تراءت لهم امتداداً لأوروبا – امتداداً للحدود ولماض معين – قد أكدت نفسها لهم كشئ مغاير لما تخيلوه عنها : ظلمة منكرة حيث يسابق نقيق الغربان الصرخات الجافة لرجال خارت منهم العزائم ، والضحك بمقدار كمهماتهم أطفال القردة الإفريقية .

كانوا يأسرون فى بعض الأحيان أحد الأشخاص – رجلاً وحيداً خائفاً خرج يصطاد الأرنب – وكانت تصيبيهم الحيرة عندما يجدون أنه آدمى مثلهم . كانوا

يجردونه من أسماله ويحملون في أعضائه التناسلية باهتمام من يتقن عملاً لا يفهمه . وفي بعض الأحيان كانوا ينهبون إحدى الأبروشيات أو عقارات الأثرياء من عند سفوح التلال ، ويتغذون بلحم الدلفين المحفوظ في الجرار (جنود سكارى يحتفلون في جرن بين الثيران ، يتطوحن ، يرتدون أكاليل من أوراق نبات برى حاد الأطراف ، ويشربون من أكواب ذهبية أو مصنوعة من قرن الحيوان وقد وقعت غنيمة في أيديهم) كل هذا كان قبل أن يبلغوا الصحراء ... وعندما تداخلت الطرق قدموا القرايين «لهرقل» (واغتالوا الحارسين في نفس الوقت ، حتى يضمّنوا السلامة لأنفسهم) . ولكن منذ تلك اللحظة سار كل شيء في الطريق الخاطئ . كانوا يعرفون دون أن يجهروا بأنهم لن يصلوا المدينة أبداً ، وأنهم لن يستولوا عليها . وأنت أيها الإله ! لا تدع الشتاء الذي قضاه الجنود عرايا في التلال بلا خيام ، يتكرر مرة أخرى . لقد أكل الصقيع الأصابع والأنوف! والغارات ! إنه ما يزال يسمع ضمن ما تعيه ذاكرته من ذكريات ، صوت وقع أقدام الحارس وهي تقرقش وتعصر الجليد طوال الشتاء . لقد كان الأعداء في تلك المنطقة يرتدون فوق رؤوسهم جلد الثعالب والهوامات الكاسرة ، والصيديريات الطويلة التي تغطي سيقانهم . كانوا صامتين ينتمون بصورة فريدة — كما تنتمي الخضرة حولهم — إلى تلك الوهاد الحادة والممرات التي تكونها الخطوط الفاصلة الهائلة بين وديان الأنهار التي تقطع الأنفاس .

وغدت الذاكرة ، مع سير الطابور ، أداة تصنع الأحلام التي تجمعها الشرور السائدة في طائفة من الأفكار القائمة على الحرمان . لقد كان «نسيم» يعرف أن الرجل الهادئ هناك ، إنما يفكر في الوردة التي عثر عليها في سريرها يوم الاستعراض الرياضي . وأن الآخر لا يستطيع أن ينسى الرجل ذا الأذن المقطوعة . أما طالب العلم المتأفف والذي أجبر على الخدمة العسكرية فإنه يحس أن المعارك قد أصابته ببلادة الفكر فغدا كالمبولة في حفل سكر على الطريقة

اليونانية القديمة . وذلك الرجل البدين براثحته الغريبة كرائحة الأطفال :
وصاحب النكتة الذى جعل طليعة الجيش تهدر بالضحك من قفشاته . كان
يفكر فى مزيل جديد للشعر من مصر ، فى سرير علامته التجارية «هرقل» دليل
النعومة ، فى حمام بيضاء مقصوصة الأجنحة ترفرف حول مائدة الولائم .
لقد كان يقابل طوال حياته بالضحك الصاخب وتحيات الشباب عند أبواب
المواخير . وكان هناك آخرون يحلمون بمتع أقل شيوعاً من تلك المتعة - يحلمون
بأن يعفروا رؤوسهم بالأسبيداج ، أو بالتلاميذ وقد ساروا فى الفجر عرايا فى
طابور كل اثنين متجاورين متجهين إلى مدرسة معلم القيثارة عبر الثلج
المتساقط الكثيف كالدقيق . واحتفل العوام فى الريف «بديونيس» حاملين
صورة جلدية ضخمة لعضو التذكير رمز التناسل وهم يزمجرون ، ولكنهم ما
أن اطلعوا على الطقوس حتى أخذوا ملح التقديم وصورة الرمز فى صمت
مرتجف . وتكاثر أحلامهم فى أعماق «نسيم» ، الذى ما أن سمعهم حتى فتح
طريق الذاكرة أمام وجدانه ووعيه فى مهابة وعظمة كما يفتح المرء شارعاً
رئيسياً .

لقد كان غريباً أن يتجه إلى جوار «جوستين» فى ضوء القمر الخريفى
الأسمر النحاسى عبر ذلك المد اللويل من الذكريات : وأحس بأن كيانه المادى
يزيح أحلامه بما له من وزن ثقيل . وتحرك «بلتازار» ليفسح له مكاناً وهو ما
يزال مستمراً فى الحديث إلى زوجته بصوت منخفض . (لقد شربوا الخمر فى
تؤدة ولم يتناثر منها إلا القليل على أرديتهم . لقد أخبرهم قادتهم أنهم لن
ينجزوا المهمة أبداً ، لن يعثروا على المدينة أبداً.) وتذكر «نسيم» فى وضوح ،
كيف كانت تجلس «جوستين» متربعة فوق السرير ، بعد أن يضاجعها ، وتبدأ فى
ترتيب رزمة أوراق اللعب القديمة التى كانت تحتفظ بها دائماً على الرف بين
الكتب — وكأنها تحصى ما تبقى لهما من حظ سعيد بعد تلك المرة الأخيرة
والتي غاصا فيها فى ذلك النهر التحتى الثلجى من الوجد والهوى والذى لم

تستطع «جوستين» أن تكبته أو ترويه . (لقد قال «بلتازار» ذات مرة : «إن العقول التي تمزقها رغباتها الجنسية ، لن تجد الراحة حتى يقنعها كبر السن والقوى المنهكة بأن الصمت والهدوء ليساعدوين لها»).

هل كان كل ما انتاب حياتهما من تنافر مقياساً للقلق الذي ورثاه عن المدينة أو العصر ، فغالباً ما كان «نسيم» يقول . «أوه يا إلهي ، لماذا لا تغادر تلك المدينة يا «جوستين» ، ونبحث عن جو أقل تشبعاً بهذا الإحساس بالضيق والفشل؟ وحلت بخاطره كلمات الشاعر الشيخ وضغطت عليه كما يضغط العازف مسند القدم في «البيان» وأخذت تفور وترتد حول الأمل الواه الذي نبعت الفكرة من مرقدته القاتم .

ليس هناك يا صديقي أرض جديدة ولا بحر جديد
ستتبعك المدينة :

بنفس الأشياء البعيدة عن العقل وهي تنحدر من الشباب إلى الشيخوخة .
في نفس الشوارع التي تتداخل إلى ما لا نهاية .
وفي نفس البيت سيبيض شعرك .
المدينة قفص

لن تجد نهاية لمطافك غير هذه النهاية .
لن تجد سفينة تحملك . أه . ألا ترى .

كيف حطمت حياتك في كل الأرض
بمجرد أن ضيعت نفسك هنا في هذا المكان .

وقال لنفسه في هدوء ، وهو يتحسس جبينه ليرى إذا ما كانت الحمى قد أصابته : «إن مشكلتي أن المرأة التي أحببتها قد منحتني شعوراً كاملاً بالرضى دون أن ينال هذا الشعور البتة من سعادتها هي» ، وأخذ يستعيد في فكره كل الاوهام التي أخذت تؤكد حقيقتها بدلائل مادية . أعنى أنه قد ضرب «جوستين» حتى ألمه ذراعه وتحطمت العصا بين يديه . لقد كان كل هذا بالطبع حتماً . ومع

ذلك فإنه وجد عندما استيقظ أن ذراعه يؤلم وأنه متورم . ماذا يصدق المرء عندما تسخر الحقيقة بما يستعرضه الخيال؟

وفي نفس الوقت ، بالطبع ، أدرك «نسيم» إدراكاً تاماً أن معاناته ، وفي الحقيقة كل علقته إنما هي بذاتها شكل حاد من أشكال تضخم الذات ، وجاءت كل تعاليم «القابل» كريح لاحقة تنفخ في احتقاره لذاته ، كان في وسعه أن يسمع صوت «أفلاطون» يتكلم ، كأصداء بعيدة في ذاكرة المدينة ، يتكلم عن السير نحو نور جديد ، نحو مدينة من الضياء جديدة . لا عن الهرب بعيداً من ظروف دنيوية غير محتملة . «ومع ذلك فإنها رحلة لا يمكن إنجازها سيراً على الأقدام . انظر إلى أعماق نفسك ، انسحب إلى أعماق نفسك وانظر» غير أن هذا العمل كان هو العمل الوحيد ، الذى أدرك الآن أنه سيعجز دونه إلى أبد الأبد . إنه لأمر يثير دهشتي ، أن أتذكر وأنا أسجل تلك الصفحات ، كم كانت الدلائل الظاهرة على سطح حياته ، والتي تعكس ذلك التغير الداخلى ضئيلة للغاية — حتى لهؤلاء الذين كانوا يعرفونه معرفة وثيقة . كانت هناك أشياء قليلة يمكن أن يضع المرء أصبعه عليها — مجرد إحساس بأن الأمور ليست كالعتاد — إنها كما يعزف لحن معروف بطريقة بها بعض النشاز . لقد بدأ في الحقيقة خلال تلك الفترة في إقامة الولايم بإسراف لم تعرفه المدينة من قبل حتى بين أوساط أغنى الأسر وأثراها . لم يعد البيت الكبير يخلو الآن من الضيوف . واحتلت جناح المطبخ الكبير حيث غالباً ما كنا نسلق لأنفسنا بيضة أو نغلي كُوباً من اللبن بعد عودتنا من حفلة موسيقية أو مسرحية — والذي كان حينئذ مترباً ومهجوراً — أو رطة دائمة من الطباخين ، الذين يشبهون الجراحين والممثلين بطرايرهم البيضاء في لون الدقيق . وكان عدد من العبيد السود يقطعون الحجرات العاوية ، والسلم الطويل ، والقاعات والصالونات حيث يتردد اثنين الساعات في أبهة ، كججع يقوم بمهام خطيرة . وكانت ملابسهم التيلية البيضاء التى تفوح منها رائحة مكواة القدم نظيفة خالية من البقع — وقد

تحزم كل منهم بزئار قرمزي ثبت في وسطه مشبكاً ذهبياً على شكل سلحفاة :
هى الرمز التى اتخذته «نسيم» لنفسه . كانت الطرايش التقليدية القرمزية التى
تشبه أصص الورد تعلق عيونهم الناعمة كعيون خنزير البحر ، وأيديهم التى
تشبه أيدي الغوريلا موضوعة في قفازات بيضاء . كانوا صامتين صمت الموت
ذاته .

ويمكن القول أن «نسيم» إن لم يكن قد تفوق كثيراً في بذخه وإسرافه على
الشخصيات المصرية الكبيرة فمن المحتمل أنه كان يفكر في أن يبذم في هذا
المضمار . كان البيت على الدوام مليئاً بالحياة ، إما بالرباعى الموسيقى الرصين
الذين يشبه نبات السرخس ، وإما بأصوات الساكسفون العميقة والتى تشكو
للليل كما يشكو زوج تخونه زوجته .

وفتحت خلوات وأركان مفاجئة في حوائط حجرات الاستقبال الجميلة
الطويلة لزيادة قدرتها الكبيرة بالفعل على استيعاب الجلوس . وفي بعض
الأحيان كان يجلس إلى عشاء فاخر لا معنى له أكثر من مائتي أو ثلاثمائة
ضيف - يرقبون مضيفهم وقد غرق في تأمل وردة ترقد أمامه في طبق فارغ .
ومع ذلك فإن هذا التصرف لم يكن الشيء الوحيد الذى يلفت الأنظار فيما
ينتابه من ذهول . فقد كان يبتسم ابتسامة مفاجئة لحديث تافه يدور إلى
جواره، يبتسم كما يبتسم امرؤ يزيع كوباً مقلوباً ، ليكتشف نوعاً من
المخلوقات الحشرية النادرة لا يعرف اسمه العلمى ، كان الكوب يخفيه أسفله .

ما الذى يمكن إضافته إلى ما سبق ؟ كان من العسير أن يلحظ المرء أي مظهر
من مظاهر الإسراف البسيط في ملبسه كشخص كانت تبدو ثروته على الدوام
وكانها تتناقض بطريقة شاذة مع ذوقه في ارتداء « بناطيل » من الفانلة
وسترات من التويد . ولقد بدا الآن في حلتها « الشاركسكين » الناعمة كالثلج
والزئار القرمزي كما كان يجب أن يبدو على الدوام - أغنى رجال الأعمال
بالمدينة وأكثرهم وسامة ، هؤلاء اللقطاء الحقيقيون . وأحس الناس أنه قد

احتل مكانه أخيراً . فهكذا يجب أن يعيش شخص له مقامه وثروته . واشتم رجال السلك الدبلوماسي وحدهم من هذا البذخ الحديث ، رائحة خطة تكمن وراءها دوافع خفية ، ربما كانت مؤامرة لأسر الملك . وبدأوا بأدبهم المدرس يكثر من التردد على مرسمه . كان في استطاعة المرء أن يحس بالفضول القلق خلف سمات وجوههم المزوقة الخاملة ، والرغبة في معرفة دوافع « نسيم » ونواياه . ففي تلك الأيام كان الملك ضيقاً كثير التردد على المنزل الكبير .

في تلك الأثناء لم يعكس كل هذا أي تحسن على الوضع الأساسي . وبدأ الأمر وكأن العمل الذي انتواه « نسيم » ينمو في ببطء لا نهائي . مثل « الستالاكتيت » ، مثل الترسيبات التي تتكون مدلاة من سقوف الكهوف ، أي أنه كان هناك وقت يملا فراغ المسافة بين التدبير والتنفيذ - الصواريخ تشق طريقاً من الشر عبر السماء التي تشبه القطيفة : وتخرق الليل أبعد وأبعد حيث أرقد أنا و «جوستين» كل منا يمسك الآخر بين أحضانه ، وفي عقله كان المرء يرى في حياة النافورات الساكنة خيالات الوجوه الأدمية ، وقد أشعلتها النجوم الذهبية والقرمزية أثناء ارتفاعها وهي تنز في السماء كالجمع العطشان . وفي الظلام وضعت يدها الدافئة على ذراعي ، وكان في وسعي أن أرقب سماء الخريف وقد راحت في رجفات من الضياء الملون في هدوء كهدهد شخص انحسرت عنه وتناثرت آلام عالم الإنسان التي لا تستحق شيئاً . كالآلم عندما يظل مدة طويلة ، ثم ينتشر كالطوفان من عضو محدد ليغمر منطقة كاملة من الجسد أو العقل : ولم تفعل الأخاديد الجميلة التي خلفتها الصواريخ وراءها فوق صفحة السماء أي شيء بنا غير أن تملأنا بإحساس الانبهار الذي ينسجم مع الطبيعة الكاملة لعالم الحب الذي كان على وشك أن يهجربنا .

كانت تلك الليلة على وجه الخصوص مليئة بوميض البرق الصيفي النادر : وما أن انتهى هذا العرض حتى جاءت من الشرق - من الصحراء - قشرة رقيقة من الرعد تشبه في شكلها قشرة قرحة فوق الصمت الشجي . وسقط مطر

خفيف ، فتى ومنعش ، وللحال امتلأ الظلام بأشباح تسرع عائدة لتحتمي
بالمنازل المضاءة ، ورفعت الملابس فوق مفصل القدم وعلت الأصوات في لهو
صاخب . وتركت المصابيح للحظة قصيرة آثار أجسادها العارية فوق المواد
الشفافة التي تحيط بها . أما نحن فقد اتجهنا في صمت إلى داخل إحدى المظلات
التي تقع خلف السور الذي تغطيه النباتات الحلوة الرائحة ، ورقدنا فوق دكة
حجرية منحوتة على شكل بجعة . وتدفق الجمع الثرثار الضاحك ماراً بمدخل
المظلة متجهاً نحو الضوء ، ورقدنا في أرجوحة من الظلام نحس وخزات المطر
اللطيفة فوق وجوهنا . وأضاء رجال يرتدون سترات العشاء آخر المصابيح
الكهربية في جسارة ، ورأيت من خلال شعرها آخر المذنبات الباهتة وهي تنزلق
إلى أعلى في الظلام . وتدوقت ، مع متعتى بالالوان التي توهجت في رأسي ، ضغط
لسانها الدافئ البريء على لساني ، وذراعاهما على ذراعي . وعجزنا عن الكلام -
من فرط سعادتنا ، كنا ننظر باستمرار إلى بعضنا البعض بعيون مليئة بدموع
متحجرة .

ومن المنزل وصلت إلى أسماعنا أصوات « طقطقة » سدادات زجاجات
الشمبانيا وضحكات البشر .

« إننا الآن لا نقضي ليلة واحدة بمفردنا » .

« ماذا يحدث » لنسيم ؟ »

« لم أعد أعرف شيئاً . فعندما يود أحد أن يخفي شيئاً ما فإنه يتحول إلى
ممثل . ويفرض هذا على كل من يحيطون به أن يمثلوا بنفس قدرته » .

لقد كانت الحقيقة أن نفس الرجل يسير على سطح حياتهما المشتركة - نفس
الرجل المجامل ، الرقيق ، الدقيق : ولكن كل شيء كان قد تغير بصورة مخيفة ،
لم يعد له وجود في حياتهما . « لقد هجر كل منا الآخر » . قالتها في همسة
صغيرة لاهثة وهي تضغط نفسها أكثر قرباً مني مما صعد بمشاعرنا إلى قممتها
ورنت قبلاتنا التي كانت خلاصة كل ما شاركناه سوياً . فامسكنا بهاني قلق

للحظة بين أيدينا ، قبل أن تغيض في الظلام المحيط بنا وتذهب عنا بلا عودة . ومع ذلك فقد بدت وكأنها تقول لنفسها في كل معانقة : « ربما كان من خلال هذا الشيء بالذات والذي يؤلم أشد الألم والذي لا أرغب في أن ينتهي أبداً - ربما من خلاله ساجد طريقي إلى « نسيم » مرة أخرى » . وامتلات نفسي فجأة بكآبة تفوق طاقتي واحتمالي .

وانتابتني فيما بعد ، بينما كنت أسير في الحي الوطني بضجته الشديدة وأنواره النفاذة ورائحة الملابس الداخلية ، انتابتني الحيرة كما كانت تنتابني على الدوام . إلى أي مصير تقودنا الأيام . وكأنما أردت أن أختبر صدق تلك العواطف التي يمكن أن يقوم عليها الحب والقلق إلى حد كبير ، فملت إلى كشك يغمره الضياء وتزينه قطعة من إعلان سينمائي - نصف وجه كبير لعاشق في أحد الأفلام ، صورة لا معنى لها تشبه بطن حوت مقلوب بعد موته - وجلست على الكرسي المخصص للزبائن ، كما يفعل الإنسان في دكان الحلاق منتظراً دوره . كانت تتدلى على الباب الداخلي ستارة قذرة وكانت تأتي من خلفها أصوات خافتة مثل تلك الأصوات التي تصدر عن اجتماع مخلوقات لا يعرفها العلم . ولم يثر ما يحدث سخطي - ولكنه في الحقيقة أثار فضولي كما تستثير العلوم الطبيعية فضول هؤلاء الذين كفوا عن ادعاء الأحاسيس المهذبة . كنت في ذلك الوقت سكراناً مرهقاً . سكراناً « بجوستين » قدر سكري « بالبول روجيه » .

كان هناك طربوش موضوعاً على كرسي مجاور لي ، فوضعت على رأسي دون أن أدري . كان دافئاً ولزجاً بعض الشيء من داخله ، والتصق الشريط الجلدي السميك المبطن للطربوش بجبهتي . وقلت لنفسني وأنا أنظر في مرآة لصقت شقوقها بأطراف الأوراق الصمغية التي تحيط بورق البريد : « أريد أن أعرف ماذا يعني هذا الأمر حقاً » . كنت أقصد بالطبع كل تلك الحيرة الهائلة للجنس ذاته ، أقصد عملية الإيلاج التي يمكن أن تقود الإنسان إلى الشعور

باليأس والقنوط من أجل مخلوقة لها نهدان وهلال كما تصورها لغة الشرق
العامية الزاهية . وارتفع في الداخل صوت أنين لعوب وصرير ، صوت آدمي
ملتهب يضاف إلى صوت هزات سرير قديم تغطيه الأخشاب . وأغلب الظن أن
هذه العملية التي تحدث هي بعينها العملية التي كنا نمارسها أنا و«جوستين»
مع كل سكان هذا العالم المشترك الذي ننتمى إليه ؛ وكيف يمكن أن تختلف ؟
وإلى أي مدى حملتنا مشاعرنا بعيداً عن حقيقة العملية الحيوانية البسيطة
المجردة نفسها ؟ وإلى أي مدى كان العقل الغدار مسؤولاً ـ بقائمة الأشياء التي
لا حد لها ، واللازمة للقلب كي يتعقل ؟ كنت أود إجابة عن سؤال لا جواب له .
كنت مثلهفاً للوصول إلى يقين في هذا الأمر ، حتى لقد بدا لي أنني لو فاجأت
العملية في حالتها الطبيعية ، دافعها المال لا الحب ، ومع ذلك فهذا الأمر لا يؤثر
عليها ، فقد أتعرف على حقيقة مشاعري ورغباتي . ورفعت الستائر فقد كنت
أتعجل إنقاذ نفسي من السؤال ، وخطوت في خفة إلى داخل الحجرة الصغيرة
للغاية والتي كانت مضاءة بمصباح نفطي كان يطن ويترنح وقد خفضت
شعلته .

كانت تحتل السرير كتلة من اللحم غير واضحة المعالم تتحرك في أكثر من
وضع في ذات الوقت ، تهتز بطريقة غامضة ككومة من النمل . ولقد استغرق
الأمر مني بعض الوقت حتى استطعت أن أتبين فخذي رجل متقدم في السن
شاحبة ومليشة بالشعر ، من فخذي شريكته ـ البيضاوين بميل للون الأخضر
واللذان يتمتعان باستدارة نسائية ، لها رأس كراش حية « البواء » العاصرة ـ
رأس يتوجه شعر أسود خشن يثير الضيق يتبع حركتها وقد تدلى فوق أطراف
الحشية القذرة . ولا بد أن ظهوري المفاجئ قد أوحى لهما بكبسة بوليسية إذ
تبع ظهوري شهقة ثم صمت مطبق . وبدأ الأمر وكأن جبل النمل قد أصبح
خالياً من الحياة . وأن الرجل ونظر في اتجاهي بسرعة وفي زعر ، ثم دفن رأسه
بين نهدي المرأة الضخمين وكأنه يهرب بذلك من افتضاح أمره . كان من

المستحيل أن أوضع لهما أنني لا أتحرى شيئاً على وجه الخصوص غير تلك العملية التي يمارسانها سوياً . وتقدمت نحو السرير في حزم وفي اعتذار ، وأمسكت قضبان السرير الصلبة بيدي وحملت إلى أسفل بطريقة أسبغ عليها بالضرورة جو البحث العلمي . ولكنني لم أكن أحملق فيهما فقد كنت أعي وجودهما بصعوبة كنت أحملق في نفسي و « جوستين » ، في نفسي و « ميليسا » . وتحولت المرأة تنظر إليّ بعينين مرتبكتين سوداوين سواد الفحم وقالت شيئاً باللغة العربية .

ورقدا هناك كضحيتين من ضحايا حادثة رهيبة ، منهنكين فيما يؤديان بطريقة حمقاء خالية من الإتيقان، وكأنهما بهذا النمط المفكك من الممارسة أول رجل وامرأة في تاريخ الجنس البشري يستنبطان هذه الوسيلة الخاصة للاتصال الجنسي . وبدأ وضعهما المضحك والذي لا انسجام فيه وكأنه نتاج بعض المحاولات البدائية التي يمكن أن تتطور ، بعد قرون من التجربة إلى قدرات جسدية على قدر عال من التجانس كأوضاع البالية . غير أنني أدركت رغم ذلك أن هذا الوضع من العلاقة الجنسية والذي يحمل طابع المأساة إلى الأبد ويثير الضحك قد ثبت بلا تغيير ولا تطوير . من هذا الوضع انطلقت كل مظاهر الحب التي استخدمها الشعراء ومجانين الرجال ليزينوا بها فلسفتهم عن أشكال السمو والتفوق المؤدبة . من هذا المكان ابتدأ المرض والجنون نموها ، وإلى هنا أيضاً يعود ذلك القرف والغم الذي يكسو وجوه من تزوجوا منذ عهد بعيد . وقد قيد كل منهم إلى ظهر الآخر ، حتى يمكن القول أنهم كالكلاب وقد عجزت عن الانفصال بعد السفاد .

وفاجأتني جلجلة الضحكة الناعمة المتكسرة التي صدرت عني ، غير أنها أكدت لهما ماهيتي . ورفع الرجل وجهه بوضع بوصات وتصنت بانتباه كأنما يؤكد لنفسه أنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الضحكة عن رجل من رجال البوليس . واطمأنت المرأة لوجودي فابتسمت ، وصاحت وهي تلوح بيدها

البيضاء البشرة وتشير نحو الستارة : « انتظر لحظة واحدة ، لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً » . وأتى الرجل ، وكانما قد أحس التوبيخ في لهجتها ، ببعض الحركات التشنجية ، كأنه مشلول يحاول السير — تدفعه إلى ذلك أنقى مشاعر المجاملة لا دواعي اللذة ، وكشف التعبير المرتسم على وجهه عن أدب فائق — كالآدب الذي يتحلى به شخص في ترام مزدحم عندما ينهض كي يعطي مكانه لأحد مشوهي الحرب . وصدر عن المرأة صوت «كقباع» الخنزير وتقلصت أطراف أصابعها .

وخطوت إلى الشارع مرة أخرى وأنا أضحك وقد تركتهما خلفي هناك في حالة من الوفاق غير المتقن لأقوم بجولة في الحي الذي ما يزال يطن بحياة الرجال والنساء تلك الحياة المتميزة الساخرة . كان المطر قد توقف والأرض الرطبة تخرج رائحة الطمي والأجسام والياسمين الذابل ، رائحة حلوة تثير في النفس الشجن . وأخذت أسير في ببطء شديد ، وقد انتابني ذبول عميق ، وأخذت أصف لنفسي في كلمات كل هذا الحي من أحياء « الإسكندرية » فقد كنت أدرك أن النسيان سيطويه في القريب وأن أحداً لن يعود لزيارته غير هؤلاء الذين استولت المدينة المحمومة على ذكرياتهم ، عالقة بعقول عجائز الرجال كما تعلق آثار العطر بالأكمام ، « الإسكندرية » ، عاصمة الذكرى . كان الشارع الضيق مرصوفاً بالآجر الذي تفوح رائحته ، كان المطر قد جعله هشاً غير أنه لم يكن مبتلاً . وقد اصطفقت أكشاك العاهرات الملونة على طول الشارع ، كن يعرضن أجسادهن المثيرة الرخامية بطريقة محتشمة أمام منازلهن التي تشبه منازل الدمى ، وكان كلا منهن تجلس أمام ضريح مقدس . كن يجلسن على قارعة الطريق على كراسي ذات ثلاثة أرجل يرتدين شبشب ملونة وكأتهن عرفات . وكانت غرابة الإضاءة تضفي على المشهد كله ألواناً رومانتيكية نابضة ، فبدلاً من أن يضاء الشارع بالضوء الكهربائي من أعلى أضيء الشارع كله بمجموعة من مصابيح الكاربيد النفاذة وقد وضعت على الأرض : كانت تلقي إلى أعلى

زوايا وأسقف منازل الدمى المائلة ، على أنوف وعيون سكانها ، على الظلام المستسلم الناعم كالغرو ، بظلال ظامئة بنفسجية مشحونة بالبهجة . وسرت في بطاء بين تلك الزهرات الأدمية الشاذة . أفكر في أن المدينة كالإنسان تجمع ميولها وشهواتها ومخاوفها . إنها تنمو حتى تبلغ النضج وتقدم أنبياءها ، ثم تنحدر إلى التبلد أو الشيخوخة أو الوحدة وهي أسوأ من كليهما . والأحياء لا يزلن يجلسن على قارعة الطريق ، لا يدرين أن أمهن المدينة تموت ، يجلسن كالتماثيل المنصوبة يستندن الظلام ، وآلام المستقبل ترقد فوق جفونهن ، ترقب في يقظة ، الباحثين عن الخلود عبر كل تنبؤات الزمن .

هناك كشك مدهون مزخرف بأزهار السوسن ، وقد رسمت بعناية وبطريقة صحيحة باللون الأزرق الغامق على أرضية في لون الخوخ . وعلى بابه جلست صبية زنجية ضخمة يميل لونها إلى الزرقة ، ربما لم تكن تتعدى الثامنة عشرة من عمرها ، ترتدي قميص نوم أحمر من الغائلة يشبه بصورة مبهمة ملابس الإرسالية . وقد وضعت على رأسها السوداء بشعرها الذي يشبه جزة الغنم تاجاً من زهور النرجس يخطف الأبصار . وجمعت يديها في تواضع في حجرها - فبدى كفوفة مليئة بالأصابع المقددة . كانت تشبه أرنباً كالملاك يجلس عند مدخل حجره . وجلست عند الباب المجاور لها امرأة هشة كورقة الشجر ، وبعدها أخرى تشبه مركباً كيميائياً غسلته الأمونيا ودخان السجائر . وفي كل مكان فوق تلك الجدران المبنية المترنحة رأيت تعويذة المدينة الرئيسية - نقش كف ممدودة الأصابع تسعى إلى رد الأهوال التي احتشدت في الظلام خارج المدينة المضاعة . لم تكن تصدر عنهن وأنا أسير الآن بينهن صرخات البشر الساعين خلف المال ، ولكن نداءات كمنأغة اليمام ، ومتلاآت أصواتهن الهادئة الشارع يسكون كسكون الأديرة . إنهن لا يعرضن الجنس في تلك العزلة الفظيعة ، التي يعشنها بين الشعلات الصفراء ، ولكنهن يقدمن ، باعتبارهن بنات أصيلات « للإسكندرية » ، النسيان العميق الذي يمنحه

المخاض والميلاد ، وهو مزيج من متع جسدية يحصل عليها الإنسان دون أن يحس بالنفور أو الاشمئزاز .

واهترزت منازل الدمى وتمايلت للحظة عندما اقتحمت رياح البحر المكان تهاجم على قطع الملابس النسائية وتضغط الحواجز غير المثبتة . وكان الباب الخلفى لأحد المنازل لا يستره غطاء ولذا كان في استطاعة الناظر عبر الباب أن يلمح فناء به شجرة نخيل عاجزة عن النمو . وقد جلست ثلاثة فتيات يرتدين ملابس فضفاضة ممزقة على كراسى حول نار تصعد ألسنتها من جردل مليء بنشارة الخشب المشتعلة . كن يتحدثن بأصوات خفيفة وقد مددن أطراف أصابعهن إلى النار الهزيلة . وبدون مستغربات نائيات وكأنهن كن يجلسن حول نار مخيم في مناطق «الاستيس» .

(كان في وسعي أن أرى في خلفية عقلي شيطان الثلج الضخمة -أكوام الثلج حيث ترقد زجاجات الشمبانيا في منزل «نسيم» ، تلمع بلون أخضر يميل إلى الزرقاء كسمكة عجوز من أسماك «الشبوط» في بركة ماء عادية . وشممت أكامى كأنما أسترجع ذاكرتى بحثاً عن آثار عطر «جوستين») .

وأخيراً ملت إلى مقهى خال حيث تناولت فتجاناً من القهوة قدمه إلى خادم صعيدي ، كان حوّل عينيه العريب يبدو وكأنه يضاعف كل شيء يحملق فيه . وتكومت امرأة عجوز للغاية على صندوق كبير في ركن المقهى البعيد ، كانت تجلس ساكنة حتى أنى لم أرها في بادئ الأمر ، وقد أخذت تدخن النرجيلة وتطلق من حين لآخر كركرة ناعمة كصوت هديل اليمام . وهنا استعرضت في مخيلتي القصة كاملة من أولها إلى آخرها ، مبتدئاً بتلك الأيام التي لم أكن أعرف فيها «ميليسا» ومنتهاياً إلى القريب العاجل في مكان ما حيث سأموت ميتة تافهة ، ميتة من حشر نفسه فيما لا يعنيه ، في مدينة لا انتمى إليها . قلت إنى استعرضت القصة في مخيلتي ، غير أن الغريب حقاً هو أنني لم أفكر فيها كتاريخ شخصى له طابع فردي بقدر ما فكرت فيها كجزء من النسيج

التاريخى لهذا المكان . لقد صورت الامر لنفسى على اعتبار أنه جزء لا ينفصل عن سلوك المدينة ، يتطابق تمام التطابق مع كل ما سبقه من قبل ، وبكل ما سيلحقه من بعد . كان الوسط المحيط بى قد خدر خيالى بدهاء حتى أنه لم يعد قادراً على الاستجابة لأى تقييم شخصى أو فردى . لقد فقدت القدرة حتى على الشعور بما يثيره الخوف من رجفة . وإنى لأشعر على وجه الخصوص بالأسف الشديد من أجل هذا الخليط الذى أصفه فى مخطوط مذكراتى والتى يمكن أن أتركها من بعدى . لقد كنت أكره على الدوام الأعمال الناقصة والشذرات وقررت ضرورة إتلافها على الأقل قبل أن أخطو أية خطوة أخرى . ونهضت على قدمى - وصدمنى عندئذ خاطر مفاجئ هو أن الرجل الذى رأيته فى الكش كان «منمحيان» . كيف حدث أن أخطأت هذا الظهر المشوه ؟ وسيطرت على هذه الفكرة وأنا أعود أعبر الحى ، متجهاً إلى حيث الشوارع العمومية أكثر اتساعاً ناحية البحر . وسرت خلال هذا السراب من الأزقة الضيقة المتقاطعة كما يجوس المرء أرض معركة ابتلعت كل أصدقاء شبابه ، ورغم ذلك ، لم يكن فى مقدورى إلا أن أحس البهجة لكل ما أشمه أو أسمع - أحس بهجة من نجا وعاش . وهنا فى أحد الأركان وقف لاعب يبتلع النيران وقد استدار بوجهه نحو السماء يبخ من فمه عموداً من اللهب يتحول عند أطرافه إلى دخان أسود متطاير وقد فتح فى السماء ثقباً . كان يأخذ من حين لآخر جرعة كبيرة من زجاجة بها بترول قبل أن يلقى برأسه إلى الوراء مرة أخرى ويطلق شعلات النار إلى ارتفاع ستة أقدام . وترامت فى كل مكان خيالات بنفسجية ، أحاطت بها تجربة إنسانية - وحشية ورقيقة الأحاسيس فى ذات الوقت . واعتبرت إحساسى بآنى لم أعد أمتلئ بشعور الرثاء على حالى ولكنى أمتلئ برغبة فى أن تدعونى المدينة واحداً منها ، أن تسجلنى بين ذكرياتها التافهة أو المأساوية - إن شاءت ، اعتبرت ذلك مقياساً لنضجى .

وما إن وصلت إلى شقتى الصغيرة حتى نبشت كراسات التمارين الرمادية

التي كتبت فيها مذكراتي بلا عناية وبنفس القدر من طبيعتي لم أعد أفكر في إتلافها على الإطلاق . جلست هناك في ضوء المصباح وأضفت إليها أشياء جديدة بينما «بومبال» يتحدث عن الحياة وهو جالس على المقعد المريح ذو المساند .

ما أن عدت إلى حجرتي حتى جلست صامتاً ، أصغى إلى نغم عطرها النفاذ الذي أعتقد أنه مركب من اللحم والفضلات والنباتات ، وقد تداخلت كلها في كيائها الذي يشبه الحرير الكثيف . إنه نوع غريب من الحب لأنى لا أحس بأنى أمتلكها . ولا أرغب حقاً في امتلاكها . إن الأمر يبدو وكأننا لم نلتق إلا في امتلاك كل منا لذاته ، وغدونا شريكين لفترة مشتركة من فترات نمونا . إننا في الحقيقة نهين الحب ذاته لأننا قد أثبتنا أن أواصر الصداقة أقوى من الحب . إن تلك المذكرات ، إذا قدر لها أن تقرأ ، لا تعنى أكثر من تعليق ودى شديد الحرص عن عالم ولدت فيه لأقضى أشد اللحظات وحدة لحظات المضاجعة — مع «جوستين» . إننى لا أستطيع الاقتراب من الحقيقة أكثر من ذلك .

منذ فترة قريبة ، عندما غدا من العسير رؤيتها لسبب أو آخر ، وجدت نفسى في اشتياق شديد إليها حتى أنى قطعت الطريق كله إلى «بيترانتونى» لأحاول شراء زجاجة من زجاجات العطر الذى تستعمله . ولكن بلا جدوى ، فقد بللت الفتاة الملهبة والتي تعمل مساعدة للبائعة راحتي بكل أنواع العطور التى لديها واعتقدت مرة أو مرتين أنى أشم عطرها . ولكن عبثاً . كان هناك شيء مفقود على الدوام — أعتقد أنه الجسد الذى يوضع العطر فوقه . كان الشيء المفقود هو ما يعتمل في داخل الجسد ذاته . وعندما فقدت الأمل ذكرت اسم «جوستين» وللحال استدارت الفتاة إلى أول زجاجة عطر كنا قد جربناها ، وسألت وقد بدا عليها أنه قد أسى إلى تخصصها : «لماذا لم تقل هذا منذ البداية؟» كانت لهجتها تعنى أن كل امرئ يعرف العطر الذى تستخدمه «جوستين» ما عداى . ومع ذلك لم أستطع التعرف عليه . ودهشت إذ اكتشفت

أن عطر «جاميه ده لافى» لم يكن من بين العطور الغالية أو المستوردة .
«عندما أخذت الزجاجة الصغيرة التى عثروا عليها فى جيب صيديرية
«كوهين» إلى منزلى ، كان طيب «ميليسا» ما زال حبيساً هناك . كان من الممكن
اكتشافه)» .

كان «بومبال» يقرأ بصوت عال تلك العبارة الطويلة الفظيعة من كتاب
«عادات» والتى يطلق عليها اسم «الدمية تتكلم» . كانت «جوستين» تقول ، إنى
لم أعرف البتة الانطلاق والانعقاد فى كل تلك الصدمات التى وقعت عن طريق
الصدفة . بينى وبين ذكر الحيوان ، مهما كانت التجارب التى أخضعت لها
جسدى . إننى أرى دائماً فى المرآة صورة الجنون يصرخ وقد بلغ الشيخوخة :
«لقد فاتنى حبى لذاتى . حبى أنا ، كرامتى . حبى لذاتى . لم أتالم البتة ، لم أحظ
أبداً بمتعة بسيطة ولذيذة» .

ولم يتوقف «بومبال» إلا ليقول : «لو كان هذا الكلام حقاً ، فقد اتخذت أنت
من مرضها وسيلة لحبها» . ووقعت على تلك الملاحظة كما يقع طرف فأس
يمسك بها شخص يتمتع بقوة هائلة وخارقة على جذع شجرة .

وغمر «نسيم» شعوراً سحرياً بالارتياح ، عندما حل موعد الصيد السنوى
الكبير فى بحيرة «مريوط» ، لقد أدرك أخيراً أن ما كان عليه أن يقرر عمله
سيقرر فى هذا الوقت وليس فى أى وقت آخر . كان يبدو كرجل قاوم بنجاح
مرضاً طويلاً . هل كان حكمه خاطئاً حقاً إلى هذا الحد رغم أنه لم يكن يعى هذا
الحكم ؟ لقد ظل خلال سبع سنوات من الزواج يردد كل يوم . «إننى فى غاية
السعادة» - كلمات مشؤومة كضربات ساعة جد عجوز يزحف الصمت عليها
بلا توقف . والآن لم يعد فى وسعه أن يقول تلك الكلمات مرة أخرى . إن
حياتهما المشتركة تشبه سلكاً مدفوناً تحت الرمال ، قطع بطريقة غامضة فى
نقطة يستحيل اكتشافها ، قالقى بهما فى ظلام دامس غير مألوف .

إن الجنون لم يأخذ بالطبع فى اعتباره الظروف المحيطة بنا . لقد بدا وكأنه

قد ركز نفسه كلية فوق حالة قائمة بذاتها ، وليس فوق حالات الأشخاص الذين تعذبوا عذاباً يفوق حدود الصبر والاحتمال - لقد شاركنا جميعاً على نحو حقيقى فى هذا الجنون ، رغم أن «نسيم» وحده ، كشخص ، هو الذى أخرجه إلى حيز الوجود ، مجسداً إياه كمثل حى . لقد استمرت المرحلة السابقة على الصيد الكبير فى «مربوط» ما يقرب من شهر - لقد كانت بالتأكيد أكثر من ذلك قليلاً إلا أن أحداً ممن كانوا لا يعرفون أمره لم يلحظ أى شىء . ورغم ذلك ضاعفت أوهامه نفسها حتى أن ما سجله من ذكريات يعطى المرء إحساساً كإحساس الذى يرقب تكاثر البيكتريا تحت المجهر - تكاثر الخلايا الصحيحة بصورة غزيرة كما يحدث فى السرطان ، وقد جنت الخلايا ونفضت عن نفسها قدرتها على قمع ذاتها .

كانت سلسلة الرسائل السرية الغامضة التى تحملها إليه أسماء الشوارع التى يمر بها تكشف عن رموز مؤكدة لا يمكن دحضها تصدر عن قوة خارقة للطبيعة تنذر بكل قوة بعقاب غير مرئى - غير أنه لم يكن يعرف إذا ما كان هذا العقاب موجهاً إليه أم إلى آخرين . كذلك رؤيته لمقالة «بلتازار» وقد رقدت ذابلة الأوراق فى واجهة إحدى المكتبات ، ومروره فى نفس اليوم بغير أبيه فى مدفنة اليهود - وقد حفررت على حجر القبر تلك الأسماء التى يتميز بها اليهود الأوربيين والتى تعكس كل الخلل العقل الذى يعانونه فى المنفى .

ثم تأتى مشكلة الأصوات التى يسمعها فى الغرفة المجاورة : صوت نفس ثقيل . صوت «بيانات» ثلاث يُضرب عليها فجأة وفى ذات الوقت . كان «نسيم» يرى أن هذه الأشياء ليست أوهاماً ولكنها حلقات فى سلسلة خفية لا يراها ، ولكنها لا تبدو منطقية ومقنعة إلا للعقل الذى تخطى حدود «السببية» . وغداً التظاهر بالعقل فى إطار مقاييس السلوك العادية أصعب وأصعب . كان يمر بحالة من الدمار التى وصفها «سويدنبرج» .

واشتعلت نيران الفحم متخذة أشكالاً غريبة . كان فى مقدوره أن يثبت هذا

الامر بإشعال النيران مرة أخرى ليتحقق من اكتشافاته — مناظر ووجوه مفزعة . كما كانت الوحمة التي على رسغ «جوستين» تثير الضيق في نفسه . كان خلال فترات الأكل يكبح رغبة تراود نفسه في أن يلمسها ، يكبح نفسه بصورة حادة حتى أنه كان يشحب ويكاد أن يغمی عليه .

وذات أصيل أخذت ملاءة مجعدة تتنفس واستمرت كذلك لمدة تقرب من نصف ساعة ، متخذة هيئة الجسد الذي كانت تغطيه . كما استيقظ ذات ليلة على دوى أجنحة ضخمة فرأى مخلوقاً يشبه الطوطاء له رأس «كمان» وقد استقر على حافة السرير .

ثم ما تقوم به قوى الخير من أعمال مضادة — رسالة حملتها إليه خنفساء ملونة حطت فوق كراسي يومياته التي كان يكتب فيها ، معزوفة «بان» للموسيقى «ويبر» تعزف كل يوم ما بين الثالثة والرابعة على «بيان» في المنزل الملاحق لمنزله . وأحسن أن عقله قد غدا ساحة صراع لقوى الخير والشر وأن مهمته هي أن يشد كل عصب من أعصابه ليتعرف عليها ، إلا أن هذا لم يكن أمراً سهلاً . كان عالم الشواذ قد بدا يمارس حيله عليه حتى أن أحاسيسه بدأت تنهم الحقيقة ذاتها بالتناقض والتباين . كان معرضاً لخطر انهيار عقلی .

وأخذت صديريته «تكتك» ذات مرة وهي معلقة على ظهر أحد الكراسي ، وكأنما تسكنها مستعمرة من نبضات قلب غير قلبه . غير أنها توقفت عند فحصها ورفضت أن تستمر فيما تقوم به من أجل خاطر «سليم» الذي استدعاه «نسيم» إلى الحجرة . ورأى ذات يوم الحروف الأولى من اسمه منقوشة بالذهب فوق إحدى السحب وقد انعكست صورتها في واجهة إحدى المحلات في شارع «سانت سابا» . وبدا أن هذا الأمر برهان على صحة كل شيء . وأحس عندما سار يقطع «شارع فؤاد» بطوله أن الرصيف كله قد تحول تحت قدميه إلى إسفنج ، وخيل إليه قبل أن يختفي هذا الوهم أن يغمس فيه حتى وسطه . واستيقظ عصر هذا اليوم في الثانية والنصف من نوم محموم ثم

ارتدي ملابس له واتخذ سمته إلى « باسترودي » ومقهى « دوردالي » ليؤكد إحساساً لم يستطع الخلاص منه بأنهما خاليان .

وكانا بالفعل كذلك ، فملاؤه ذلك بشعور من الارتياح الظافر ، غير أن هذا الشعور لم يعمر طويلاً ، فقد أحس فجأة وهو عائد إلى حجرته وكان قلبه يُطرد من جسده عن طريق الحركات الآلية القصيرة لمضخة هوائية . ووصل به الأمر إلى حد أنه بدأ يكره ويخاف تلك الحجرة . كان يقف مصغياً لمدة طويلة حتى يواتيه الصوت من جديد — صوت انزلاق الأسلاك وهي تمتد فوق أرضية الحجرة ، ضجة حيوان صغير ، صرخاته والبعض يكتم أنفاسه بينما كان يلفه ليضعه في كيس . ثم سمع في وضوح صوت مشابك الحقائق وهي تغلق وتطلق وصوت تنفس شخص ما كان يقف خلف الباب المجاور يتصنت لأقل الأصوات . وخلق « نسيم » حذاءه ودخل على أطراف أصابعه إلى النافذة ليحاول رؤية ما في الحجرة المجاورة لقد خيل إليه أن قاتله ، رجل كبير السن ، ضخم الجثة حاد التقاطيع ، له عينان حمراوان غائرتان كعيني الدب . كان عاجزاً عن إثبات ذلك . ثم ما رآه وأثار الغزع في نفسه ، عندما استيقظ مبكراً في اليوم الذي يجب أن توجه فيه الدعوات للصيد الكبير ، فرأى ، من نافذة حجرة نومه رجلان يرتديان الملابس العربية وقد بدت الريبة عليهما وهما يربطان حبالاً إلى شيء كالرافعة موجوداً على سطح المنزل . وأشارا إليه وتحدثا معاً في صوت منخفض . ثم بدأ ينزلان إلى قارعة الطريق شيئاً ثقيلاً ملفوفاً في معطف من الفرو .

وأخذت يدها ترتعشان وهو يملأ مربعات الدعوات الكبيرة البيضاء بخطه المنساب الجميل ، منتقياً أسماء مدعويه من قائمة ضخمة مكتوبة على الآلة الكاتبة كان « سليم » قد وضعها على المكتب . ومع ذلك فقد ابتسم عندما تذكر المساحة الكبيرة التي تخصصها الصحافة المحلية كل عام بمناسبة هذا الحدث المشهود — العيد الكبير في مريوط . وأحس وقد وجد أن لديه الكثير مما يشغله

بأن عليه ألا يترك أي شيء للصدفة . ورغم أن « سليم » كان يحوم حوله راغباً في مساعدته إلا أنه زم شفتيه وأصر على أن يقوم هو بنفسه بكتابة كل الدعوات . وكانت الدعوة الموجهة إلى ترقد فوق رف المدفأة تحملق في وقد حملت كل دلائل الكارثة . ونظرت إليها وقد شتت النيكوتين والخمر انتباهي ، وأدركت أن هنا وبطريقة لا يمكن التكهن بها يوجد الحل الذي نتحرك جميعاً نحوه . (عندما يغادر العلم المكان تحتل الأعصاب مكانة . « عادات ») .

قالت « جوستين » في حدة ، « سترفض الدعوة بالتأكيد . لن تذهب إلى هناك ؟ » وأدركت أنها كانت تتابع نظراتي .

ووقفت في ضوء الصباح الباكر الذي يغلفه الضباب . تصغي بأذنها إلى شبح « حميد » بأنفاسه الثقيلة خلف الباب . « لن تغري بك القدر . أجبني هل ستفعل ذلك ؟ » .

وانزلقت من قميصها وحذاءها واستلقت في رقة فوق السرير إلى جوارى . وكأنها تبغي بذلك أن تتأكد من تسليمي برأيها — كان شعرها وفمها دافئين وخانتها حركات جسدها القلقة وهي تنثني على وكأنها تتوجع ، تشكو من جراح لا تندمل . وبدا لي حينئذ — وليس هناك ما يدعو للزهو فيما أكرهت نفسي عليه — بدا لي حينئذ أنني لن أستطيع أن أحرم « نسيم » ، فترة أطول ، من المتعة التي يبحث عنها في الانتقام مني ، أو في الحقيقة التي ستنتج عن هذا الانتقام . وكان يوجد تحت كل هذا أيضاً ، شعور بالارتياح جعلني أكاد أحس بالبهجة حتى رأيت التعبير الحزين الجاد يكسو وجه رفيقتي النائمة في أحضاني . كانت ترقد إلي جوارى تنظر إلى بهاتين العينين الرائعتين المعبرتين السوداوين وكأنها تطل من نافذة عالية في ذاكرتها . كنت أدرك أنها تطل في عيني « ميليسا » — في العينين القلقتين الصريحتين للمرأة التي كانت تقترب منا أكثر فأكثر مع كل يوم يزداد فيه الخطر علينا . ومع ذلك فمن غير « ميليسا » سيصيبه أشد الإيلام نتيجة ما يدبره « نسيم » ؟ وعدت إلى الوراء أفكر من خلال سلسلة قبيلات

«جوستين» الملتهبة المتلاحقة . عدت بثبات إلى الورا إلى ذاكرتي وراحتي فوق معصمي ، كبحار يهبط على سلسلة المرساة إلى أشد الأعماق ظلاماً في مرفأ كبير راكد للذاكرة .

إن كلاً منا يختار من بين جميع أنواع الفشل الذي عانا ه ذلك الذي يعرض احترامه لنفسه إلى أقل أنواع الهوان . ذلك الذي يدني شأنه بأقل قدر . لقد فشلت في الفن ، والدين ، والتعامل مع الناس . فشلت في الفن (وقد وانتني الفكرة فجأة في هذه اللحظة) لأنني لم أكن أؤمن بالشخصية الإنسانية المطلقة الحرية . (يكتب « بورسواردن » : « هل يثبت الناس على حالهم بصورة دائمة ، أم أنهم يتغيرون مرة إثر أخرى في سرعة فائقة حتى أنهم يعكسون شعوراً وهمياً باتصال ملامحهم كالارتعاشة المؤقتة ، لشريط سينمائي صامت قديم؟ ») كانت تنقصني الثقة الحقيقية بالناس حتى أستطيع أن أصورهم بنجاح .

وفي الدين ؟ حسنًا ، إنني لم أجد أن أي دين من الأديان التي تستحق الاهتمام يحتوي على أقل ذرة من السكينة — أو أنه في وسعه أن ينجو من الاتهام . لقد بدا لي مساپرة « لبلتازار » أن كل الكنائس وكل الطوائف ليست في أفضل الأحوال غير معاهد تثقيف ذاتي ضد الخوف . غير أن فشلي الأخير ، وأسوأ فشل عانيتة (ودفعت شفتي في شعر « جوستين » الفاحم الملىء بالحياة) هو فشلي مع الناس : ولقد كان ذلك نتاج انفصال روحي أخذ يزداد بالتدريج ، انفصال نهائي عن التملك بينما أطلق لي العنان كي أتعاطف مع الناس . وغدوت شيئاً فشيئاً وعلى نحو لا يمكن تفسيره أشد عجزاً عن ممارسة الحب . ومع ذلك أفضل في البذل والتضحية — وهما أجمل ما في الحب . وأدركت وقد تملكني الرعب أن هذا هو مصدر سيطرتي الآن على « جوستين » .

لقد كان محكوماً عليها ، كامرأة من طبيعتها حب التملك أن تحاول السيطرة على ذلك الجزء من نفسي الذي كان على الدوام بعيد المنال ، إنه ملاذي الأخير

المؤلم ، إنه مقدرتي على أن أضحك وأصاديق . ولقد جعلها مثل هذا الحب يائسة على نحو ما . لأنني لم أكن أعتمد عليها . ولأن الرغبة في السيطرة إذا ما أصابها الحرمان يمكنها أن تجعل المرء خاضعاً خضوعاً تاماً لما تمليه عليه نوازعه . إنه لمن الصعوبة بمكان أن نحلل تلك العلاقات التي تكمن تحت سطح أفعالنا مباشرة . فالحب ليس إلا نوعاً من اللغة التي يتحدث بها الجسد ، والجنس ليس إلا اصطلاحاً وتسمية خاصة .

ولكي أوضح هذه العلاقة الحزينة التي سببت لي الألم الكثير أكثر من ذلك - فلننني قد رأيت أن الألم ذاته كان الغذاء الوحيد للذاكرة . فالبهجة تنهي نفسها - وكان كل ما خلفته لي هو رصيد من الصحة الدائمة - وعزلة تهب الحياة . كنت مثل بطارية جافة . غير ملتزم بشيء ، كنت حراً في أن أجوب عالم الرجال والنساء كحارس أمين على ما للحب من حقوق حقيقية - ليس من أجل العاطفة ، ولا بحكم العادة (وكلاهما أهل لها فقط) ولكنه الهجوم المقدس ممن له الخلود بين بشر مصيرهم إلى فناء - من « أفرو ديت » في كامل لباس حربها .

ومع أنني كنت محاصراً على هذا النحو غير أنني رغم ذلك كنت محدداً ، أعرف نفسي بالصفة التي تتميز بها والتي ألتني (بالطبع) أكثر من غيرها ألا وهي نكراني لذاتي . إن هذا وليس شخصيتي هو ما أحبته « جوستين » في - فالنساء لصوص رغبة جنسية وهذا الكنز من العزلة والانفصام هو ما أردات « جوستين » أن تسرقه مني - إنه الجوهرة النامية في رأس الضفدع . لقد رأيت بصمات هذه العزلة مدونة عبر صفحة حياتي بكل ما فيها من عشوائية وتنافر واضطراب .

لم تكن قيمتي في أي عمل أنجزته أو أي شيء أمتلكه - لقد أحببتي « جوستين » لأنني كنت أعني بالنسبة لها شيئاً لا يمكن النيل منه . إنسان قد تشكل بالفعل ولا يمكن تحطيمه . كان يطاردها شعور بأنني حتى وأنا أحبها

لا أرغب في شيء غير أن أموت . ولقد وجدت « جوستين » أن هذا الأمر لا يطاق ولا يحتمل .

و « ميليسا » ؟ بالطبع كانت تفتقر إلى إدراك « جوستين » لحالتي . لم تكن تعرف غير أن قوتي هي سندها في أشد حالات ضعفها — في تعاملها مع العالم . كانت تلتقط وكأنها قد عثرت على شيء ثمين ، جملة ظلت تنتفض في عقله منذ ذلك الحين كما تنتفض سكين ألقى بها لتغرز في شيء ما . لقد انتفخت ملفاته حقاً منذ فترة طويلة بالتقارير عن تلك الحقيقة البشعة ، ولكنها كانت أشبه بتفاصيل صحفية عن كارثة وقعت منذ زمن بعيد في بلدة لم يزرها من قبل . إنه يجد نفسه الآن فجأة وجهاً لوجه مع شاهد عيان ، ضحية ، مع إنسانة نجت من المعركة وبعث دوي هذه العبارة الواحدة كل قوي مشاعره . وهبت فجأة كل التقارير المدونة على الورق تصرخ في وجهه .

كانت الحجرة التي ترتدي فيها « ميليسا » ملابسها كريهة الرائحة مكعبة المنظر مليئة بالأنابيب الملتوية التي تصل دورات المياه بالمجاري . كان لديها قطعة واحدة حادة من مرآة مشروخة ورف صغير مغطى بالورق الأبيض الذي توضع فوقه كعكات الأفراح . هنا كانت تضع خليط المساحيق وأقلام الزينة والتي كانت تسيء استخدامها بصورة مخيفة .

في هذه المرآة ظهرت صورة « سليم » وهي ترتعش . السنة الذهب الراقصة كشبح من العالم السفلي . تكلم بلهجة قاطعة مقلداً لهجة سيده ، وأحست « ميليسا » في ذلك الصوت بالقلق الذي يحسه السكرتير نحو الآدمي الوحيد الذي يعبد عبادة حقيقية والذي كان يستجيب لما يعانيه من قلق كما يستجيب جهاز الاختبار .

وأحست « ميليسا » بالخوف الآن . فقد كانت تعرف أن الإهانة الموجهة إلى كبير من الكبراء ، يمكن بمعايير المدينة ، أن تؤدي إلى عقابها بسرعة وقطاعة . وأصابها الذعر لما فعلت وأخذت تقاوم رغبة ملحة في البكاء إنتابتها وهي تلتقط

رموشها الصناعية بأصابع مرتعشة . لم يكن أمامها من وسيلة ترفض بها الدعوة . فارتدت أفضل ثيابها البالية وحملت ما تعانية من إجهاد كصرة ثقيلة وتبعت « سليم » إلى السيارة الضخمة التي كانت تقف في الظلام الداكن . وساعدها في أن تركب إلى جوار « نسيم » . وسارت العربة بطيئة في ذلك المساء المبهم الداكن من أمسيات « الإسكندرية » التي لم تعد لفرط ذعرها تتعرف عليها . ورأوا البحر وقد تحول إلى ياقوت أزرق ثم استدارت السيارة إلى داخل المدينة تجتاز الأحياء القذرة المكتظة متجهين نحو « مريوط » وأكوام خبث المعادن التي تشبه القطران عند « المكس » ، حيث أزاحت كشافات السيارة الأمامية بضوئها الشديد طبقات الظلام طبقة وراء طبقة ، كاشفة عن مشاهد محدودة من الحياة المصرية الصميمة — سكير يغني ، شخص يركب بغلاً ويهرب من « هيرودوت » ومعه طفلين كشخصية من شخصيات الإنجيل ، حمال يفرز أكياسه — إنها تمر في سرعة وخفة كخفة من يوزع ورق اللعب .

وتابعت « ميليسا » تلك المناظر المألوفة بعاطفة جياشة فورها كانت ترقد الصحراء بما فيها من فراغ يطن كما تطن محارة البحر . ولم يتكلم رفيقها طوال هذا الوقت ولم تجرؤ هي على أن تغامر إلى حد النظر في اتجاهه .

والآن وقد بدأت تظهر خطوط الكثبان الرملية القاطعة اللامعة كالصلب في ضوء القمر ، أوقف « نسيم » السيارة وأخذ يتحسس جييبه بحثاً عن دفتر شيكاته وهو يقول في صوت مرتعش ، وقد فاضت عيناه بالدموع : « كم تطلبين ثمناً لصمتك ؟ واستدرات نحوه ، فرأت لأول مرة الرقة والأسى المرتسمان على ذلك الوجه الأسمر ، وأحسست أن خجلاً طاغياً قد حل مجل ما انتابها من خوف — ورأت في تعبير وجهه الرغبة في صنع الخير والتي لا يمكن أن تجعل منه عدواً لامثالها . فوضعت يداً تحمل شعورها بالهبة فوق ذراعه وقالت : « إنني أحس بالخجل الشديد ، أرجوك أن تسامحني . لم أكن أدري ما كنت أقول » . وطفى عليها ما كانت تعانيه من إرهاق حتى أن عواطفها التي كادت تجهش بالبكاء

تحولت الآن إلى تناوب . وأخذنا ينظران إلى بعضهما البعض بروح جديدة وقد أدرك كل منهما براءة الآخر . وقد بدا عليهما للحظة أنهما قد أحبا بعضهما البعض ، بعد هذا الارتياح الخالص الذي أحسا به .

وعادت العربة تسير ، واستعادت سرعتها مرة أخرى كما استعاد « نسيم » وميليسا « صمتهما - وسرعان ما كانوا يقطعون الصحراء في سرعة نحو هريق النجوم اللامع . وأفق صبغته الأمواج المزمجرة المرتطمة بالشاطئ بالسواد . ووجد « نسيم » نفسه وإلى جواره تلك المخلوقة الغريبة النعسانة ، يفكر مرة وأخرى :

« الحمد لله أننى لم أكن عبقرياً - فالعبقري لا ياتمن أحداً على أسرارهِ » .
ومكنته النظرات التي كان يتلصص بها عليها من أن يدرسها ، وأن يدرسني من خلالها . ولا شك أن جمالها قد أقلقته وجرده من أسلحته ، كما فعل بي من قبل ، لأنه وصفه فيما بعد بأنه جمال يملأ المرء بشعور رهيب ، جمال وجد ليغدو هدفاً لقوى التدمير . وأصابته رغبة عندما تذكر فكاهة كتبها « بورسواردن » وقد ظهرت فيها شخصيتها لأنه كان قد لقيها كما لقيها « نسيم » ، في نفس الكباريه المبتذل ، غير أنها في تلك الأمسية كانت تجلس في صف من الراقصات المضيفات اللواتي يبعن بطاقات الرقص . وأخذها « بورسواردن » الذي كان سكراناً سكرًا شديدًا إلى الطابق الأرضي ، وبعد فترة من الصمت خاطبها بطريقة الحزينة الآمرة ، متسائلاً « كيف تحمين نفسك في مواجهة الوحدة ؟ » وتطلعت إليه « ميليسا » بعين مفعمة بكل ما تحمله تجربتها من صدق وأجابته في رقة : « سيدي ، إنني الوحدة ذاتها » . وكان لهذه العبارة أثرها العميق في نفس « بورسواردن » حتى أنه ظل يذكرها ويردها لأصدقائه فيما بعد ، مضيفاً إليها ، « وفكرت فجأة بيني وبين نفسي ، هناك توجد امرأة يمكن أن يتدله المرء في حبها » . غير أنه لم يغامر بزيارتها مرة أخرى ، فقد كان يسير سيراً حسناً في الكتاب الذي يؤلفه ، كان يعرف أن اشتعال تلك العاطفة

إنما هو خدعة يمارسها عليه أضعف ما في طبيعته . كان يكتب عن الحب في ذلك الوقت لا يريد أن تشوش الأفكار التي كونها عن هذا الموضوع . (وقد جعل إحدى شخصيات كتابه تصرخ قائلة « ليس في مقدوري أن أقع في الحب ، لأنني أنتمي إلى تلك الجمعية السرية القديمة - جمعية المهرجين » . وتحدث في مكان آخر عن زواجه فكتب « لقد وجدت أنني في الوقت الذي كنت أسيء فيه إلى غيري كنت أسيء فيه أيضاً إلى نفسي أما الآن وأنا بمفردي فليس لدي غير نفسي أسيء إليها . يا فرحتي ! »)

كانت « جوستين » ما تزال تلح عليّ ، ترقب وجهي وأنا أصنف تلك المشاهد الحارقة في عقلي . وكررت في صوت أجش : « سوف تنتحل عذراً ما ، لن تذهب إلى هناك . » لقد ألح « سليم » على هذه النقطة بصورة خاصة ، وندت عنه شهقة جافة وهو يغادر الحجرة . وبدالي أنه من المستحيل أن أعثر على مخرج من هذه الورطة . فقلت لها « كيف يمكنني أن أرفض ؟ »

« كيف يمكنك أن ترفض ؟ »

وانطلقت السيارة « بنسيم » و « ميليسا » عبر ليل الصحراء الدافئ الهادئ وقد غمرهما شعور مفاجئ بالتعاطف كل نحو الآخر ، ورغم ذلك ، ظلا صامتين . وأبطل « سليم » آلة السيارة عبر المنحدر الأخير قبل « برج العرب » وترك السيارة تنزلق بعيداً عن الطريق وقال لها : « تعالي إنني أود أن أريك قصر « جوستين » الصيفي » .

وسارا على الطريق نحو البيت الصغير وقد تشابكت أيديهما . كان الحارس نائماً غير أن المفتاح كان معه ، وفاحت من الحجرات رائحة الرطوبة والأماكن الخالية من السكان ، غير أنها كانت مليئة بالضوء المنعكس عن الكتبان الرملية البيضاء . ولم يمض وقت طويل حتى كان قد أشعل نارا من الشوك في المدفأة الكبيرة ، وأخرج عباءته القديمة من الدولاب وارتداها ثم جلس أمام النار وقال : « والآن أخبريني يا « ميليسا » ، من الذي أرسلك لتعذيبني ؟ » لقد قال ذلك على

سبيل الدعاية ولكنه نسي أن يضحك ، وغمر الخجل « ميليسا » فغدا لونها قانئاً وأخذت تعض شفتها . و لفترة طويلة جلسا هناك يستمتعان بضوء النار والشعور بأنهما يتقاسمان شيئاً مشتركاً - يتقاسمان يأسهما .

أطفأت « جوستين » سيجارتها ونهضت في ببطء من الفراش . ثم أخذت تسير في ببطء فوق السجادة جيئةً وذهاباً . لقد تغلب عليها الخوف وكان في وسعي أن أرى أنها قد بذلت جهداً حتى تتغلب على حاجتها للانفجار على طريقته الخاصة . قالت تحدث المرأة : « لقد فعلت أشياء كثيرة في حياتي ، ربما كانت أشياء شريرة ، ولكني لم أقم بها وأنا غافلة ، أو دون هدف . لقد أخذت الأعمال دائماً كأنها رسائل ، رغبات يحملها الماضي للمستقبل ، رغبات تدعو المرء كي يتعرف على ذاته . هل كنت على خطأ ؟ هل كنت على خطأ ؟ » . لم تكن توجه الخطاب إلى الآن ولكنها كانت توجهه إلى « نسيم » . إنه لامرأ أكثر سهولة أن تتوجه المرأة إلى عشيقها بالأسئلة التي تنوي إلقاءها على زوجها ، ثم استمرت بعد لحظة : « أما بالنسبة للموتى ، فلقد اعتقدت دائماً أن الموتى هم الذين يعتبروننا نحن أمواتاً . لقد لحقوا هم بالأحياء بعد تلك الجولة القصيرة في وجود وهمي » . وأخذ « حميد » يتقلب الآن ، فاستدارت في زعر إلى ملابسها . وقالت في حزن « إذن فأنت ترى ضرورة ذهابك ، وكذلك أنا . إنك لعل صواب ، يجب أن تذهب » . وأضافت وقد استدارت إلى المرأة لتكمل زينتها « شعرة بيضاء أخرى » . وأخذت تتأمل ذلك الوجه الشرير المزين بأحدث الأساليب .

وأخذت أرقبها وهي واقفة هكذا وقد التف حولها شعاع رفيع من أشعة الشمس كان يخترق زجاج النافذة . لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير مرة أخرى في أنه لا يوجد شيء يمكنه أن يتحكم في بصيرتها أو بغير تلك البصيرة التي نمت وتطورت من طبيعة تغذت على تأمل النفس وفحصها : لا تعليم ولا مصادر عقلية لتقاتل رغبات قلب عاصف . كانت موهبتها كمثل الموهبة التي يعثر المرء عليها بين الحين والحين عند قارئات المستقبل الجاهلات .

لقد كان كل ما يمت إلى الفكر في «جوستين» مقتبساً - حتى ملاحظتها عن الموتى كانت مقتبسة من كتاب «عادات» ، لقد انتقت من الكتب كل ما يمكن أن يكون هاماً وذو دلالة ، لا عن طريق القراءة ولكن عن طريق الاستماع إلى أحاديث «بلتازار» و «الأرناؤوطي» و «بورسواردن» التي لا نظير لها في هذه الموضوعات . كانت تلخيصاً متحرراً للكتاب والمفكرين الذين أحببتهم أو أعجبت بهم - ولكن هل هناك ما تستطيع أية امرأة ذكية أن تتفوق به عليها ؟

وأخذ «نسيم» الآن راحتي «ميليسا» بين راحتي (فرقدتا هناك هادئتين ساكنتين كالرقائق) وأخذ يوجه إليها الأسئلة عني في لهفة يمكن أن توحى بأنني محور اهتمامه العاطفي وليست «جوستين» . إن المرء يحب دائماً الشخص الذي اختارته حبيبته حبيباً لها . إنني لا أبخل بأي شيء حتى أتمكن من معرفة ما قالته له . وقد نالت بنقاؤها وحذرها غير المنتظر من عواطفه . إن كان ما أعرفه هو أنها اختتمت حديثها بطريقة غبية وهي تقول : « وحتى الآن فإنهما غير سعيدان: إنهما يتشاجران مشاجرات مخيفة : لقد أخبرني «حميد» بذلك عندما التقيت به آخر مرة » . وبالتأكيد فإن «ميليسا» كانت على قدر من الخبرة يجعلها تدرك أن تلك المشاجرات التي تسمع عنها إنما هي لعب حبنا . لكنني أعتقد أنها لم تر في ذلك غير أنانية «جوستين» - غير الافتقار الرهيب للاهتمام بالآخرين والذي كانت تتصف به حبيبتي المستبدة . كانت تفتقر إلى السماحة افتقاراً تاماً ، وبذا افتقدت الأساس الوحيد الذي يمكن أن تقيم عليه «ميليسا» فكرة طيبة عنها . لم تكن في الحقيقة إنسانية النزعة - وهذا شأن كل من يملكه حبه لذاته . ماذا يمكن أن أجده مميزاً لها ؟ لقد ساءلت نفسي هذا السؤال للمرة الألف . ومع ذلك فإن «نسيم» عندما بدأ في اكتشاف «ميليسا» وحبها كامتداد «لجوستين» ، قد حدد بدقة الحالة التي تعيشها الإنسانية - وكانت «ميليسا» تبحث فيه عن ميزات تتصور أنني قد عثرت عليها في زوجتي . لقد كنا نحن الأربعة نكمل بعضنا البعض دون أن ندري ، كنا قد ارتبطنا معاً

بطريقة معقدة . (« نحن الذين ارتحلنا كثيراً وأحببنا كثيراً : نحن الذين - لن أقول عانينا لأننا قد حققنا اكتفاءنا الذاتي على الدوام من خلال المعاناة - ولكنني أقول أننا وحدنا نعرف قدر اختلاط العواطف الرقيقة ، ونفهم الصلة الوثيقة بين الحب والصداقة » . « عادات ») .

إنهما يتبادلان الحديث الآن كما لو كانا أخاً وأختاً يواجهان مصيراً محتوماً، أن كلاً منهما يجد في الآخر شعور الارتياح الذي يحل بهؤلاء الذين يجدون شخصاً يشاركهم عبء همومهم التي لم يعترفوا بها لأحد . وأخذ يتحرك في دخيلة كل منهما في خلال كل هذا التعاطف ظل غير متوقع مجرد طيف من الشهوة ، إنه ربيب الاعتراف والخلاص . كان ينذر ، على نحو ما ؛ بعلاقة الحب التي كانت ستنشأ فيما بينهما ، والتي كان قبورها أقل بكثير من قبوح علاقتنا نحن - أنا « وجوستين » . إن الحب يغدو أكثر صدقاً إذا كان مصدره التعاطف لا الشهوة ، لأنه لا يترك حينئذ أى جراح . كان الفجر قد أشرق عندما نهضنا من حديثهما ، وقد تصلبت وتقلصت عضلاتهما لأن النار كانت قد انطفأت منذ وقت طويل ؛ وسارا إلى السيارة عبر الرمال الرطبة ، يتأملان ضياء الفجر بلونه القرمزي الباهت . لقد عثرت « ميليسا » على صديق وحام يرعاها ، أما عن « نسيم » فقد تبدل حاله ، إن الشعور بتعاطف جديد قد مكنه ، بصورة سحرية ، من أن يستعيد نفسه مرة أخرى - أي يغفر رجلاً في وسعه أن يقدم على ١٠٠ ما (في وسعه أن يقتل شقيق زوجته إن أراد) !

وأخذا يرقبان ، بنم كان .. مباراة تنطلق بهما على الشاطئ المحلى الرائق المياه ، خيوط الشمس الممتدة من امن إلى أفق عبر البحر المتوسط الداكن الذي لا تقيدته حدود والذي تلمس أطرافه « قرطاجنة » المقدسة في نفس الوقت الذي تلمس فيه « سلاميس » في « قبرص » .

وأبطأ « نسيم » ، مرة أخرى عند انحدار الطريق وسط الكثبان الرملية نحو الشاطئ ، واقترح بطريقة لا إرادية أن يسبحا . لقد انتابته فجأة ، وقد تغير عن

ذى قبل ، رغبة في أن تراه « ميليسا » عارياً ، في أن تطرى جمال جسده الذي حجب طويلا ، كبذلة جيدة التفصيل منسية في دولاب الخزين .

وخاضا في المياه الباردة وهما عاريان يضحكان وقد أمسك كل منهما بيد الآخر ، يحسان ضوء الشمس الرقيق يتوهج على ظهريهما . كان هذا الصباح يشبه أول صباح صاحب ميلاد العالم . ونضت « ميليسا » من نفسها وهي تخلع ملابسها آخر ما بقى من أثقال الجسد ، وغدت الراقصة التي كانت على حقيقتها ، فقد كان العرى يمنحها دائماً قدرتها على الانطلاق والالتزان ، وهي مهارات كانت تفتقد إليها في الكبارية .

ورقدا معاً لفترة طويلة في صمت تام ، يبحثان عبر مشاعرهما الحالكة عن طريق للمستقبل . وأدرك أنه قد نال استجابتها المباشرة وأنها قد غدت محظيته في كل شيء .

وعادا سوياً إلى المدينة ، يحسان السعادة والخرج في نفس الوقت — فقد شعر كلاهما بنوع من الفراغ كامن في أعماق سعادتهما . ومع ذلك فقد تمهلا حيث كان كل منهما متردداً في تسليم الآخر إلى نوع الحياة التي كانت في انتظارهما ، وأبطأت السيارة كذلك ، وطال صمتهما بين ما كان يتبادلانه من تودد وتحبيب .

وأخيراً تذكر « نسيم » مقهى متهدماً في المكس حيث يمكن أن يجد المرء بيضاً مسلوقاً وقهوة ، ومع أن الوقت كان مبكراً إلا أن صاحب المقهى اليونانى النعسان كان مستيقظاً وأعد لهما المقاعد تحت شجرة تين يابسة في فناء خلفي ملء بالدجاج « وذبلها » القليل . وارتفعت حولهما المصانع والأرصعة المقامة من الحديد المضلع ولم يكن للبحر وجود إلا في الرطوبة اللزجة ورائحة الحديد المحمى والقطران النفاذة .

وأخيراً انزلها عند قمة أحد الشوارع التي ذكرت له اسمها وودعها بطريقة تحمل في مظهرها طابع الجفاف — لعله كان يخشى أن يراه معها واحد من

موظفيه . (إن هذا التعليق الأخير إنما هو حدس من جانبي إذ أن كلمتي «جفاف» و « تحمل في مظهرها » التي جاءت في يومياته ، تبدو إلى حد ما أنها في غير مكانها .) وعادت ضجة المدينة القاسية تتدخل ، تشدهما إلى مشاعرهما وهمومهما الماضية . أما من ناحيتها فقد تركته وهي تتشاب يداعب النوم جفناها وقد استعادت طبيعتها كما كانت ، لتميل إلى الكنيسة اليونانية الصغيرة وتشعل شمعة للقديس . ورسمت الصليب على نفسها من اليسار إلى اليمين كعادة الأرثوذكس ، وأزاحت إلى الوراء خصلة من شعرها وهي تنحني على الأيقونة ، تتذوق ، في طعم النحاس الأصفر ، وهي تقبلها ، كل السلوى والعزاء الذي كانت تحسه وهي تمارس عادة منسية من عادات صباها . واستدارت في إعياء لتجد « نسيم » يقف أمامها . كان شاحباً شحوب الموتى يحملق فيها بفضول يلتهب رقة ولطفاً . وللحال أدركت كل شيء . وتعانقا وقد حلق فوقهما نوع من الحزن ، لم يتبادلا القبل . إلا أن كلا منهما كان يضغط جسده إلى جسد الآخر ، وفجأة أخذ « نسيم » يرتعش من الإعياء ، وبدأت أسنانه تصطك . وسحبته « ميليسا » إلى كرسي أحد الشماسية حيث جلس ذاهلاً بضع لحظات ، يجاهد كي يتكلم ، يمر بيده على جبهته كشخص يفيق من الغرق . لم يكن يفعل هذا لأن لديه مايقوله لها ولكن شعوره بأنه قد فقد النطق جعله يخشى أن يكون ما يعانيه الآن نوبة من نوبات المرض . وقال في صوت كالنقيق : « لقد تأخر الوقت كثيراً ، فالساعة الآن قد أشرقت على السادسة والنصف » . ونهض وهو يضغط راحتها إلى وجنته الخشنة : وكرجل عجوز أخذ يتحسس طريقه إلى الخارج عبر الأبواب الضخمة إلى ضياء الشمس ، وقد تركها جالسة هناك تتابعه بنظراتها .

لم يبد ضياء الفجر الباكر « لنسيم » جميلاً في أي يوم من الأيام كما بدا الآن. ولاحت له المدينة متلائة كحجر من الأحجار النفيسة . ورنّت أصوات التليفونات الحادة التي كانت تملأ الأبنية الحجرية الضخمة حيث يعيش رجال

الأعمال ، رنت في أذنيه وكأنها أصوات طيور آلية ضخمة ولودة كانت تتلألا في شباب خالد فرعوني . وكانت أشجار الحديقة قد اغتسلت بمطر الفجر النادر . كانت تغطيها حبات الماء اللامعة كالмас . وبدت كقطط كبيرة ناعمة تزين نفسها .

وسبح به المصعد إلى الطابق الخامس ، وحاول عدة محاولات مرتبكة حتى يبدو لائق المظهر (تحسس الشعر الأسود الخشن على خده وأعاد إحكام ربطه عنقه .) وتأمل « نسيم » صورته في المرآة الرخيصة متسائلاً ، وقد أثار المدى الجديد للمشاعر والمعتقدات التي منحتها له تلك المشاهد الوجيزة حيرته . غير أن المعنى الذي انتفض عن تلك الكلمات الست التي أسكنتها « ميليسا » في أعماقه ، كان يكمن تحت كل شيء ، ينبض بالآلم كسفن أو أصبع أصابه التلف . وأدرك « نسيم » وهو داخل أن « جوستين » قد ماتت بالنسبة إليه . تحولت من صورة تعيش في عقله إلى نقش ، إلى قلادة يستطيع المرء أن يضعها على قلبه أبد الدهر . إنه لأمر قاس على النفس أن يترك المرء حياته القديمة إلى حياة جديدة - فكل امرأة حياة جديدة ، متماسكة ، متكاملة ولا نظير لها . لقد غدت فجأة شخصية باهتة . لم يعد يرغب في امتلاكها أكثر من ذلك ، بل غدا يرغب في أن يحرر نفسه منها ، من امرأة قد تحولت إلى حالة معينة .

دق الجرس ينادي « سليم » ، ثم أخذ يملي عليه ، بعد ما جاء ، بعضاً من الخطابات الكثيرة الخاصة بالأعمال ، كان يملئ بطريقة هادئة أشارت دهشة «سليم» حتى أن يده ارتعشت وهو يكتبها بالاختزال بطريقته الحريصة الدقيقة. وبدأ « نسيم » مخيفاً « لسليم » في تلك اللحظة كما لم يبدو من قبل ، كان جالساً إلى مكتبه الضخم المصقول وقد وضع أمامه حشداً لامعاً من التليفونات.

ولم يلتق « نسيم » « بميليسا » بعد ذلك الحدث ، إلا أنه كتب لها خطابات طويلة مزقها وألقى بها في دورة المياه . لقد بدا أنه من الضروري له ، لسبب

وهمي ، أن يفسر ويبرر لها تصرفات « جوستين » ، ولذا ابتداء كل خطاب من تلك الخطابات بمقدمة يعرض فيها ماضي « جوستين » وماضيهِ . كان يحس أنه بدون تلك الديباجة ، يستحيل عليه تمام الاستحالة أن يتحدث عن الطريقة التي دخلت بها « ميليسا » حياته وسلبته لبه . كان بالطبع ، يدافع عن زوجته ، لا في مواجهة « ميليسا » التي لم تنطق بأي نقد ضدها (ما عدا تلك العبارة) ولكن في مواجهة كل الشكوك الجديدة التي برزت بشكل حاد أمامه بعد تجربته مع « ميليسا » — تماماً كما ألقت تجربتي مع « جوستين » الضوء على علاقتي بـ « ميليسا » وأعادت تقييمها بالنسبة إليّ ، كذلك كان « نسيم » يرى وهو ينظر في عيني « ميليسا ! الرماديتين ، « جوستين » جديدة لا يتطرق الشك إليها تولد هناك في أعماقهما .

وشعر الآن بالانزعاج ، فقد أحس المدى الذي يمكن أن يصل إليه في كراهيته لها . وأدرك الآن أن الكراهية ما هي إلا حب لم يتحقق . وأحس الحسد عندما تذكر الطريقة ، ذات الاتجاه الواحد التي يفكر بها « بورسواردن » الذي كتب على الصفحة الأولى لكتابه الأخير الذي عناه « لبلتازار » تلك الكلمات الساخرة .

« بورسواردن » والحياة .

لا تنسى أن : الطعام للأكل .

والفن للفن .

والنساء للـ.....

انتهى .

ر . ا . ب .

عندما التقيا في المرة التالية ، تحت ظروف مختلفة تمام الاختلاف لكنى لا أملك الشجاعة لأكمل العبارة التي بدأتها .

لقد ارتدّت أعماق « ميليسا » بعقلي وقلبي إلى أبعاد كافية ولن أحتمل

استعادة تذكر ما عثر عليه « نسيم » فيها - صفحات غطتها الجمل المشطوبة والتعديلات . صفحات مزقتها من يومياته وأعدمته . الغيرة الجنسية هي أشد عواطف الحيوانات غرابة ، وفي وسعها أن تأوى في أي مكان ، حتى في الذاكرة . إننى أدير وجهي بعيداً عن فكرة قبيلات « نسيم » الخجلة ، بعيداً عن قبيلات « ميليسا » التي لم تختار في « نسيم » إلا أقرب الشفاه إلى شفتي ...

وانتقيت بطاقة من رزمة جديدة من البطاقات الكرتونية التي كنت قد أقمعت أحد عمال الطباعة المحليين بأن يضع عليها اسمي وعنواني بعد أن ألححت عليه كثيراً وبطريقة مخجلة ، ثم تناولت قلمي وكتبت .

السيد .. يقبل بسرور .

دعوة السيد .. الكريمة لصيد .

البط في بحيرة « مريوط » .

وبدا لي الآن أنه في وسع المرء أن يتعلم بعض الحقائق الهامة عن السلوك الإنساني .



وأخيراً انتهى الخريف إلى ركب الشتاء الواضح المعالم . وأمواج البحر العالية تجلد حاجز الصخور البيضاء على طول الكورنيش . والطيور المهاجرة تتكاثر على طول الآماد الضحلة لمياه « مريوط » ، التي تتراوح بين اللون الذهبي والرمادي ، لون الشتاء .

وتلتئم الجماعات مع الغسق عند بيت « نسيم » - مجموعات هائلة من السيارات وأجمات الصيد . من هنا يبدأ ملٌ وتفرغ السلال المصنوعة من الصفصاف المجدول وأكياس البنادق ، ويصحب ذلك تقديم الكوكيتيلات والسندوتشات . وتعد بذلات الصيد . ويقارن الحاضرون بين أنواع البنادق والخرطوش ، حديث لا يفصل عن حياة الصياد ، إنه يبدأ الآن متشعباً ، تافهاً ، حكيماً . وينتهي الغسق الخالي من القمر بلونه المائل للصفرة ، وتأخذ أشعة

الشمس في الانحسار ببطء إلى أعلى نحو سماء المساء بلونها البنفسجي الفاتح الشفاف. إنه طقس رائع ككوب الماء ، يبعث في النفس النشاط .

ونسير أنا و « جوستين » في نسيج همونا التي تشبه بيت العنكبوت ، كأناس قد إفترقوا بالفعل عن بعضهم البعض . إنها ترتدي البذلة المخملية المعتادة — السترة بجيوبها الطويلة المائلة : وقبة كقبعات التلميذات — من القطيفة الناعمة وقد شدت على رأسها حتى حاجبيها : وأحذية جلدية طويلة تصل إلى ما فوق الركبة . لم نعد ننظر إلى بعضنا البعض مباشرة ، ولكننا تبادلنا حديثاً أجوفاً لا علاقة له بأمورنا الشخصية . كنت أعاني من صداد يشق الرأس . وألحت على لأخذ بندقيتها الزائدة عن حاجتها - بندقية خفيفة جميلة عيار ١٢ من صناعة « بوردي » ، بندقية نموذجية لمن كانت عينه ويده ينقصها المران مثل عيني ويدي .

هناك ضحك وتصفيق حيث تسحب القرعة لتكوين المجموعات المختلفة . علينا أن نحتل مواقع متفرقة عن بعضها البعض بصورة كبيرة حول البحيرة ، وكان على هؤلاء الذين أصابهم القرعة في المواقع الغربية ، أن يقوموا بجولة طويلة على طريق احتياطي عبر « المكس والمناطق الصحراوية . وسحب قادة المجموعات على التوالي ، قصاصات الورق من القبة ، وقد كتب على كل قصاصة منها اسم واحد من الضيوف . كان « نسيم » قد سحب بالفعل ورقة عليها اسم « كابوديستريا » الذي كان يرتدي سترة جلدية قصيرة أنيقة أسورة أكمامها من القطيفة ، وبظلولاً قصيرة من الجبردين البني المائل للصفرة وجورباً منقوشاً بالربعات . كان يرتدي قبة قديمة من الصوف الخشن ، بها ريشة ديك بري ، وقد تزين بأحزمة مليئة بالخرطوش كانت تتدلي من فوق كتفه . ثم سحب اسم « رالي » والجنرال اليوناني العجوز ، بجيوب عينية الرمادية المنتفخة وبظلوله القصير المليء بالرقع ، ثم « باليس » القائم بالأعمال الفرنسي والذي يرتدي سترة من جلد الخراف ، وأخيراً أنا .

وانضمت « جوستين » و « بومبال » إلى مجموعة اللورد « إرول » . لقد اتضح الآن أننا يجب أن ننقل . وفجأة ولأول مرة أحس بخوف حقيقي بينما أراقب بريق عيني « نسيم » الذي لا معنى له . ونحتل أماكننا المختلفة في أجمات الصيد . ويعالج « نسيم » أشرطة جراب بندقية ثقيل مصنوع من جلد الخنزير . كانت يده ترتعشان . وبانتهاء كل الإعدادات تبدأ السيارات بزئير آلاتها ، وعند تلك الإشارة تندفع مجموعة من الخدم تركض من المنزل الكبير باكواب الشمبانيا ليقدموا لنا كأس الإنطلاق . ولقد مكنت هذه الضجة « جوستين » من أن تجيء إلى سيارتنا بحجة أنها تناولني حزمة من الخرطوش الذي لا يصدر عنه دخان ، وأن تضغط ذراعي بحنان وأن تركز على لمدة نصف دقيقة هاتان العينان السوداوان المعبرتان ، واللتان تلمعان الآن بتعبير يكاد المرء يخطئ فهمه على أنه دليل الارتياح . وجاهدت أن أجعل شفتي تبسمان .

وتحركنا نسير في مشاورة و « نسيم » يجلس إلى عجلة القيادة للتحلق بأخر أشعة الشمس الغاربة بينما يغادر المدينة لننطلق على طول الكثبان الرملية المنخفضة نحو « أبو قير » . كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية ، « فرالي » لا يكف عن الثرثرة ، و « كابوديستريا » يعمل على تسليتنا بسرود نوادر والده الأسطوري المجنون (لقد كان أول عمل أقدم عليه عندما أصابه الجنون أن رفع دعوى ضد ولديه يتهمهما فيها بأنهما قد ولدا عن عمد وسابق قصد من جانبهما بطريقة غير شرعية) كان يرفع أصبعه من وقت لآخر ليلمس الضمادة القطنية التي كانت تمسك بها عصابة سوداء كي تحتفظ بها في موضعها . كيف حدث أنني لم أتعرف في « كابوديستريا » على الرجل الذي صنع كل تعاسات « جوستين » — الرجل ذي العصابة السوداء؟ وأخرج « باليس » قبعة قديمة مصنوعة من جلد الغزال ، لها حافتان عريضتان كالاذنان مما جعله يبدو كأرنب فرنسي في حالة تفكير عميق . ومن وقت لآخر كانت تلتقي عيناى بعيني « نسيم » في مرآة العربة فيبتسم .

كانت العتمة قد خيمت عندما وصلنا إلى شواطئ البحيرة والطائرة المائية القديمة تهمهم وتزأر في انتظارنا. كانت ممثله بأكوام من الشراك والخدع . وجمع « نسيم » نفسه زوجاً من بنادق صيد البط الطويلة وركائز ثلاثية القوائم قبل أن يلحق بنا في القارب القليل العمق ، المسطح القاع ، لننطلق عبر البركة الموحشة بغابها المتشابك إلى المأوى الخرب الذي سنقضي فيه الليلة . واختفت كل الأفاق بشكل فجائي بينما تشق القنوات المعتمة بمركبنا الشديد الضوضاء ، نزعج زوار البركة من الطيور بزئير آلتنا، والغاب يعلو فوق رؤوسنا . وهنا وهناك ترتفع قمم نبات الحلفا من الجزر رغم إخفاء الماء لها . وينفتح أمامنا مرة أو مرتين ممر مائي طويل ضيق – ونلمح زوبعة من الطيور – البط البري يجرجر أغشيه أرجله عبر سطح الماء الساكن . وبالقرب منا هنا وهناك وقفت الطيور الشرهة في متناول يدينا تتطلع إلينا في فضول ومناكيرها الطويلة ، التي استعبدتها شهيتها المفتوحة ، مليئة بالحلفا . وحولنا الآن ، بعيداً عن الانظار تنهياً مستعمرات البركة المكتظة لقضاء الليل . وعندما توقفت آلات الطائرة المائية ، امتلأ الصمت فجأة بأنين وطنين البط .

وتهب ريح خفيفة نشطة تغضن سطح الماء حول الكوخ الخشبي الصغير الذي ينتظرنا في شرفته حملة النبادق والذين يقومون بحشوها . وهبط الظلام فجأة ، وأصوات البحارة خشنة زاهية مرحلة . وحملة النبادق مجموعة وحشية الطباع يركضون من جزيرة إلى أخرى بنداءاتهم الحادة . وقد شمروا جلابيبهم وشدوها حول وسطهم ، غير مباليين بالبرد . إنهم يبدون سود الشره ضخام الأجسام وكأنهم قد نحتوا من الظلام . إنهم يشدوننا واحداً بعد الآخر إلى الشرفة ثم ينطلقون في القوارب القليلة العمق المسطحة القاع لينصبوا كل عدتهم من الشراك والخدع بينما نتجه نحن إلى الحجرة الداخلية حيث تضيء بالفعل مصابيح بترولية . وتأتي من ناحية المطبخ الصغير رائحة الطعام التي تبعث الطمانينة في نفوسنا والتي نستنشقها في استحسان ، بينما نتخلص من

بناقدنا وأحزمة الخرطوش ، ونركل أحذيتنا بعد خلعها . وينغمس الرياضيون الآن في لعب الطاولة أو الحديث عن الصيد ، ذلك الحديث الذي يستغرق الرجال ويدخل البهجة على نفوسهم أكثر من أي حديث آخر في الدنيا . « وراي » يحك دهن الخنزير في حذائه القديم المليء بالرقع . إن الطبخ المسبك رائع والنبيد الأحمر قد جعل مزاج الجميع في حالة طيبة .

وعلى أي حال ، في التاسعة ، تستعد غالبية الحاضرين للنوم ، ونسيم منهمك في الظلام في الخارج يلقي بآخر تعليماته لحملة البنادق ويضبط المنبه القديم الصدى ليدق في الثالثة . « وكابوديستريا » وحده لا يبدو عليه أي ميل للنوم . إنه يجلس وكأنما قد غرق في تأملاته ، يرشف نبيذه ويدخن سيجاره المفتوح الطرفين . ونتحدث لفترة من الزمن في مسائل تافهة ، وعلى حين غرة يندفع « كابوديستريا » في نقد كتاب « بورسوارون » الثالث والذي ظهر في المكتبات منذ فترة وجيزة . إنه يقول : « إن ما يدهشني هو أنه يقدم مجموعة من القضايا الروحية وكأنها أشياء عادية ، إنه يصورها من خلال شخصياته . إنني أفكر في شخصية « بار » الرجل الشهواني . إنه يشبهني إلى حد كبير . إن تبريره لحياة الإنسان الشهواني لشيء جيد إلى درجة خيالية — كتلك الفقرة التي يقول فيها : « إن الناس لا يرون فينا غير المظهر الخارجي لحمى الشهوة الفقيرة التي تتحكم في أفعالنا ، ولكن يفوتهم ما يكمن تحت هذا المظهر من رغبة عارمة للجمال . إن المرء يلتقي في بعض الأحيان بوجه من الوجوه التي يتمنى أن يلتهم ملامحه قطعة فقطعة . حتى مضاجعة الجسد الراقد تحت المرء لا تنهي ما بنفسه أو تمنحه الراحة . ما الذي يجب عمله مع أناس مثلنا ؟ » . ويتنهد ثم يبدأ فجأة في الحديث عن « الإسكندرية » في الأيام الخالية . إنه يتحدث بطريقة جديدة فيها الرقة والإنعان ، عن تلك الأيام التي مضت منذ زمن بعيد والتي يرى نفسه يتحرك خلالها كحدث وشاب ، بكل هدوء ودون أي عناء . « لم أصل ألبنة إلى أعماق والدي . كانت نظرتي للأمور نظرة لازعة .

ومع ذلك فربما كانت تخفي تلك السخرية نفساً جريحة . إن الرجل الذي يستطيع أن يقول أشياء سديدة إلى حد أنها تشغل انتباه وذاكرة الآخرين ، ليس رجلاً عادياً ، كان يتحدث ذات مرة عن الزواج فقال ، « إنهم يقننون اليأس في الزواج » . وقال : « كل قبلة إنما هي إخضاع صد سابق » . ولقد صدمني أن نظرتة التي تتلاءم مع الحياة قد تخللها الجنون ، وكل ما بقى لي هو ذكرى بعض الأحداث والاقوال الماثورة . والتي أرغب في أن أترك ورائي قدر ما أستطيع منها » .

وأرقد مستيقظاً في السرير الخشبي الضيق بعض الوقت أفكر فيما كان يقول : الظلام والصمت يلغان المكان خلا صوت « نسيم » السريع في الخارج وهو في الشرفة يتحدث إلى حملة البنادق . إنني لا أستطيع أن التقط الكلمات . ويجلس « كابوديستريا » في الظلام مدة من الزمن قصيرة لينهي سيجارة قبل أن يتسلق ببطء إلى السرير الواقع تحت النافذة . ونام الآخرون بالفعل ، الأمر الذي يمكن الحكم عليه من شخير « رالي » الثقيل . وحل الاستسلام محل خوفي مرة أخرى إنني أفكر الآن وأنا على حافة النوم في « جوستين » مرة أخرى ، أفكر للحظة قبل أن أدع ذكراها تنزلق إلى عالم النسيان الذي لا تسكنه اليوم إلا أصوات بعيدة ناعسة وتأوهات مياه البركة الكبيرة المندفعة . وأستيقظ من لمسة يد « نسيم » الرقيقة وهو يهز كتفي ، لأجد الظلام حالكاً كالقطران ، لقد خذلنا المنبه فلم يدق ، غير أن الحجرة مليئة بأشباح تتغطى وتتئاب وتهبط من أسرتها . وكان حملة البنادق قد تكوروا وهم نيام في الشرفة في الخارج ككلاب الحراسة . إنهم يشغلون أنفسهم الآن بإشعال مصابيح الزيت ، والتي سيضيء وهجها الغريب إفطارنا المتقطع ، والمكون من القهوة والسندويشات . وأهبط درجة المرسى وأغسل وجهي في مياه البحيرة الثلجية . الظلام المطبق يحيط بنا . والجميع يتكلمون بأصوات خفيفة ، وكأنما أثقل عبء الظلام عليهم . دفعات

من الريح تبعث الرعشة في المأوى الصغير المبني فوق المياه على قوائم خشبية هزيلة .

ويعطي كل منا قارب مسطح القاع وشخص يحمل له البندقية . ويقول « نسيم » : ستأخذ « فرج » معك . إنه أكثر حملة البنادق درية ، كما أنه أكثر من يمكن الاعتماد عليهم . وأشكره . وجه بربري أسود مكتئب لا يبتسم ، تحت عمامة بيضاء متسخة . إنه يتناول حاجياتي ويستدير في صمت إلى القارب المظلم . وأتسلق القارب وأنا أهمس مودعا ، ثم أجلس . ويدفع « فرج » بالمدرة لتتارجح بطريقة مرنة ، ويسير بنا القارب في القناة . وفجأة نبحر عبر قلب جوهرة سوداء . المياه زاخرة بالنجوم ، هناك « أوريون » ، « والعيق » يرمي بشرارته المتألقة . وظللنا نزحف في صمت لفترة طويلة فوق صفحة من النجوم تزينها الجواهر ، لم يكن هناك من صوت غير صوت المدرة وهي تنغرز في الطين ، ثم صوتها وهي تسحب منه . ثم نستدير فجأة إلى قناة أوسع لنسمع صوت سلسلة من التموجات وهي تدق مقدمة القارب ، بينما تصل إلينا نفحات لها طعم الملح من هواء البحر الذي لا يمكن رؤية شاطئه .

تباشير الفجر تلوح بالفعل في الجو ، بينما نعبّر ظلام هذا العالم الضائع . والآن ترتجف القنوات الموصلة إلى المياه الفسيحة ، بأقل النقوش التي تكونها الجزر ، ونبتة الحسك ، والحلفا والغاب . ويأتي الآن نقيق جماعات البط وصوت النورس الحاد الرفيع عند شاطئ البحر من جميع النواحي . ويزمجر « فرج » كالخنزير ويدير القارب نحو جزيرة قريبة . وتمسك يدي وهي تتحسس في الظلام ، بالحافة الثلجية لأقرب برميل ، وأبذل جهداً حتى أتسلقه . كانت الأماكن التي سنحتمي بها مكونة من مجرد زوج من البراميل التي هي ألواح خشبية جافة مربوطة معاً وقد غطتها فروع أغصان الغاب ، لتحجبها عن الأنظار . ويمسك « فرج » القارب بثبات بينما أخلصه من عدتي . ولم يعد هناك

ما يفعله المرء الآن غير أن يجلس وينتظر الفجر الذي يشرق في بطنه في مكان ما،
الفجر الذي يولد من هذا الظلام الأسود الآخرس .

الجو الآن قارس البرد حتى أن معطفي الثقل لم يعد يدفئني بما فيه
الكفاية. وقد أخبرت « فرج » بأني سأقوم بنفسي بحشو بندقيتي ، فأنا لا أرغب
في أن تكون بندقيتي الإضافية والخرطوش الموجود في البرميل المجاور ، في
متناول يده، ويجب أن أعترف بأني كنت أحس الخجل وأنا أفعل ذلك ، غير أن
هذا التصرف قد جعل أعصابي هادئة . ويومئ بوجه خال من التعبير ، ويقف
بعيداً بالقرب في دغل الغاب القريب ، وقد بدا متكرراً مثل خيال المآتة . إننا
ننتظر الآن وقد ولينا وجهينا ننظر إلى أبعد آفاق البحيرة – وبدا كأن قروننا
تمر.

وفجأة يشد أنظاري عند نهاية قبة السماء الهائلة فاصل صاحب مرتعش
يبدو كحاجز من الأزمهر الصفراء ينمو بالتدريج إلى شعاع يسقط في بطنه عبر
كتل السحاب الداكنة عند الشرق ، ويزداد الزعيق وحركة الماء في مستعمرات
الطيور حولنا ونحن لا نراها . ويشرق الفجر علينا في بطنه وألم ، كباب نصف
مفتوح ، يدفع الظلام إلى الخلف في قوة . وتمر دقيقة وينزل في لين سلم من
الأقحوان الأصفر الناعم من السماء ليلمس آفاقنا ، وليزود عقولنا وبصائرنا
بأبعاد عن المكان كانت تنقصها . وتشاءب « فرج » بقوة وأخذ يحك جسمه .
وتشتعل الزهور الحمراء بلون الذهب الساخن . وتحول السحب إلى اللون
الأخضر والأصفر . لقد بدأت البحيرة تنفض عنها نعاسها . وأرى خيالات البط
السوداء عبر ناظري نحو الشرق . ويتمم « فرج » : « لقد حان الوقت » . إلا أن
عقرب الدقائق في ساعة معصمي يوضح أنه مازال لدينا خمسة دقائق لنغادر
المكان . وأحسست بعظامي وكأنها قد نقتعت في الظلام . وأحس بالتوتر
والقصور يجاهدان كي يسيطرا على عقلي الناعس . هناك اتفاق ألا يبدأ الصيد
قبل الرابعة والنصف . وأحشو بندقيتي في بطنه ، وأضع حزام الخرطوش إلى

جوارى وفي متناول يدي ، عبر المكان الذي أحتفى فيه . ويقول « فرج » بصورة أكثر استعجالاً : « لقد حان الوقت . » وفي الجوار يوجد صوت طيور مختفية تطير في سرعة أو تغطس في الماء . ويقرفص في وسط البحيرة زوج من دجاج الماء ، وكأنه غارق في التأمل والتفكير . وأكاد أقول شيئاً عندما تنطلق المجموعة الأولى من البنادق في الجنوب - مثل طقطقة كرات الكريكييت الصادرة من بعيد .

والآن بدأت تمر الطيور المنفردة ، واحد ، اثنان ، وثلاثة . ويزداد الضوء ويتسع ، متحولاً من اللون الأحمر إلى الأخضر . وتحرك السحب لتكشف عن فجوات هائلة في السماء . إنها تقشر الصباح كما تقشر الفاكهة . وترتفع نحو السماء على بعد مائتي ياردة أربعة تشكيلات منفصلة من البط ، كل منها على صورة رأس السهم . وتبعد من فوق في نظام بدعي وهي تميل بزاوية ، وأفتح عليها نيران من بندقية اختيرت خصيصاً للمسافات البعيدة . إلا أن البط كالمعتاد ، أسرع وأبعد مما يبدو . وتمر الدقائق « تتكتك » في القلب ، وتنطلق النيران من بنادق أكثر قرباً ، إن البحيرة الآن في حالة عامة من النشاط . ويفد البط الآن في مجموعات تتزايد بصورة لا بأس بها . ثلاثة ، خمسة ، تسعة : إنها تطير على ارتفاع قليل وفي سرعة . وحفيف يصدر عن أجنحتها وهي تشق السماء بريشها وقد مدت أعناقها . ومرة أخرى تنطلق إلى أعلى في وسط السماء تشكيلات البط البري ، وقد تجمعت ينعكس عليها الضياء مثل الطائرات ، تشق طريقها في طيران سهل بطيء . البنادق تزحم الهواء برصاصها وتسطو على أسراب البط البري الطائرة ، نحو البحر الطليق في خط متعرج . ويأتي الأوز البري بعد ذلك في تتابعات أعلى وأبعد من أن تتال ، وصرخاته النائحة ترن في وضوح عبر مياه مريوط وقد غمرتها الشمس الآن .

لم يعد هناك وقت للتفكير : فالأنواع المختلفة من بط المياه العذبة والبط البري تصفر فوقى وكأنها السهام المنطلقة ، وأبدأ إطلاق النار في ببط وبطريقة منهجية . الأهداف وفيرة ، إلا أن المرء غالباً ما يجد صعوبة في اختيار واحد منها

خلال الجزء من الثانية الذي تكون فيه أمام مرمى البندقية . ووجدت نفسي أطلق النار في سرعة مرة أو مرتين على إحدى التشكيلات . فإن أصيب طائر في الصميم فإنه يترنح ويدور على نفسه ، ويتوقف للحظة ثم يغطس في رشاقة كمنديل يسقط من يد سيدة . يلتئم نبات الغاب على أجسام البط البنية ، إلا أن « فرج » الذي لا يتعب ولا يكل يتجه نحوها كالمجنون ليسترد الطيور . إنه يقفز في بعض الأحيان إلى الماء « بجليته ! وقد شدها إلى حجاب الحاجز . وتوهج ملامحه بالانفعال . وهو يطلق ما بين الغينة والآخرى شهقة حادة .

إنها تعد الآن من كل مكان ، من كل زاوية يمكن تصورها وبكل درجات السرعة . وتعوى البنادق وتختلط في الأسماع بينما تسوق الطيور إلى الأمام وإلى الخلف عبر البحيرة . بعض الأسراب قد أرهقتها الحرب بشكل واضح ، رغم رشاقتها وخفة حركتها ، بعد الخسائر الفادحة التي أصابتها ، والبعض الآخر من الطيور المنفردة قد جن جنونها رعباً وفزعاً . وتحط بطة صغيرة غبية للحظة إلى جوار المكان الذي أختبئ فيه ، إنها تكاد تكون في متناول يد « فرج » ، قبل أن تري فجأة الخطر المصدق بها وتقفز منزلقة كالرغوة . وفي تواضع لم أكن شديد السوء رغم أنه من الصعب في ذلك الهيجان ، أن يسيطر المرء على نفسه ليطلق الرصاص بتأن وروية . الشمس ترتفع الآن بصورة لا بأس بها ورطوبة الليل قد تبددت . سأغرق بعد ساعة ، وأنا بتلك الملابس الثقيلة ، في عرقي مرة أخرى . الشمس تلمع فوق مياه « مريوط » المتموجة حيث ماتزال الطيور تطير . إن المكان التي يختبئ فيها الصيادون معتلة الآن بأجساد الضحايا المخلصة ، الدم القاني يجري من المناقير المحطمة ، والريش الرائع ، قد جعله الموت كثيباً .

وأطيل أمد الذخيرة الباقية معي على قدر استطاعتي ، غير أنني أطلق آخر خرطوش في الثامنة والربع ، « وفرج » مايزال يعمل في همة ، يلاحق البط المترنح بين الغاب ، لا يسيطر عليه غير اهتمامه باستعادة ما وقع منها .

وأشعلت سيجارة ، وأحسست لأول مرة وقد نفضت عن كاهلي شبح النذر والتلير - بآني حر في أن أتنفس ، في أن ألم شتات عقلي مرة أخرى . إنه لأمر غريب ، كيف يحد منظر الموت من انطلاقة العقل ، كدرفة الشباك المصنوعة من الصلب ، تفصل المستقبل الذي يتغذى بمفرده على الآمال والرغبات . وأتحسس الشعر النامي على ذقني غير الحليقة وأفكر باشتياق في حمام ساخن ، وإفطار دافئ . « وفرج » ما يزال يستكشف بلا كلل جزر الحلفا . وتراخت البنادق وصمتت بالفعل في أركان البحيرة . وفكرت في « جوستين » باكتئاب مومع ، إنها موجودة في مكان ما هناك عبر المياه التي تغمرها الشمس . لم أكن أخاف كثيراً على سلامتها ، لأنها كانت قد أخذت معها خادمي « حميد » ، كحامل لبلندقيتها .

وأحسست فجأة بالمرح ، وبآني لا أحمل همًا عندما ناديت على « فرج » حتى يكف عن بحثه ويعود بالقارب . وينصاع للنداء على مضض . وأخيراً يغادر المكان ، ونعود أدرأجنا نعبّر البحيرة . خلال نتوءات وممرات الغاب نحو الكوخ .

ويقول « فرج » : « ثمانية أزواج ليست بالصيد الوفير » ، إنه يفكر في زكائب محترفي الصيد التي علينا أن نواجهها عندما يعود « رالي » و « كابوديستريا » . وأقول ، « إنها صيد جيد للغاية بالنسبة إلى ، إنني صياد رديء لم يحدث أن أجدت الصيد كما أجده اليوم » . ودخلنا القنوات المائية الكثيفة النباتات والتي تتأخم البحيرة كمجاري مياه صغيرة .

وأرى في النهاية قارباً آخر ينعكس عليه الضوء يتجه نحونا ، ويتضح فيه بالتدريج منظر « نسيم » المألوف . إنه يرتدي قلنسوته القديمة المصنوعة من الفرو قد ثنى أطرافها التي تغطي أذنيه وعقدها فوق رأسه ، والروح له غير أنه لا يستجيب لي . إنه لا يجلس في مقدمة القارب ، يهيم بعيداً بأفكاره وقد شبك راحتيه فوق ركبتيه . وأزعق : « نسيم » ، كيف كانت أحوالك ؟ لقد اصطدت

ثمانية أزواج ، وفقدت واحداً . « . والآن يكاد القاريان أن يتوازيا ، فقد كنا نتجه نحو مدخل آخر مجرى للمياه يقودنا إلى الكوخ . وينتظر « نسيم » حتى تصبح المسافة بيننا بضع ياردات قبل أن يقول في هدوء غريب ! « هل سمعت ؟ لقد وقعت حادثة . « كابوديستريا » ... » وفجأة ينكمش قلبي داخل جسدي . وأقول متلعثماً ، « كابوديستريا ؟ » . وما يزال يكسو وجه « نسيم » ذلك الهدوء الشيطاني الغريب . هدوء إمري يستريح بعد أن بذل جهداً كبيراً . ويقول ، « لقد مات » ، وأسمع صوت الزئير المفاجئ لآلات الطائرة المائية وهي تبدأ خلف جدار الغاب . ويومئ برأسه نحو الصوت ، ويضيف بنفس الصوت الهادئ : « إنهم يأخذونه إلى « الإسكندرية » مرة أخرى . وتقفز إلى رأسي ألف تفاهة ، ألف سؤال عادي ، غير أنني لا أستطيع أن أقول شيئاً لفترة طويلة من الزمن .

ويتجمع الآخرون في الشرفة وقد بدا عليهم الانزعاج ، يكاد يغمرهم الخجل ، إنه يشبهون مجموعة من التلاميذ الحمقى ، انتهت إحدى ألعابهم بموت واحد منهم . وماتزال الضجة الصادرة من الطائرة المائية والمخيمة على المكان تكسو الهواء . وفي وسع المرء أن يسمع على بعد يساوي نصف المسافة زعيق وضجيج آلات السيارات وهي تستعد للانطلاق . وترقد أجساد البط المكومة والتي لا بد وأن تكون مادة طبيعية للتعليقات الخبيثة ، كشيء سخيف في غير مكانه . ويبدو أن الموت قضية بشعة ، لم تكن معدين إلا لتقبل نصيب معين منه عندما دخلنا البخيرة المظلمة نحمل أسلحتنا . إن موت « كابوديستريا » يعلق في الهواء الراكد كرائحة كريهة ... كنت كتبت سخيفة .

لقد أرسل « رالي » لإحضاره ، فوجد الجسد ممداً ، وقد اتجه الوجه إلى أسفل في مياه البحيرة الضحلة ، وعصابة عينه السوداء تطفو إلى جواره . كان من الواضح أنها حادثة وقعت بالصدفة . كان حامل بندقيته « كابوديستريا » رجلاً متقدماً في السن ، نحيلاً كطائر بحري شره ، إنه يجلس الآن في الشرفة منكباً فوق أكله فول . إنه لا يستطيع أن يقدم عرضاً متماسكاً للواقعة . إنه من

الصعيد يحمل وجهه تعبير شخصي مرهق يوشك على الجنون كالتعبير الذي يرتسم على سمات رهبان الصحراء .

إن « رالي » في حالة عصبية شديدة وهو يشرب جرعات كبيرة من البراندي ، إنه يعيد سرد القصة للمرة السابعة ، لا لشيء إلا ليتكلم حتى يهدئ أعصابه . ورغم أن الجسد لم يمض عليه وقت طويل في الماء ، إلا أن جلده كان يشبه جلد راحتي امرأة غسالة . وانزلقت أسنانه الصناعية من فمه عندما حملوه ليضعوه في الطائرة المائية ، وتحطمت على الأرض فأخافتهم جميعاً . ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت أثراً عميقاً على نفسه . وأحس أنا فجأة بالإرهاق وهو ينال مني وأحس بركبتي وقد أخذتا في الارتعاش . وأتناول كوزاً من القهوة الساخنة ، وأركل حذائي بعيداً ، وأزحف أنا والقهوة إلى أقرب سرير . « رالي » مازال يتكلم في إصرار يصم الأذان ، وراحته الطليقة تشق الهواء في أشكال معبرة . والآخرون يرقبونه في كآبة وفضول لا يعني شيئاً محدداً ، كان كل منهم غارقاً في أفكاره الخاصة . وحامل بندقية « كابوديستريا » مايزال يأكل في صخب كحيوان يكاد يموت جوعاً ، ويرمش في ضوء الشمس . الآن يظهر للعيان قارب به ثلاثة من رجال البوليس وقد جلسوا في حذر داخله . « ونسيم » يرقب منظرهم الهزلي بجاش ثابت ، حتى أنه بدت عليه لمحة سريعة من الرضا ، وكأنه كان يبتسم لنفسه . وترتفع طقطقة الاحذية وقعقة أقعاب البنادق فوق السلالم الخشبية ، إنهم يصعدون إلى أعلى لياخذوا أقوالنا في مذكراتهم . إنهم يجلبون معهم جواً من الشك خطيراً يحوم فوق رؤوسنا جميعاً . ويضع أحدهم القيد في حرص في يديّ حامل بندقية « كابوديستريا » قبل أن يقوده إلى القارب . ويمد الخادم معصميه للقيد الحديدي بطريقة رقيقة خالية من الفهم والإدراك ، نفس الانطباعات التي يراها المرء على وجوه القردة العجوزة عندما يطلب منها أن تؤدي عملاً إنسانياً تعلمت أدائه دون أن تفهم مغزاه . كانت قد بلغت الواحدة قبل أن ينتهي رجال البوليس من عملهم . لا بد أن

باقي المجموعات قد عادت الآن من البحيرة إلى المدينة حيث تنتظرهم أنباء موت «كابوديستريا» . غير أن هذا لن يكون كل شيء .

ونهم واحد بعد الآخر بعدتنا نحو الشاطئ . السيارات في انتظارنا ، وبدأ الآن مرحلة طويلة من المساومات مع حملة البنادق والبحارة الذين يجب أن ندفع لهم أجورهم ، وتفرغ البنادق ، وتوزع الأكياس ، وأرى خادمي «حميد» في كل هذه الفوضى وهو يتقدم على استحياء خلال الزحام وقد أغلق عينه السليمة اتقاءً لضوء الشمس . وأعتقد أنه يبحث عني ولكن كلا : إنه يتجه إلى «نسيم» ويحاوله مظلوماً أزرق صغيراً . إنني أود أن أصف هذه الواقعة بدقة . «نسيم» يتناول الخطاب بيسراه وهو شارد بينما تمتد يمناه داخل السيارة ليضع صندوق الخرطوش في علبة قفازه . ويفحص العنوان دون ترو مرة ، ثم يفحصه مرة أخرى بانتباه ملحوظ . ثم يأخذ نفساً عميقاً وعيناه على وجه «حميد» ، ويفتح الخطاب ليقرا ما هو مكتوب على نصف صفحة من ورق الخطابات . إنه يطالعه في دقيقة ثم يضع الخطاب مرة أخرى في المظروف . وينظر حواليه وقد ارتسم فجأة على وجهه تعبير متغير ، وكأنه قد أحس بالغثيان فجأة ، إنه ينظر حواليه بحثاً عن مكان يتقيأ فيه ، ويشق طريقة خلال الزحام ليضع رأسه على زاوية حائط طيني ويطلق إجهاشة قصيرة لاهثة ، كتلك التي يطلقها شخص جرى حتى تقطعت أنفاسه . ثم يستدير إلى العربة ، وقد سيطر على نفسه تماماً وجفف دموعه ، ليكمل حزم حاجياته . وتمر هذه الحادثة القصيرة دون أن يلحظها باقي الضيوف على الإطلاق .

وترفع الآن غمامات من التراب ، فقد بدأت السيارات انطلاقها نحو المدينة ، وتزعق وتلوح لنا زمرة البحارة الخشنة الطباع ، يودعوننا بابتسامات تبدو وكأنها منحوتة من بطيخ مرصع بالذهب والعاج . ويفتح «حميد» باب السيارة ويتسلق كالقرد . وأقول : « ما الأمر ؟ » ويقول وهو يمد راحتيه الصغيرتين نحوي في اعتذار وتوسل ، وكأنه يعني ، « لا تلم حامل الأخبار

السيئة . « ويقول في صوت خفيض يحاول مواساتي : « سيدي ، لقد رحلت السيدة ، وهناك خطاب في المنزل من أهلك » .

وأحس وكأن المدينة كلها قد تحطمت حول أذني : وأسير في بطن إلى الشقة ، على غير هدي ، كالناجين من زلزال وهم يسيرون في شوارع مدينتهم ، مندهشين عندما يجدون أن كل ما كان مألوفاً لديهم قد تغير . شارع « بيرو » ، شارع « فرنسا » ، جامع « الترابنة » (دولا ب تفوح منه رائحة التفاح) ، شارع « سيدي أبو العباس » (المياة الثلجة والقهوة) ، « الأنفوشي » ، « رأس التين » ، « كنج مريوط » (حيث كنا نجمع الأزهار البرية ، وأنا مقتنع أن ليس في مقدورها أن تبادلني الحب) ، تمثال « محمد علي » ممتطياً جواداً في الميدان . تمثال نصفي صغير مضحك للجنرال « أيرل » الذي قتل في « السودان » عام ١٨٨٥ أمسية زاخرة بعصافير الجنة المقابر في « كوم الشقافة » ، الظلام والتربة الرطبة ، لقد أربنا الظلام « شارع فؤاد » باعتباره الطريق القديم الذي تظله الأشجار ، والذي كان يطلق عليه ذات يوم شارع « روزيت » « هتشيستون » وقد أخل بكل النظام المائي الخاص بالمدينة عندما هدم السدود المقامة على البحر المشهد الموجود في كتاب « عادات » حيث يحاول أن يقرأ لها الكتاب الذي يكتبه عنها . « إنها تجلس في كرسيها المصنوع من الأغصان المجدولة وقد وضعت راحتيها في حجرها ، كأنها ستتخذ وضعا تصور منه ، غير أن نظرة فزع كانت تزداد باضطراب على وجهها . وأخيراً لم يعد في وسعي أن أحتمل أكثر من هذا ، فألقي بالخطوط إلى المدفأة ، وأنا أصبح ، (ما قيمة تلك الصفحات النابغة من قلب مطعون حتى أعماقه النابضة ، ما دمت لا تفهمين منها شيئاً ؟) إنني أستطيع أن أرى بعين خيالي « نسيم » وهو يقطع السلم الكبير في سرعة إلى حجرتها ليجد « سليم » في حالة من الذهول يتأمل الدواليب الفارغة ومنضدة الزينة وقد أزيح كل ما فوقها كأنما أطاح بها مقلب نمر . وتزعق صفارات السفن في ميناء « الإسكندرية وتنوح ، وتمضع

وتجرش محركات السفن مياه الحاجز الداخلي الخضراء التي يكسوها الزيت .
وتدير اليخوت سواريتها نحو السماء وهي تتثنى وتميل في كسل ، وتنفخ دون
جهد كأنها نبضات الأرض ذاتها وهي تنقبض وتمدد . هناك في مكان ما في
قلب التجربة نظام وانسجام يمكن أن نضع أيدينا عليه إذا انتبهنا بما في
الكفاية، وأحببنا بما فيه الكفاية ، أو تذرعنا بالصبر بما فيه الكفاية .
هل سيكون هنالك متسع من الوقت لذلك ؟

الجزء الرابع

كان اختفاء « جوستين » أمراً جديداً يجب احتماله . لقد غير كل النمط الذي قامت عليه علاقاتنا . لقد بدا الأمر وكأنها قد أزاحت حجراً هو واسطة العقد الذي يمسك ببناء أحد الأقواس . ويمكن القول : إنها قد تركتنا أنا و « نسيم » بين الانقراض نواجه مهمة إصلاح علاقة هي التي أوجدتها وقد صارت خواء لغيابها ، يتردد فيها أصداء إثم أحسست أنه سيخيم دائماً من الآن فصاعداً على عواطفني .

كان إله واضحاً لكل إنسان . وبدا ذلك الوجه المعبر مسلوخاً عالياً - شاحباً شحوب تمثال شهيد في كنيسة . وعندما رأيته على تلك الحالة تذكرت بصورة حادة مشاعري الخاصة خلال آخر لقاء لي مع « ميليسا » قبل أن تغادر المدينة إلى المصحّة في « أورشليم » حيث مضى عليها حتى الآن ما يقرب من عام كامل . الصفاء والبرقة اللتان تحدثت بهما عندما قالت : « لقد انتهى الأمر كله وربما إلى غير رجعة على الأقل هذا الفراق » . وغدا صوتها ناعماً دامعاً يطمس أطراف الكلمات . كانت في ذلك الوقت صريعة المرض . فقد انفتحت إصابتها من جديد . « سيكون لدينا الوقت لنراجع ما في نفوسنا ليتني كنت «جوستين»..... إنني أعرف أنك تفكر فيها عندما تضاجعني لا تنكر ذلك ... إنني أعرف يا حبيبي ... إنني أحس بالغيرة حتى مما يطوف بخيالك إنه لأمر فظيع أن يلوم الإنسان نفسه فوق ما يعانيه من شقاء وعذاب .. وعلى كل حال لا تهتم » . ودعكت أنفها وهي تنتفض وحاولت أن تبتسم ، « إنني في حاجة ملحة إلى الراحة

لقد وقع « نسيم » الأ في حبي » . ووضعت راحتي فوق فمها الحزين واختلجت سيارة التاكسي في عنف ، وكأنها شخص ما يعيش على أعصابه . كان

كل شيء حولنا يسير ، نساء الإسكندرية ، وقد غادرن دورهن أنيقات ، وكأنهن أطيا ف صقلت صقلاً جيداً . كان السائق يرقبنا في المرأة كجاسوس . ربما كان يفكر في أن عواطف البيض شاذة مثيرة فاجرة ، كان يراقبنا كما يراقب المرء قطعاً تتعاشر .

« لن أنساك أبداً الدهر » .

« ولا أنا ، اكتبني إلى » .

« سأعود في أي وقت إن أردت عودتي » .

« لا يخالك الشك في ذلك . اشف ، يا « ميليسا » من مرضك . يجب أن تشفى . سأكون في انتظار عودتك . سنبدأ دورة جديدة من الحياة . إن كل شيء ما يزال في أعماقي كما كان . إنني أحس به » .

إن الكلمات التي يتبادلها العشاق في مثل تلك الأوقات تكون محملة بمشاعر مشوهة . إن صمتهم وحده هو الذي يلتزم الدقة المتناهية التي تشدهم إلى الحقيقة . كنا صامتين ، يمسك كل منا بيد الآخر . فعانقتني وأشارت للسائق أن ينطلق .

يكتب « الأرنأوطي » : « وبرحيلها اتخذت المدينة حياله مظهرًا ، تثير غرابة الضعف في نفسه . فحيثما تقع ذكراه عنها على ركن مألوف لديهما ، فإنها تستعيد وجودها في سرعة وحيوية ، مسلطة تلك العينين واليدين الشبحيتين على الشوارع والميادين . وقفزت أحاديث قديمة تبادلاها تلطمه وسط الموائد المصقولة في المقاهي التي جلسا فيها ذات مرة من قبل ، ينظر كل منهما في عيني الآخر كنمرين . كانت تتراءى له في بعض الأحيان وهي تسير أمامه في الظلام ببضع خطوات . كانت تقف لتصلح رباط صندلها فيلحق بها وقد أسرع دقات قلبه ، ليجد أنها واحدة غيرها . وبدت له بعض الأبواب وقد أوشكت أن تفتح لتسمح لها بالدخول . فكان يجلس يرقبها في عناد . وفي أحيان أخرى كان يتملكه فجأة اعتقاد لا يقاوم بأنها على وشك أن تصل في قطار معين ، فيسرع إلى

المحطة ويخوض بين جمهرة المسافرين كما يخوض المرء نهرًا . أو ربما جلس في غرفة الانتظار المكتومة في المطار بعد منتصف الليل يرقب الراحلين والقادمين ، كأنما ستفاجئه بعودتها . وسيطرت بهذه الطريقة على خياله ، وعلمته إلى أي مدى كان إدراكه ضعيفًا . وحمل معه ثقل إحساسه برحيلها حيثما ذهب كما يحمل المرء طفلًا ميتًا لا يستطيع التخلي عنه .

ولقد هبت في الليلة التي أعقبت رحيل « جوستين » عاصفة رعدية بالغة الحدة . كنت قد همت لساعات تحت المطر ، نهبًا ليس فقط لمشاعر عجزت عن التحكم فيها ولكن أيضًا لتبكيك ضميري لما جال بخاطري من مشاعر لا بد وأن يعاندها الآن « نسيم » . وفي صراحة ، فإنني لم أجرؤ على العودة إلى شقتي الخالية ، حتى لا يغريني نفس الطريق الذي كان « بورسواردن » قد سلكه في غاية اليسر والسهولة ، مع قليل من العمد وسبق الإصرار . وبينما أقطع « شارع فؤاد » للمرة السابعة ، بلا معطف ، ولا قبعة ، في ذلك المطر المدمر الذي يلف كل شيء ، تصادف أن لمحت الضوء في نافذة « كليا » العالية ، فاندفعت إلى أعلا أدق الجرس . وأنَّ الباب الخارجي وهو يفتح ، فخطوت من الشارع المظلم بأمطاره الهادئة كالميازيب ورشاش فتحات البالوعات وقد فاضت منها المياه . وفتحت لي الباب ، وبظفرة واحدة أدركت حالتي . وسمحت لي بالدخول ، لأخلع ملابسي المبتلة وأرتدى جلبابًا أزرقًا . ونعمت بنار المدفأة الكهربائية الصغيرة وأخذت تعد لي القهوة الساخنة .

كانت ترتدي بيجامتها ، وقد مشطت شعرها الذهبي استعدادًا للنوم . ونسخة من كتاب « بالعكس » موجودة على الأرض وغلافها إلى أسفل إلى جوار المنفضة حيث توجد بها سيجارة تحترق . وظل البرق يومض عند النافذة بصورة متقطعة ، يضيء وجهها الرصين بومضاته التي تماثل ومضات الماغسيوم ، وتخرج الرعد وتلوي في السماوات الحالكة خارج النافذة . كان من الممكن إلى حد ما أن اتخلص من مخاوفي من ذلك الهدوء بالحديث عن

«جوستين» . وبدأ لي أنها تعرف كل شيء - لم يكن في الاستطاعة إخفاء شيء عن فضول سكان «الإسكندرية» . ويمكن القول ، أنها كانت تعرف كل شيء عن «جوستين» .

قالت «كليا» في قلب كل هذا : «لابد أنك قد خمنت أن «جوستين» كانت هي المرأة التي أخبرتك ذات مرة أنني قد أحببتها حباً جماً» .

لقد كلفها هذا القول جهداً كبيراً . كانت تقف إلى جوار الباب وقد ارتدت بيجامتها ذات الخطوط الزرقاء ، وقد أمسكت قدح القهوة في إحدى يديها . وأغلقت عينيها وهي تتكلم ، وكأنها تتوقع ضربة على أم رأسها . وسالت في ببطء دمعتان من عينيها المغلقتين وانحدرتا حول أنفها . وبدأت كوعل صغير انكسر مفصل قدمه . وأخيراً قالت في صوت هامس : «آه ، دعنا لا نتحدث عنها مرة أخرى ، إنها لن تعود أبداً» .

ولقد حاولت فيما بعد أن أغادر المكان إلا أن العاصفة كانت على أشدها وملابسي مبتلة إلى درجة لا يمكن تصورها . وقالت «كليا» : «في وسعك أن تبقى هنا معي» . ثم أضافت في رقة جعلتني أحس بغصة في حلقي «ولكن أرجوك - لا أدري كيف أقولها - أرجوك ألا تضاجعني» .

ورقدنا سوياً في ذلك السرير الضيق نتحدث عن «جوستين» بينما العاصفة تدوي في الخارج ، والأمطار المندفعة من عند شاطئ البحر تحك زجاج نوافذ الشقة . كانت ترقد الآن هادئة في نوع من الاستسلام الذي كان يفصح عن نفسه بطريقة مؤثرة . وأخبرتني الكثير عما في «جوستين» والذي لم يكن يعرفه سواها ، تحدثت عنها في حيرة ورقة كما يتحدث عامة الناس عن ملكة محبوبية غير أنها تثير الحنق والغضب .

وعندما تحدثت معها عن مجازفات «أرناؤوطي» في عالم التحليل النفسي قالت وهي تحس أن الأمر مسل : «إنها لم تكن بالفعل ماهرة ، كما تعلم ، إلا أنها كانت تمتلك فكر حيوان برى وقع في مأزق . إنني لست متأكدة من أنها قد

فهمت بالفعل موضوع تلك الفحوص . رغم أنها كانت تراوغ الأطباء إلا أنها كانت صريحة للغاية مع أصدقائها .

مثلا كل تلك المكاتبات حول كلمات « واشنجطن . د . ك . » والتي تدارسوها كثيراً ، هل تتذكر ؟ لقد سألتها ذات ليلة بينما كنا نرقد هنا سوياً أن تشرح لي ما ترتبط به تلك العبارة . بالطبع كانت تثق في تعقلي بشكل مطلق . فأجابت دون أن تقع في خطأ (كان من الواضح أنها قد درست هذا الأمر بالفعل رغم أنها لم تخبر « أرناؤوطي » بذلك) . توجد مدينة قرب « واشنجطن » تدعى « الإسكندرية » . وكان أبي دائم الحديث عن الذهاب إلى هناك لزيارة بعض الأقارب البعيدين . وكانت لهم ابنة تدعى « جوستين » في مثل عمري بالضبط .

ولقد جئت « جوستين » تلك وعزلات . كان قد اغتصبها أحد الرجال . وعندئذ سألتها عن معنى د . ك . فقالت « داكابو كابوديستريا » .

إنني لا أدري كم أستغرق ذلك الحديث أو كيف انتهى بنا إلى النوم . غير أننا استيقظنا صباح اليوم التالي متعانقين لنجد أن العاصفة قد كفت . والمدينة نظيفة وكأنها قد مسحت بالإسفنج . وتناولت إفطاراً سريعاً واتخذت طريقي نحو مكان « منمجان » ، لأحلق ذقني ، عبر شوارع قد غسل المطر ألوانها الأصلية حتى أنها كانت تتوهج بالدفء والجمال في ذلك الطقس الناعم . كنت ما أزال احتفظ بخطاب « جوستين » في جيبتي غير أنني لم أجراً على قراءته مرة ثانية ولا تحطمت راحة البال التي منحني إياها « كليا » . غير أن العبارة الافتتاحية ظلت تدوي في رأسي في إصرار عنيد نابض : « إذا قدر لك أن تعود حياً من البحيرة فستجد هذا الخطاب في انتظارك » .

وفي الشقة في غرفة الاستقبال على رف المدفأة كان هناك خطاب آخر يعرض على عقدًا لمدة عامين كمدرس في مدرسة كاثوليكية في الصعيد . وأجلس للحال دون أدنى تفكير وأكتب مسودة موافقتي . إن هذا الأمر سيغير كل شيء مرة

أخرى ، سيحررني من شوارع المدينة التي أخذت تلاحقني أخيراً حتى أنني أحلم بأنني أسير بلا نهاية جيئةً وذهاباً ، أبحث عن « ميليسا » بين الشعلات المحتضرة في الحي العربي .

وبإرسال خطاب القبول هذا بالبريد تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياتي . إنه يحدد موعد انفصالي عن المدينة التي وقعت لي فيها أحداث كثيرة ، ذات أهمية خطيرة ، أحداث من الكثرة بمكان حتى أنها جعلتني أسرع نحو الشيخوخة . ومع ذلك فإن الحياة ستحمل نبضها ساعات وأياماً لفترة محدودة من الزمن . ستتوهج نفس الشوارع والميادين في خيالي كما يتوهج الفراغة في التاريخ . حجرات بذاتها ضاجعت فيها عشيقتي ، موائد ، مقام بذاتها حيث سحرني ضغط الأنامل فوق معصمي ، وذلك الإحساس بإيقاعات « الإسكندرية » والذي ينتقل عبر الشوارع الحارة إلى أعلى ، إلى الأجساد التي لا تستطيع أن تترجمها إلا إلى قبلات جائعة ، أو عبارات تودد وتحبب في أصوات مبحوحة من الدهشة والحيرة . إن هذه الفواصل ، في حياة تلميذ الحب مرة ، غير أنها ضرورية لنموه ونضجه . إنها تساعد المرء كي يجرد نفسه بصورة ذهنية من كل شيء عدا الرغبة العارمة في مزيد من الحياة .

والآن يعاني الوضع الراهن للأمور أيضاً عملية تغيير غامضة ، فقد بدأت عمليات رحيل أخرى . « نسيم » ذاهب إلى « كينيا » في إجازة . نال « يومبال » الترقية ونقل إلى وظيفة بالمحكمة العليا « بروما » حيث سيكون دون شك أسعد حالا . وبدأت سلسلة من حفلات الوداع التي تحقق أهداف كل منا ، إلا أنها كانت حفلات ثقيلة الظل لغياب الشخص الوحيد الذي لم يعد يذكره أحد - « جوستين » . من الواضح أيضاً أن حرباً عالمية تزحف علينا في بطء عبر مضايقات التاريخ - تضاعف مطالبنا إزاء بعضنا البعض وإزاء الحياة . وتعلق رائحة الدم الحلوة إلى حد الغثيان في الجو المعتم وتعمل على خلق إحساس بالإثارة والغرام والاستهتار . وهي نغمة كنا نفتقدها حتى الآن .

إن الثريات التي في المنزل الكبير والتي بدأت أكره قبورها تتوهج فوق الجمع الذي التأم شمله ليودع صديقي . إن الجميع هناك ، الوجوه والتواريخ التي عرفتها معرفة جيدة ، « سفيفا » ترتدي الأسود ، « وكليا » ترتدي رداء ذهبياً ، « جاستون » ، « كلير » ، و « جابي » . والاحظ أن اللون الرمادي قد بدأ يأخذ طريقة بصورة طفيفة إلى شعر « نسيم » خلال الأسابيع الأخيرة . « بتوليميو » و « فؤاد » يتشاجران بكل الحيوية التي يتمتع بها العشاق القدامى . وترتفع حول الحيوية السكندرية الأصيلة وتهدأ إلى مناقشات هشة حقيقة كالزجاج المشغول . هنا نساء الإسكندرية بكل خبثهن المذهب يودعن الرجل الذي أسرنه بالسماح لهن بمصادقته . أما عن « بومبال » ذاته فقد غدا منذ نال الترقية أثنى مما كان ، وأكثر ثقة في نفسه . وأصبح لمنظر وجهه الجانبي شبيهاً معيناً « بنديرون » . إنه يفضي إلى بقلقه على في صوت خفيض ، إننا لم نلتق منذ بضعة أسابيع اللقاء الراجب ، لم يسمع هو بمشروع عن التدريس إلا الليلة . وأخذ يكرر ، يجب أن ترحل ، أن ترجع إلى أوروبا . إن هذه المدينة ستقوض إرادتك . ماذا سيقدم لك الصعيد ؟ حر مشتعل ، غبار ، ذباب ، عمل حقير ... وعلى كل حال فإنك لست « ريمبود » .

وتحول الوجوه التي تتموج حولنا وترشف الأنخاب دون الرد عليه ، ويغمرني هذا الأمر بالسعادة إذ ليس لدي ما أقوله . وأحلق فيه أومئ براسي ، وأنا أحس بخدر هائل . وتمسكني « كليا » من معصمي لتسخبني جانباً وتهمس لي : « بطاقة من « جوستين » . إنها تعمل في « الكيبوتز » اليهودي في فلسطين . هل أخبر « نسيم » ؟ .

« نعم . كلا . لست أدري » .

« إنها تطلب مني ألا أخبره » .

« إذن فلا تخبره » .

وتحول كبريائي دون سؤالها إذا كانت هناك أية رسالة من أجلي . وأخذ

الجمع يغني تلك الاغنية القديمة « لأنه إنسان طيب خفيف الروح » ، في فترات مختلفة وبلهجات متنوعة . وغدا وجه « بومبال » قانئاً من فرط سعادته . وأنزل يد « كليا » بلطف حتى الحق بالغناء . والقنصل العام الضئيل الجسد يأتي بحركات من يديه وجسده ويتملق « بومبال » . إنه مرتاح ارتياحاً كبيراً لرحيل صديقي حتي أنه ارتدي لباس الصداقة والاسى بصورة تبدو وكأنها نوبة مرضية . وتبدو مجموعة القنصلية الإنجليزية في جو كثيب كأنها عائلة من الديكة الرومية تبدل ريشها . وتتابع مدام « فنيوتا » النغم بنقرات من يدها الرشيقة المكسوة بالقفاز . والخدم السود بقفازاتهم البيضاء الطويلة يتحركون من مجموعة إلى أخرى من مجموعات الضيوف في خفة كاقمار مخسوفة . وأجد نفسي أفكر في الذهاب إلى إيطاليا أو فرنسا : حتى أبداً نوعاً جديداً من الحياة : لن تكون حياة مدنية في تلك المرة ، ربما في جزيرة في خليج « نابولي » ... غير أنني أدرك أن المشكلة التي بقيت بلا حل في حياتي ليست هي مشكلة « جوستين » ولكنها مشكلة « ميليسا » . فقد كان المستقبل ، إذا كان هناك ثمة مستقبل ، مرتبطاً بها دائماً على نحو غريب . ومع ذلك فلنني أحس بعجز عن التأثير فيه بالقزارات أو حتى بالاماني . إنني أحس بأن على أن أنتظر في صبر حتى تلتئم آثار تاريخنا الضحلة مرة أخرى ، حتى تلتقي خطانا مرة أخرى . ربما يستغرق هذا الأمر سنوات - ربما يكون كلانا قد ابيض شعره عندما يتغير مجرى التيار فجأة . أو قد يموت الأمل وهو مازال وليداً ، وتسحقه تيارات الأحداث كحطام سفينة غارقة . إنني لا أثق في نفسي إلا بقدر محدود للغاية . النقود التي تركها « بورسواردن » ما تزال في البنك - لم ألس مليماً واحداً منها . إنه يمثل هذا القدر من المال يمكننا أن نمضي عامين نتمتع بالشمس في كل مكان رخيص .

« ميليسا » ما تزال تكتب إلى تلك الخطابات المرحلة اللامبالية والتي أعاني صعوبة حقيقية في الرد عليها إلا بردود باكية عن الأحوال التي أعيشها أو عن

تبذيري وفشلي . ما أن أغادر المدينة حتى يسهل الأمر على . سيفتح أمامي طريق جديد . ساكتب لها في صراحة مطلقة لأخبرها بكل ما أشعر به - حتى بالاشياء التي أؤمن أنها لن تستطيع فهمها أبداً على الوجه الصحيح . إن «نسيم» يقول للبارون « ثيبولت » : « ساعد في الربيع فترة الصيف في » أبو الصير * . لقد عقدت النية على الاسترخاء لمدة تقرب من عامين . فقد بذلت جهداً شاقاً في العمل غير أنه لا يستحق ذلك » . ورغم الشحوب الشجي الذي كان يكسو وجهه فقد كان في وسع المرء أن يرى ما فيه من شعور جديد بالطمأنينة ، وراحة البال ، ربما كان قلبه يعاني التشتت والحيرة ، غير أن أعصابه قد هدأت أخيراً . إنه ضعيف ، ضعف المتماثل للشفاء ، لكنه لم يعد مريضاً . وتحدث وتبادل النكات لفترة في هدوء . فمن الواضح أن صداقتنا سوف تلتئم من تلقاء نفسها إن عاجلاً أو آجلاً - فكلانا لديه الآن ذخيرة مشتركة من التعاسة يمكن أن يجتر منها . وأقول له « جوستين » فيشهو قليلاً وكأن أحدهم قد دفع بشوكة تحت ظفر إصبعه . « إنها تكتب من فلسطين » . ويومئ برأسه في سرعة ، ويشير إلى إشارة بسيطة : « إنني أعرف . فقد اقتفينا أثرها . لا داعي لـ .. إنني أكتب إليها . في مقدورها أن تظل بعيداً كيفما تشاء . وتعود وقتما تشاء » .

من الغباء أن يجرمه المرء من الأمل والعزاء الذي يمنحه له هذا الأمل ، ولكنني أدرك الآن أن « جوستين » لن تعود أبداً على أسس حياتها الماضية . إن كل جملة في خطابها إلىّ توضح هذا المعنى . لسنا نحن الذي هجرتنا هذا الهجران ولكنه نمط الحياة الذي هدّد عقلها - المدينة ، والحب ، مجموع كل ما تقاسمناه معاً . ماذا كتبت له ، كنت في حيرة ، كلما تذكرت النهضة القصيرة التي صدرت عنه عندما كان مستنداً إلى الحائط المطلي باللون الأبيض ؟

* يقصد المؤلف « أبو صير »

إنني أسير على الشواطئ المهجورة ، صباح الأيام الربيعية عندما تتمدد الجزيرة في ببطء بعيداً عن البحر في الساعات الأولى لشرق الشمس ، أحاول أن أستعيد ذكريات العامين اللذين قضيتهما في صعيد مصر . ومن الغريب أن يكون كل شيء عن « الإسكندرية » مليئاً بالحياة حتى أنسى لا أتذكر إلا القليل عن تلك الفترة الضائعة . أو هي ربما ليست على هذا القدر من الغرابة - إذ عند مقارنتها بالحياة التي عشتها في المدينة فإن حياتي الجديدة كانت كثيفة رتيبة .

إنني أتذكر الجهد الذي يقصم الظهر في العمل المدرسي ، النزاهات في الحقول المنبسطة الغنية بمحاصيلها الفائضة والتي تتغذى على عظام الموتى من الرجال: النيل الأسود بغذائه من الطمي يتحرك سميئاً ممتلئ الجسم إلى البحر عبر الدلتا: الفلاحون الذين تمكنت البلهارسيا منهم والذين تشع النبالة والصبر من أسمالهم يبدون كاختراعات منزوعة الملكية : قساوسة القرية ينشدون ترانيمهم: الأبقار المعصوبة تدير عجلة الساقية البطيئة ، معصوبة العينين حتى تحمى من رتابة عملها - انظر إلى أي مدى يمكن أن يغدو العالم صغيراً ؟ لم أقرأ شيئاً خلال تلك الفترة ، ولم أفكر في شيء ، لم أكن أي شيء . كان آباء المدرسة كرماء معنى فتركوني بمفردي خلال أوقات فراغي ، ربما أحسوا عدم استطابتي للملبس وللجهاز الإداري الكهنوتي .

أما الأطفال فقد كانوا بالطبع مصدر عذاب لي - ولكن أي مدرس حساس لا يردد في أعماقه كلمات « تلتسوي » الرهيبة : - « ما أن أدخل مدرسة وأرى مجموعة من الأطفال ، مهلهلي الثياب نخاف الأجسام قذرين إلا أن عيونهم صافية تطفر منها أحياناً تعابير ملائكية ، حتى يسيطر على القلق والرعب ، وكأنني قد رأيت بعض الناس وهم يغرقون » .

ورغم زيف المكاتب إلا أنني حافظت على اتصال غير منتظم مع « ميليسا » التي كانت تصلني خطاباتاً بطريقة منتظمة ، وكتبت لي « كليا » مرة أو مرتين، إلا أن الشيء الذي كان غاية في الغرابة هو أن « سكوبي » العجوز كان متضايقاً

لأنه افتقدني بصورة كبيرة كما عبر عن ذلك بنفسه . كانت خطابهات مليئة بالسخرية المدهشة من اليهود (والذي كان يشير إليهم على الدوام مستهزئاً - « بالديكة القارضة ») . وكذلك كان غريباً للغاية أن يشير إلى اللواتين (الذين أطلق . عليهم اسم الخناث) . لم أفاجأ عندما علمت أن النبليس السري قد ألقى به واستغني عنه ، وغداً في مقدوره الآن أن يمضي معظم اليوم في فراشه و « زجاجة خمر قوية » في متناول يده ، إلا أنه كان يحس الوحدة ، لذا فقد كتب إليّ 'يراسلني' .

كانت تلك الخطابات مفيدة لي . فإن شعوري بأن كل شيء غير حقيقي كان قد نما إلى درجة أنني لم أعد أؤمن ذاكرتي في بعض الأحيان ، فأجد صعوبة في أن أصدق بأن هناك على الإطلاق شيئاً كمدينة « الإسكندرية » .

ما إن ينتهي عملي حتى أغلق حجرتي على وأزحف إلى سريري ، الذي يوجد إلى جواره صندوق أخضر مصنوع من حجر البشم مليء بالسجاير المحشوة بالحشيش . وإن كان البعض قد لاحظ نهجي في الحياة أو علق عليه فإنني لم أترك على الأقل أي ثغرة للنقد في عملي . كان من العسير أن يغبطني أحد لرغبتي المفرطة في الوحدة . وللحقيقة فإن الأب « راسين » قد بذل معي محاولة أو محاولتين كي يستثير همتي . كان أكثرهم حساسية وذكاء وربما أحس بأن صداقتي له قد تلطف من وحدته الفكرية .

كنت حزيناً من أجله وأسفاً على نحو ما لعجزني عن الاستجابة لتلك العروض الودية . غير أنني كنت مصاباً بتبلد كان يزداد بصورة تدريجية ، جمود ذهني جعلني أحجم عن الاتصال بالآخرين . وقد رافقته مرة أو مرتين في نزهة إلى جانب النهر (كان عالماً في النبات) واستمعت إليه يتحدث في سر وذكاء عن موضوعه . غير أن المناظر الطبيعية كانت بلا طعم لتفاهتها وعدم تجانسها مع الفصول . وبدأ أن الشمس قد لفحت شهيتي لكل شيء - للطعام ، وللصحبة، وحتى للحديث . وفضلت أن أستلقي في سريري أحملق في السقف

وأتسمع الضوضاء حولي في جناح المدرسين : الأب « جودير » يعطس ، يفتح الأدراج ويفلقها ، الأب « راسين » يعزف على نايّة بعض المقطوعات مرة أخرى ، وتتلاشى أصوات الأرغن وسط أنغامه في الكنيسة المظلمة ، ومنحت السجائر الثقيلة عقلي حالة من الهدوء ، وقد خلصته من كل همومه .

وناداني « جودير » ذات يوم بينما كانت أعبّر السور ، وأخبرني أن أحدهم يرغب في مكالمتي هاتفياً . كان من الصعوبة بمكان أن أدرك ما يقول أو أن أصدق أذني . من الذي سيطلب مكالمتي بالهاتف بعد كل هذا الصمت ؟ ربما كان « نسيم » ؟

كان الهاتف في مكتب الرئيس ، حجرة لا يسمح لأحد بدخولها مليئة بالآثاث الضخم والكتب الفاخرة التجليد . كانت السماعة تطقطق طقطقة خفيفة ، وقد رقدت فوق نشافة الحبر أمامه . ونظر إلى شزراً وقال في قرف : « إنها امرأة تتحدث من « الإسكندرية » . واعتقدت أنها لا بد وأن تكون « ميليسا » ، ولكن لدهشتي انساب فجأة صوت « كليا » سابقاً من شذرات الذاكرة : « إنني أتحدث إليك من المستشفى اليوناني . إن « ميليسا » هنا ، إنها في الحقيقة مريضة للغاية ربما كانت تحتضر » .

إنني لا أنكر أن دهشتي وارتباكِي قد تحولاً إلى غضب .. « غير أنها لم تكن لتسمح لي بأخبارك من قبل ، لم تكن ترغب في أن تراها مريضة - نحيفة للغاية . ولكن يجب أن أخبرك الآن . هل في وسعك الحضور سريعاً ؟ سوف تراك الآن » . واستطعت أن أرى بعين خيالي قطار الليل المتسكع بوقفاته وانطلاقاته التي تنتهي عند المدن والقرى التي يغلفها التراب والحر والقذارة . ربما استغرق السفر طوال الليل . واتجهت إلى « جودير » وسألته أن يسمح لي التغيب طوال نهاية الأسبوع . وقال مفكراً : « إننا نمنح الإذن في الحالات الاستثنائية . كان تتزوج مثلاً أو أن يكون أحدهم مريضاً للغاية » . وأقسم أن فكرة زواج « ميليسا » لم تكن قد خطرت برأسي حتى نطق تلك الكلمات .

وعاودتني الآن أيضاً نكزى أخرى بينما كنت أحزم حقيبتى الرخيصة .
الخاتمان ، خاتما « كوهين » ، إنهما مازالا في علبة أزرار القمصان ملفوفين في
ورقة بنية . ووقفت أتأملها للحظة وأنا أتساءل في حيرة إن كان للأشياء
الجامدة أيضاً مصيرها كما للإنسان . هذان الخاتمان اللعينان ، وفكرت - لماذا ،
بدا الأمر وكأنهما كانا ينتظران هنا طوال هذا الوقت في اشتياق كالآدميين ،
ينتظران أن يوفيا حقهما التافه بأن يوضعا علي أصبع أحدهم وقد وقع في
مصيدة زواج قائم على المنفعة . ووضعت الخاتمين الباشخين في جيبي .

إن الأحداث البعيدة تكتسب وقد حولتها وغيرتها الذاكرة لمعاناً مصقولاً
لأنها ترى في عزلتها ، مفصولة عن التفاصيل السابقة واللاحقة عن خيوط
الزمن ولفافاته . إن ممثلو الأحداث يعانون أيضاً التحويل والتغير ، ويغطسون
في بطن ، أعمق فأعمق في محيط الذاكرة كالأجساد مثقلة ، ويجدون عند كل
مستو في القلب الإنساني تقديرًا جديدًا ، وتقييمًا جديدًا .

لم يكن ألماً ما أحسست به لانتكاسة « ميليسا » ، لكنه كان الغضب ، هياج لا
يستهدف شيئاً ، ويقوم كما اعتقد ، على شعور بالندم . وانتهت كل أفاق
المستقبل الهائلة والتي عمرتها رغم تشتت فكري بصور « ميليسا » ، انتهت
الآن إلى العجز والفشل ، ولم أدرك إلا الآن إلى أي مدى كنت أغذي نفسي بتلك
الآمال . كانت كلها هناك ، كذخيرة ضخمة مؤتمنة ، كحساب يمكنني أن أسحب
منه ذات يوم . وفجأة غدوت الآن مفلساً .

كان « بلتازار » ينتظرني عند المحطة بسيارته الصغيرة . وضغط على يدي
في تعاطف حار وخشن بينما كان يقول في أسلوب عملي : « لقد ماتت المسكينة
مساء أمس . لقد أعطيتهما المورفين كي أساعدها على أن تنتهي دون ألم .
حسناً . وتهدد وهو ينظر إلى نظرة جانبية . « المؤسف أنك غير معتاد على ذرف
الدموع . كان من الممكن أن تخفف عنك » .
« تخفف عن النفس بطريقة سوقية » .

« إنها تعمق العواطف وتغسلها » .

« اصمت يا « بلتازار » ، أصمت » .

« كانت تحبك على ما أعتقد » .

« إنني أعرف ذلك » .

« كانت تحدث عنك دائماً . وكانت كلياً معها طوال الأسبوع » .

« كفى » .

لم تبد المدينة أبداً جميلة مذهلة إلى هذا الحد كما بدت في هواء ذلك الصباح الناعم . وتلقيت الريح الخفيفة القادمة من الميناء على خدي الخشن كقبلة صديق قديم . ولعلت « مريوط » هنا وهناك بين ذرا النخيل ، بين الأكواخ الطينية والمصانع . وبدت الحوانيت على طول « شارع فؤاد » وقد اكتسبت كل لمعان « باريس » وجدها . لقد غدت ، كما أدركت ، مواطناً حقيقياً من صعيد مصر . وبدت لي « الإسكندرية » مدينة رئيسية . وفي الحقائق المشدبة كانت المربيات تدفعن عربات الأطفال بينما كان الأطفال يدفعون أطواقهم . وقطارات الترام تهرس الأرض تحتها وتقعقع وتصلصل . وقال « بلتازار » بينما كنا نقطع الطريق في سرعة : « هناك شيء آخر . طفلة « ميليسا » ، إنها ابنة « نسيم » غير أنني أعتقد أنك تعرف كل شيء عنها . إنها في الفيلا الصيفية . فتاة صغيرة » .

لم أستطع أن أستوعب كل هذا وأنا نشوان بجمال المدينة التي كدت أن أنساها . وخارج مبنى البلدية جلس الكتبة المحترفون على مقاعدهم ، وإلى جوارهم محابرههم وأقلامهم وعرائض التمغة . كانوا يحكون أنفسهم ويثرثرون بطريقة ودية . وصعدنا التبة المنخفضة التي تقوم عليها المستشفى بعد أن قطعنا الجزء الرئيسي من الطريق الذي تظله الأشجار . كان « بلتازار » ما يزال يتكلم عندما غادرنا المصعد وبدأنا سيرنا في مررات الطابق الثاني الطويلة البيضاء .

« لقد نما بيني وبين « نسيم » حائل من البرود . لقد رفض في تقزز رؤية

«ميليسا» بعد ما عادت ، ورأيت في ذلك تصرفاً غير إنساني ، يصعب فهمه .
إنني لا أعرف أما عن الطفلة فإنه يسعى لتبنيها . وأعتقد أنه قد بدأ يمجتها .
إنه يعتقد أن «جوستين» لن تعود إليه طالما احتفظ بطفلة «ميليسا» . أما من
ناحيتي ، وأضاف في ببطء أكثر ، «فإنني انظر إلى الأمر على هذا النحو : لقد
حدث عن طريق واحدة من عمليات التبادل المخيفة والتي يبدو ألا يقدر عليها
غير الحب أن «نسيم» قد أعاد طفلة «جوستين» المفقودة لا «لجوستين»
ولكن «لميليسا» . أترى ؟ » .

إن الشعور بالآفة المخيفة والذي أخذ ينمو في نفسي إنما يعود إلى حقيقة أننا
كنا نقرب من الحجرة الصغيرة التي زرت فيها «كوهين» عندما كان يحتضر .
بالطبع ستكون «ميليسا» راقدة في نفس السرير الحديدي الضيق في الركن إلى
جوار الحائط . وكأن الحياة الحقيقية تقلد الفن في هذه النقطة .

كانت هناك بعض المرضعات في الحجرة ، كن مشغولات ، يهمن حول
السرير ، يعددن الستائر ، ولكنهن تفرقن واختفين بكلمة واحدة صدرت من
«بلتازار» . ووقفنا عند مدخل الباب ننتظر لحظة وقد أمسك كل منا بذراع
الأخر . كانت «ميليسا» شاحبة يابسة . كانوا قد ربطوا فكها بشريط وأغلقوا
عينها ، حتى بدت وكأنها قد نامت أثناء عملية تجميل . وأحسست بالراحة إذ
كانت عيناها مغلقتين ، فقد كنت أخشي نظرتيها .

وتركت وحدي معها لفترة من الزمن ، في ذلك الصمت الهائل الذي ساد
حجرة المستشفى البيضاء الجدران ، وفجأة وجدت نفسي أعاني من حيرة
بالغة . إنه لأمر عسير أن تعرف كيف تتصرف مع الموتى ، إن صممهم الشديد
وصرامتهم البالغة تبدو أمراً مدروساً ومعدداً إعداداً متقناً . ويغدو المرء في
في حضرتهم مرتبكاً وكأنه في حضرة ملكية . وسعلت من خلف يدي وأخذت
أمشي في الحجرة جيئةً وذهاباً وأنا أسترق منها نظرات خاطفة من ركن عيني ،
فتذكرا الاضطراب الذي حل ذات مرة عندما زارتنى ومعها هدية من الزهور .

كنت أرغب في أن أضع خاتمي « كوهين » في أصابعها غير أنهم كانوا قد لفوا جسدها في الأربطة ، وكانت ذراعاهما مشدودتين متصلبتين إلى جوارها ، ففي مثل هذا الطقس تتحلل الأجساد في سرعة حتى أنهم يدفعون بها إلى القبور دون طقوس أو مراسيم . وقلت « ميليسا » مرتين في صوت هامس واهن وأنا أميل بشفتي فوق أذنها . ثم أشعلت سيجارة وجلست إلى جوارها فوق كرسي حتى أدرس وجهها دراسة مستفيضة ، مقارناً إياه بكل وجوه « ميليسا » الأخرى والتي تزحم ذاكرتي والتي وطدت كيائها هناك . لم تكن تحمل أي شبه لأي منها . ومع ذلك فقد فاقتهم وكانت خاتمة لهم . إن هذا الوجه الأبيض الصغير كان الحلقة الأخيرة في سلسلة الوجوه التي عرفتھا لها . وبعد تلك النقطة هناك باب مغلق .

في مثل تلك الأوقات يتلمس المرء بادرة يمكن أن تماثل استرخاء الإرادة الرخامي الرهيب والذي يقرأه المرء على وجوه الموتى . ليس هناك من شيء في كل مخزون العواطف الإنسانية المهلهل . وقد كتب « الأرنأوطي » في سياق آخر : « كم هي مرعبة وجوه الحب الأربعة » . وعاهدت الشبح المسجي على الفراش بأني سأخذ الطفلة إن تركھا « نسيم » . وما إن انتهيت من هذا الاتفاق الصامت حتى قبلت جبينها العالي الشاحب وتركتھا لرعاية هؤلاء الذين سيلفونها ويرسلون بها إلى القبر . كنت مسروراً أن أغادر الحجرة ، أغادر صمتاً محكماً ومانعاً . إنني أعتقد أننا نحن الكتاب قوم قساة . الموتى لا يعاؤون . إن الأحياء هم الذين يمكن الإبقاء عليهم إذا استطعنا أن نحمل الرسالة التي ترقد مدفونة في أعماق التجربة الإنسانية .

(في الأيام الغابرة كانت تقوم السفن المبحرة والتي تحتاج إلى أن تثقل نفسها لتواجه البحر ، بجمع السلاحف البرية من اليابسة وملء براميل كبيرة بها وهي حية . وقد تباع تلك التي تنجو من الرحلة الرهيبة إلى الأطفال كحيوانات أليفة . أما أجساد البقية المتعفنة فقد كانت تفرغ في مواني الهند

الشرقية . وأصبحت كمياتها هناك أكثر من كمياتها في الأماكن التي جاءت منها) .

سرت في المدينة في خفة دون جهد كسجين هارب . وكان عينا « منمجان » البنفسجية مليئة بدموع بنفسجية عندما عانقني في حرارة . وقرر أن يطلق لي ذقني بنفسه ، كانت كل حركة من حركاته تعبر عن التعاطف والعزاء والرقعة . وفي الخارج فوق الأرصفة مشى أهل « الإسكندرية » يغمروهم ضوء الشمس وكل منهم حبيس عالم من العلاقات الشخصية والمخاوف . ومع ذلك فقد بدا كل منهم غريباً غريبة لا نهاية لها عما يشغل بالي من مشاعر وأفكار . كان المدينة تنبسم في لا مبالاة تحطم الفؤاد ، كعاهرة أنعشها الظلام .

لم يبق غير شيء واحد أقوم به الآن ، أن أرى « نسيم » . وارتحت عندما علمت أنه ينتظر عودته إلى المدينة ، ذلك المساء . هنا أيضاً كان الزمن يخزن لي مفاجأة أخرى ، لأن « نسيم » الذي عاش في ذكرياتي لمدة عامين من قبل قد تغير .

كان قد هرم كامراً — وتضخم وجهه وردفاه . كان يسير الآن وقد وزع ثقله على سطح قدمية بطريقة مريحة وكان جسده قد عانى الحمل مرات عديدة . واختفت تلك الرشاقة الغربية التي كانت تتميز بها خطاه . فضلاً عن ذلك فقد غدا يشع فتنة فيها رخاوة متمزج بالهم والقلق مما جعلني لا أتعرف عليه في بادئ الأمر . وقد سيطرت عليه نزعة تسلط حمقاء محل حياته القديم الذي كان يبعث السرور في النفس .

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لأضع يدي على تلك الانطباعات الجديدة وأفحصها عندما اقترح أن نزور « الإيتوال » سويًا . ذلك النادي الليلي الذي كانت ترقص فيه « ميليسا » . وأضاف أن أصحاب النادي قد تغيروا ، وكان هذا التغيير يبرر زيارتنا للملهى في نفس الليلة التي شيعت فيها جنازتها . ووافقت دون تردد لقد كنت مصعوقاً ومدهوشاً يحفزني فضول لمعرفة

مشاعره هو ورغبة في مناقشة المشكلة التي تخص الطفلة .

وعندما هبطنا السلم الضيق الخائق إلى ضوء المكان الساطع انطلقت صرخة وهرعت البنات إليه من كل ركن كالصراصير . وظهر أنه معروف لهن الآن معرفة جيدة كزبون للمكان . وفتح ذراعية بصيحة ضاحكة ، واستدار لي وهو يفعل ذلك لأقر تصرفه . ثم تناول أديديهن واحدة بعد الأخرى وكان يضغطها بطريقة شهوانية إلى جيب سترته الواقع على صدره حتى . يمكنهن تحسس محفظته المحشوة بأوراق البنكنوت والتي يحفلها الآن . وذكرتني هذه الحركة في الحال ، كيف أمسكت امرأة حامل اعترضت طريقي ذات ليلة في شوارع المدينة المظلمة بيدي عندما حاولت أن أهرب منها ، وكأنها كانت يسعى لإعطائي فكرة عن المتعة التي تعرضها عليّ (أو ربما لتأكيد حاجتها) ، ووضعتها فوق بطنها المنتفخة . وتذكرت فجأة وأنا أراقب « نسيم » الآن ، دقات قلب الجنين المرتجفة وهو في شهره الثامن .

من الصعب أن أصف كيف وجدت أن الجلوس إلى جوار هذا الشبيه السوقي « لنسيم » الذي عرفته ذات مرة ، أمر غريب يستحيل التعبير عنه . وأخذت أرقبه بدقة غير أنه تجنب نظراتي إليه وحصر حديثه في توافه ثقيلة كان يقطعها بتثاؤبه المتصل والذي كان يداريه خلف أصابع مرصعة بالخواتم . ومع ذلك فقد كانت تظهر ما بين الفينة والأخرى من خلف هذه الواجهة الجديدة لمحة من حياته القديم ، غير أنه الآن مدفون - كما يدفن قوام جميل في جبل من السمنة . ولقد أسر لي « زولتان » النادل في حجرة الغسيل : « لقد استعاد ذاته الحقيقية منذ هجرته زوجته . إن كل « الإسكندرية » تقول ذلك » . والخيفة أنه قد غدا مثل كل ما في « الإسكندرية » .

واستولت عليه في ساعة متأخرة من تلك الليلة نزوة في أن يتوجه بي إلى المنزلة في ضوء القمر المتأخر ، وجلسنا في السيارة صامتين لمدة طويلة ، ندخن ، ونحلق إلى الخارج في الأمواج التي تحلج عبر كئبان الرمال وقد أضاءها نور

القمر . لقد أدركت حقيقته خلال هذا الصمت . إنه في الحقيقة لم يتغير في أعماقه . لقد تخذ لنفسه قناعاً جديداً فقط .

* * *

وتلقيت في أوائل الصيف رسالة طويلة من « كليا » يمكن أن نختم بها هذه المقدمة التذكارية القصيرة عن « الإسكندرية » .

« ربما تكون مهتماً بتقرير مني عن لقاء قصير تم بيني وبين « جوستين » منذ أسابيع قليلة . لقد كنا منذ فترة مضت ، كما تعرف ، نتبادل البطاقات في المناسبات كل من البلد التي تنتسب إليه ، وعندما عرفت « جوستين » أنه ينتظر مروري « بفلسطين » في طريقي إلى « سوريا » اقترحت أن نلتقي لقاء قصيراً . وقالت إنها ستأتي إلى محطة الحدود حيث يتوقف قطار « حيفا » لمدة نصف ساعة . إن المستعمرة التي تعمل بها تقع على مقربة من المكان . وفي وسعها أن تجد من يوصلها . وإننا سنتكلم لمدة قصيرة على رصيف المحطة . فوافقت على ذلك .

« وقد وجدت في بادئ الأمر صعوبة في التعرف عليها . لقد سمن وجهها كثيراً ، وقصت شعرها من الخلف بطريقة مهمة حتى أنه كان ملتصقاً ببعضه كذئب الفأر . وفي اعتقادي أنها تضمه أغلب الوقت بقطعة من القماش . لم يعد هناك أثر لرشاقة و « شياكة » الماضي . وتبدو تقاطيعها وقد اتسعت ، تقاطيع يهودية كلاسيكية ، الشفاه والأنف يميلان أكثر فأكثر نحو بعضعهما البعض . ولقد صدمت في بادئ الأمر بعينيها اللامعتين وبالطريقة السريعة الصارمة التي تتنفس وتتحدث بها - وكأنها محمومة . وكما في وسعك أن تتصور ، فقد كنا خجلتين كلأ من الأخرى خجلاً قاتلاً .

« وسرنا خارج المحطة على طول الطريق وجلسنا عند حافة واد ضيق جاف ، وتحت أقدامنا بعض زهور الربيع التي كانت تطل برأسها في خوف وأحسست بانطباع أن اختيارها هذا المكان للقائنا ربما تم لكأبته التي تناسب كأبة اللقاء .

إنني لا أدري . أنها لم تذكر « نسيم » أو تذكرك في بادئ الأمر ، ولكنها تكلمت فقط عن حياتها الجديدة . وادعت أنها قد حققت سعادة كاملة جديدة ، من خلال قيامها « بالخدمة الاجتماعية » . وأوحت لي الطريقة التي تحدثت به عن نوع من الهداية الدينية . لا تبتسم . إنه لأمر صعب ، كما أعرف أن تكون حليماً مع الضعيف . إنها تدعى بأنها قد حققت من ذلك الجهد الذي يقصم الظهر في المستعمرة الجماعية « تواضع جديد » (تواضع ! الفخ الأخير الذي يترقب الأنا في بحثها عن الحقيقة المطلقة . وأحسست بالتفرز ولكنني لم أقل شيئاً) . ووصفت العمل في المستعمرة بطريقة خشنة خالية من الخيال ، كما يفعل أي فلاح . ولأحظت أن يديها اللتين كانتا تعتني بهما في الماضي عناية فائقة قد أصبحتا غليظتين خشنتين . وقلت لنفسي وأنا أحس الخجل إذ لا بد أنني كنت أشع نظافة وراحة ، غذاء واستحماماً ، قلت إنني أعتقد أن للناس الحق في أن يتصرفوا في أجسادهم بالطريقة التي تروق لهم ، وبالمناسبة فهي لم تصبح ماركسية بعد ، إنها روحانية على طريقة « بنايوتس » في « أبو الصير » . ولقد وجدت وأنا أراقبها الآن وأتذكر الإنسانية التي كانت ذات يوم ، الإنسانية المذبذبة لنا جميعاً ، إنه من الصعب فهم التغير الذي أصاب تلك الصغيرة المكتنزة ذات المخالب الصلبة .

« إنني أعتقد أن الأحداث ما هي إلا تفسير لمشاعرنا — يمكن أن تقودنا واحدة منها إلى الأخرى . الزمن يحملنا (إذا تخيلنا في جراحة أننا شخصيات متميزة ، نشكل بإرادتنا مستقبلنا الشخصي) — الزمن يحملنا إلى الأمام بقوة تلك المشاعر التي تعيش في أعماقنا والتي لا نعى عنها إلا القليل . هل الأمر مبهم بالنسبة إليها إلى هذا الحد ؟ إذا فقد عبرت عن الفكرة بطريقة سيئة ... أقصد أن « جوستين » ، وقد شغيت من الخلل العقلي الذي جلبته لها أحلامها ، ومخاوفها ، انكلمت كما تنكش الغرارة . لقد شغلت النزوات الجزء الظاهر من حياتها فترة طويلة حتى أنها جردت الآن من كل مخزونها . إن موت « كابوديستريا » لم

يكن وحده هو الذي أزاح الممثل الرئيسي في هذه التمثيلية الوهمية ، أزاح سجانها الاساسي . إن مرضها الذي كان دافع حركتها قد ترك محله ، عندما انتهى ، شعوراً كاملاً بالإرهاق . ويمكن القول أنها قد أخدمت في نفسها دوافع الحياة وحتى شلعة عقلها مع خمود رغباتها الجنسية . إن الناس الذين يدفعون هكذا إلى أقصى أماد الإرادة الحرة يجبرون في مكان ما على طلب العون لاتخاذ قرارات حاسمة . ولو لم تكن « جوستين » سكندرية أي (متشككة) لاتخذ هذا الامر مظهر الهداية الدينية . كيف يمكن للمرء أن يعبر عن هذه الأشياء ؟ إن القضية ليست قضية نمو المرء ليغدو سعيداً أو تقيساً . إن جزءاً كاملاً من حياة امرئ يسقط في البحر فجأة . ربما كما حدث لك مع « ميليسا » . غير أن (فهكذا تجري الحياة ، قانون الجزاء الذي يمنح الخير للشر والشر للخير) عتقها هي إنما هو عتق أيضاً « لنسيم » من المواقع التي تحكم حياته العاطفية . إنني أعتقد أنه قد أحس دائماً بأنه طالما عاشت « جوستين » فإنه لن يقدر على احتمال أبسط علاقة إنسانية مع أي واحدة أخرى . غير أن « ميليسا » قد برهنت له على خطئه ، أو على الأقل فإنه قد اعتقد ذلك - إلا أن آلام قلبه القديمة انطلقت مع رحيل « جوستين » وامتلاّت نفسه بتقزز شامل مما فعله - مع « ميليسا » .

« العشاق ليسو على الإطلاق أنداداً - إلا تعتقد ذلك ؟ إن أحدهم يحجب الآخر دائماً ويوقف نموه أو نموها حتى أن المحبوب تؤرقه دائماً الرغبة في أن يهرب . في أن يكون حراً وينمو . إن هذا بالتأكيد هو الشيء المأساوي الوحيد في الحب ؟

ولو كان « نسيم » من ناحية أخرى هو الذي خطط مقتل « كابوديستريا » (كما انتشرت الإشاعة وصدقت) فإنه يكون بذلك قد اختار أكثر السبل شؤماً . والحقيقة أنه كان من الأحكم لو قتلك أنت . ربما كان يأمل في أن يخلص « جوستين » من الشبح (كما حاول « الأرنأؤوطي » من قبله) يخلصها من أجله هو . (هذا ما قاله مرة - وأنت الذي أخبرتني) . غير أن ما حدث هوا

العكس تماماً . لقد منحها بما فعل نوعاً من المغفرة والإبراء ، أو أن «كابوديستريا» المسكين هو الذي منحها ذلك دون قصد منه - والنتيجة أنها لم تعد تفكر فيه الآن كحبيب ولكن كرئيس قساوسة : إنها تتحدث عنه في إجلال سوف يربعه إن سمعه .

إنها لن تعود أبداً ، وكيف يمكن لها أن تفعل ذلك ! ولو فعلت لأدرك للتوأنه قد فقدوها إلى الأبد - لأن هؤلاء الذين يقفون منا موقف المعترف لنا لا يمكنهم أن يحبونا ، إنهم لا يحبوننا البتة حباً حقيقياً .

« (أما عنك فقد قالت «جوستين» في بساطة وبهزة خفيفة من كتفها . «كان على أن أقصيه عن تفكيري») .

« حسناً ، تلك هي بعض الأفكار التي جالت بخاطري بينما حملني القطار عبر بيارات البرتقال إلى الشاطئ . لقد تحدثت معالم تلك الأفكار بصورة قاطعة بمعاونة الكتاب الذي اخترته كي أقرأه خلال الرحلة ، إنه الجزء الأخير من كتاب «الله يحب الفكاهة» . لكم ارتفعت مكانة «بورسواردن» بعد موته ، وكأننا كان يقف فيما مضي حائلاً بين كتبه وبين فهمنا لها . إنني أرى الآن أن ما كنا نراه غامضاً في هذا الرجل إنما يرجع إلى خطأ في نفوسنا نحن . إن الفنان لا يحيا مثلنا حياة خاصة ، إنه يخفيها ، ويرغمنا أن نبحث في كتبه إن شئنا أن نلمس المنبع الحقيقي لأحاسيسه . فتحت كل اهتماماته بالجنس والمجتمع والدين .. إلخ (كل التجريدات الأساسية التي تسمح بالثرثرة للجزء الأمامي من المخ) هناك في بساطة شديدة رجل يتعذب فوق ما يحتمل لافتقاد هذا العالم إلى المعاملة الرقيقة .

« وتعود بي كل تلك الأمور إلى نفسي ، لأنني أنا أيضاً أعاني تغييراً غريباً . إن الحياة القديمة القانعة المكتفية بذاتها قد تحولت إلى شيء أجوف بعض الشيء ، فارغ بعض الشيء . إنها لم تعد تستجيب لأعمق احتياجاتي . ففي مكان ما في أعماق نفسي يبدو أن تياراً قد تحول طبيعتي . لا أدري لما ، ولكن أفكاري ، يا

صديقي العزيز ، قد تحولت أخيراً أكثر فأكثر نحوك ، هل في وسعي أن أكون صريحة ؟ هل يمكن أن توجد صداقة ينشدها المرء ويعتمد عليها في هذا الجانب من الحب ؟ إننى لن أتكلم أكثر من هذا عن الحب - فقد غدت الكلمة وما تحمله من اصطلاحات كريهة إلى نفسي . ولكن هل توجد صداقة يمكن أن ينالها المرء أكثر عمقاً من ذلك ، عميقة بلا حدود ، ومع ذلك فهي صداقة بلا كلمات أو أفكار ؟ يبدو - على نحو ما - أنه من الضروري أن يجد المرء إنساناً يخلص له . لا في الجسد (فانا أترك هذا للقساوسة) ولكن في الفكر الذي يحس اللوم والتأنيب ؟ ولكن ربما لا تكون مثل هذه المشكلة من النوع الذي يثير اهتمامك كثيراً في هذه الأيام . لقد أحسست مرة أو مرتين بالرغبة السخيفة في أن أحضر إليك وأقدم خدماتي في العناية بالطفلة . ولكن يبدو واضحاً الآن أنك لم تعد في الحقيقة تريد أحداً ، وأنتك تضع وحدتك فوق كل شيء »

وهناك بعض السطور الأخرى ثم الخاتمة العاطفية .



الحشرات المجنحة والتي يشبه صوتها الزقزقة تخفق في السهول الشاسعة ، والبحر المتوسط يمتد في الصيف أمامي بكل زرقاته الخلابة . هناك في مكان ما خلف خط الأفق الخفاق الأرجواني الفاتح ترقد « إفريقيا » ، ترقد « الإسكندرية » تمسك بقبضتها الرقيقة عواطف المرء خلال ذكريات أخذت تعود في ببطء إلى عالم النسيان ، ذكريات أصدقاء وأحداث مضت منذ زمن بعيد إن البطء الوهمي للزمن يأخذ في الضغط عليها ، في طمس معالمها - حتى أنني أتساءل أحياناً عما إذا كانت تلك الصفحات تسجل أفعال أناس حقيقيين ، أو أنها ليست في بساطة قصة أشياء قليلة خالية من الحياة أحاطتهم بمأساة أقامتها حولهم - أعني عصابة سوداء ، غطاء أخضر من المطاط ، مفتاح ساعة ، وزوج من خواتم الزواج سلبت من صاحبها

وسرعان ما يحل الظلام وتغطي نجوم الصيف سماء الليل الصافية
فتملؤها.

سأكون هنا ، كما كنت دائماً ، أدخن إلى جوار الماء . لقد قررت أن أترك
خطاب « كليا » الأخير دون رد . لم أعد أرغب في أن أفرض إرادتي على أحد ، في
أن أفكر في الحياة على أساس من العهود والقرارات والشروط . سيكون الأمر
« لكليا » في أن تفسر صمتي طبقاً لحاجتها ورغباتها ، في أن تحضر إلى إن شاءت
أو لا تحضر ، حسبما يترأى لها . ألا يتوقف كل شيء على تفسيرنا للصمت
الذي يحيط بنا ؟ .

عن الروايات المدهشة

.. ما من رواية تجاوزت شهرتها اسم صاحبها . قبل رباعية الاسكندرية لمبدعها لورانس داريل . بل إنه لا يذكر اسمه إلا متبوعاً بها لدرجة أنه تولد إحساس أنها تكمل اسمه . وإن ذكر بعيداً عنها يترك الإحساس أن ثمة أمراً من الأمور ما زال ناقصاً .

رباعية الاسكندرية ليست نصاً روائياً فذا وفريداً فقط . لقد تحولت مع مرور الوقت إلى علامة فارقة في الابداع الروائي . لدرجة أنه يمكن القول أن هناك ما قبل الاسكندرية وما بعدها .

وسيقى من الصعب إحصاء النصوص الروائية التي خرجت من معطف هذا الاثر البديع من آداب العالم المختلفة . ومن بينها الأدب العربي الروائي المعاصر . فقد كان هذا النص فتحاً جديداً وهاماً في الكتابة الروائية ويمكن القول - دون الابتعاد عن الحقيقة - أن هذا النص يعد من أهم النصوص الروائية في قرننا العشرين كله .

ليست هذه هي المرة الأولى التي يترجم فيها . ولكنها المرة الأولى التي يترجم فيها كاملاً . من الكلمة الأولى وحتى الأخيرة .

والمحاولات السابقة لترجمة هذا الاثر . تمت على النحو التالي . من ابريل «نيسان» سنة ١٩٦١ . صدرت الرواية الأولى «جوستين» عن دار الطليعة في بيروت بالعربية . وكانت قد ترجمتها الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي . وفي نوفمبر «تشرين الثاني» سنة ١٩٦٢ أصدرت نفس الدار الرواية الثانية من

الرباعية لنفس المترجمة . ثم توقف المشروع ولم يكتمل رغم مرور ثلاثون عاماً على المحاولة .

وفي سنة ١٩٦٩ أصدرت دار المعارف بمصر . ترجمة أخرى للرواية الأولى من الرباعية . قام بترجمتها إلى العربية الدكتور فخري لبيب . ولكن السنوات مرت دون اكمال هذا النص العذب .

هذه المرة ستصدر الأجزاء الثلاثة الأخرى . تباعاً حتى يكتمل هذا الأثر . للمرة الأولى في المكتبة العربية ويكون في متناول أيادي أجيال طالعة من المثقفين والقراء لم تعاصر محاولات الترجمة السابقة .

وصاحب هذا العمل . يقال عنه أنه كاتب إنجليزي من باب التجاوز . فقد ولد في منطقة الهملايا في الهند سنة ١٩١٢ لأب إنجليزي من أصل إيرلندي وتعلم في مدارسها وقضى السنوات العشر الأولى من عمره فيها وإن كان قد عاش في بريطانيا سنوات المراهقة . ومقدمات الشباب . فإنه سرعان ما غادرها لكي يعمل صحفياً ودبلوماسياً في باريس والقاهرة واليونان وأودس وبلجراد . وفي سنة ١٩٥٧ استقر نهائياً في فرنسا . إلى أن مات في العام الماضي . وقد قضي عمره كله رافضاً للحضارة الأوروبية وتمرّداً عليها حيث وجد في الشرق فردوسه المفقود . وفي الشرق اكتشف حقيقة موهبته الأدبية المتألفة .

أصدر داريل في حياته حوالى سبعين كتاباً ما بين الشعر والقصة والرواية وأدب الرحلات . وفي كل كتاباته وقف في منتصف المسافة بين الشعر والنثر لدرجة أنه من الصعب معرفة أين ينتهي الشعر في كتاباته وأين يبدأ النثر . وخلال الثلاثينات كرس داريل مواهبه للشعر الذي اكتسب كثيراً من الاستحسان والمديح وإن كانت سنوات الحرب العالمية الثانية قد عرقلت مؤقتاً تطوره الأدبي .

وعلى الرغم من أن ميوله السياسية والفكرية أقرب إلى المحافظة . إلا أن كتاباته تعد مغامرة فنية فريدة في أعماله الروائية اكتشف مدهش لعبقريّة

المكان ، وتداخل للأحداث . واختراق للضمائر : مع سيولة في الزمان والمكان معاً . وتأكيد على استحالة الاحاطة بكافة جوانب أي حدث ما . إلا من زوايا رؤيا متعددة ومختلفة . فداثماً هناك ظلال أخرى في الجانب الآخر من الحدث . لا توجد حقيقة مطلقة أبداً . والحقيقة لا بد وأن تكون نسبية .

« الكتاب الاسود » . كانت أول رواياته . وقد نشرها سنة ١٩٣٨ . وإن كان لم يتم تداولها في بريطانيا سوى في سنة ١٩٣٧ . بسبب الإباحية المنتشرة فيها . وقد قدمها : ت . س . اليوت بإعتبارها واحدة من أهم أعمال الرواية الإنجليزية الحديثة .

ومهما تنوعت أعماله فيبقى داريل كاتباً غريباً يكتب عن الشرق . ولذلك ثمة حالات تصوف . وطيوف خيالات رحالة . وقدرة لا تنفد على الاندهاش عند رؤية أي شيء تقع عليه العين في هذه البلاد الغريبة .

« جوستين » هي الرواية الأولى . والروايات الثلاث الأخرى هي : « بلتازار » ، « ماونت أوليف » و « كليا » . والروايات الثلاث الأولى ليست متتابعة ولكنها متجاورة . فيها الأحداث نفسها تقريباً . حيث الإسكندرية قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة والرواية الرابعة والأخيرة تغطي تطورات الأحداث خلال هذه الحرب وقد صدرت جوستين لأول مرة سنة ١٩٥٧ . وتوالى ظهور الرباعية . بلتازار ١٩٥٨ . مونتليف ١٩٥٩ . كليا ١٩٦٠ وكان مكتوباً عليها لا توزع في المملكة المتحدة .

هنرى ميلر يقول عن داريل إنه سيد الأدب الانجليزي وعن رائعته الاسكندرية أنها أهم أثر أدبي من القرن العشرين . ونقاد الأدب يعتبرونه أحد البناة العظام للفن الروائي في زماننا ويضعونه في نفس مكان مارسيل بروست وجيمس جويس .

حيث قام الثلاثة . كل بمفرده بهدم دعائم الكتابة القديمة وأرسى كل واحد منهم - في نفس الوقت - كتابة أخرى مغايرة تماماً . مشكلة خروجاً حقيقياً على

ما كان سائداً في الحكى والقص . ولذلك يعتبر داريل أحد رواد التجديد الأدبي في الكتابه الروائية في القرن العشرين .

لا مفر من التوقف أمام النص بعيد عن الاعجاب الشديد به . الذي يستحقه . لم يعجبني من هذه الرواية ، اتجاهها غير العادي نحو الأجانب .. بكل هذا الانجذاب وشحوب ابناء الوطن وحضورهم الباهت . لذلك فإن عين الروائي لم تر مصر بكل ما فيها ولم تستطع الهجرة خطوة واحدة بعيداً عن الإسكندرية . ولم ير في الإسكندرية سوى الأجانب . ومن هم على هامش حياتهم من المصريين . وظلت رؤيته للإسكندرية رؤية سياحية . رغم براعته الفنية التي لا يمكن انكارها أو التقليل منها .

ألمني عند القراءة كل هذا التركيز على الذباب والقذارة والاهمال . عند وصف المدينة . لأن العين التي رأت هذا . كانت تخلو نظراتها من أبجدية التعاطف والحب .

كذلك لم استرح لجوستين اليهودية التي تهرب من مصر إلى فلسطين هرباً من اقتضاح امر زوجها نسيم في الإسكندرية كتاجر سلاح يهربه إلى اليهود في فلسطين .

على أن الرواية لا بد وأن تحرك فينا — خاصة الروائيين من أبناء الإسكندرية — تلك الغيرة الصحية الخلاقة فقد اعاد داريل خلق المدينة بقدرة فنية فذة . وطوال صفحات الرواية نجد الإسكندرية التي تحولت من مدينة إلى كائن حي . له حضوره الذي لا يقل عن حضور البشر أنفسهم .

لدرجة أن المكان يصبح بعداً جديداً من الحكى والقص . وخلال هذا التفاعل نلمح بين السطور ذلك الوعي التاريخي بالمدينة والايحاءات الكثيرة . التي تثيرها في النفس .

وبصراحة . فإن كل هذا أو بعضه لا نجده في كتابات الذين قضوا أعمارهم كلها في الإسكندرية . ويبدو أن ألفه الحياة اليومية تفقدنا القدرة على الاندهاش .

وبالتالي تجعلنا نرى في كل الأمور غير العادية . انها أصبحت من الأمور العادية تماماً .

لدينا كتابات عذبة عن الإسكندرية . ولكن للأسف .. وهذه ظاهرة تستحق الدراسة والاهتمام . فإن أصحاب هذه الكتابات إما أجانب . أو مصريين ليسوا من أبناء الإسكندرية . زاروها . وترددوا عليها . ولكنهم لم يعيشوا فيها فترات طويلة من أعمارهم .

إن الغريب يشرب المرثيات ويسمع حتى ديبب النمل . في حين أن ابن البلد . يتألف مع الأشياء . ويرها ضمن سوقية الحياة اليومية وتفاهتها وعاديتها . وينزع عنها اشراقات الشعر وبهاء الأسطورة . وقداسة الأماكن التي لا يمكن أن نعيش فيها أعمارنا كلها .

هذا عن الرواية والروائي . أما المترجم الدكتور فخرى لبيب . فقد قدمته لنا من قبل أعماله . عند ما قرأنا هذه الرواية من طبعة سابقة . أضاف إليها ونقحها وزادها بهاءاً في هذه الطبعة . وعندما قرأنا له ترجمته الرائعة لرواية : « غربان بين ذئاب » ليرونو أبيتز حيث تتفوق ترجماته على التفوق نفسه .

تبقى سلسلة روايات معاصرة . التي نحاول من خلالها أن نقدم كل ما هو جديد ومتميز من النتاج الروائي المصري والعربي والعالمي المترجم . يتم هذا في وقت تتربع فيه الرواية على عرش الوجدان العربي والعالمي . كتابه ونشرًا وقراءة ومتابعة . حيث تحاول القيام بدور معاصر لشهرزاد القديمة .

هذا زمان الرواية في بلادنا وفي أجزاء أخرى كثيرة من العالم . وفي الزمان الروائي . نحاول أن نقدم النصوص الروائية مؤلفة أو مترجمة . التي تعكس توهج وتألق هذا الفن الذي أصبح علامة على العصر ..

وعندما نقول إن الرواية هي ديوان العرب الآن . نتكى في هذا على حقائق ثابتة وأساسية في ميادين القص الروائي . ابتداء من فوران الابداع وصولاً إلى الاقبال منقطع النظير على الرواية الآن .

يوسف القعيد

الفهرس

٩ : الجزء الاول
٩٧ : الجزء الثاني
٢٦١ : الجزء الثالث
٢٤٩ : الجزء الرابع

هذه الرواية

● ملحمة القرن العشرين ، وواحدة من أهم الروايات التي صدرت في هذا القرن . هي الرواية الأولى من رباعية الإسكندرية الشهيرة . التي تعد درة انتاج صاحبها رغم غزارته .

كان صدورها . علامة فارقة من تاريخ الكتابة الروائية . وقد تركت أثرها الكاسح في الكتابات الروائية التي جاءت بعدها . ويمكن تحديد حوالى عشر روايات هامة في الأدب العربي المعاصر ما كان يمكن أن تكتب . لو لم تكن رباعية الإسكندرية .

شكلت هذه الرواية الدقات الأولى التي أنهت زمان الكتابة التقليدية المستقرة . وفتحت الأفاق أمام مغامرة فنية في القص ما زالت اصداؤها تتلألأ يوماً بعد الآخر .

ها هم أبطال النص . دارلي . ميلسيا . جوستين اليهودية المتزوجة من نسيم المصري . التي تهرب إلى فلسطين لكى تعمل هناك من أحد الكبوترات .

لكن في الأجزاء التالية نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام الجوانب الأخرى للصورة .

هذا الروائي

قال عنه هنري ميللر . سيد الأدب الانجليزي . ويضعه نقاد الأدب في نفس مكان: جيمس جويس ومارسيل بروسث باعتبار أن الثلاثة آباء شرعيين للتجديد الأدبي الذي كان من سمات قرننا العشرين . ولد في الهند سنة ١٩١٢ ورحل عن عالمنا في العام الماضي . وترك لنا حوالى سبعين كتابا في الرواية والقصة وأدب الرحلات .

لورانس داريل غربي رفض حضارة الغرب . وعاش في شرق المتوسط . وكتب عنه ولذلك تنشرت في أعماله رواثع صوفية ، وظلال رؤية رحاله . وفي كل الأحوال . فقد رأى الدنيا بقدر كبير ومستمر من الدهشة . وتحولت هذه الدهشة إلى تجديد لا نهاية له في كل حرف كتبه .

وإن كان هناك كاتب ارتبطت حياته بقرننا العشرين ، بدأ معه . ومات مع غروبه . وجسد في كتاباته كل أحلامه . فإن هذا الكاتب هو لورانس داريل دون سواه .

العدد القادم

بلتازار

الرواية الثانية من رباعية الإسكندرية

لورانس داريل

لورانس داريل

لورانس داريل ، مواطن بريطاني من أصل إيرلندي ، ولد في منطقة الهملايا في الهند ، حيث قضى سنواته العشر الأولى . قرر بعد أن أنهى دراسته في إنجلترا أن يصبح كاتبًا . كرس كل مواهبه خلال الثلاثينيات لشعره الذي حظى بكثير من الاستحسان . نشر له في باريس عام ١٩٣٨ «الكتاب الأسود» ، الذي كتب عنه ت . س . إلوت ، باعتباره واحدًا من الأعمال الكبار للرواية الإنجليزية الحديثة . نشر «الكتاب الأسود» لأول مرة في الولايات المتحدة ، عام ١٩٦٠ .

واعترضت الحرب العالمية الثانية ، مستقبل داريل الأدبي بصورة مؤقتة . خدم خلال سنوات الحرب ، ولبعض الوقت بريطانيا العظمى ، في مجالات رسمية ودبلوماسية مختلفة في أثينا . القاهرة ، رودس وبلغراد .

إن نشر جوستين عام ١٩٥٧ والظهور المتتالي لـ «بلتازار» (١٩٥٨) ، و«ماوت أوليف» (١٩٥٩) و«كليا» (١٩٦٠) ، كأجزاء في نفس السلسلة الرائعة المسماة «رباعية الإسكندرية» ، والتي كرسها لمناقشة مسألة الحب بمختلف صورته ، قد أدت ، وبصورة سريعة ، إلى أن يغدو داريل معروفًا باعتباره واحدًا من أكبر كتاب بريطانيا في الأزمنة الحديثة وأكثرهم أهمية .

دار سعاد الصباح

هيئة المستشارين :

د . جابر عصفور

أ . جمال الغيطاني

د. حسن الابراهيم

أ . حلمى التونى

د . سعد الدين ابراهيم

د . سمير سرحان

أ . يوسف القعيد

رقم الإيداع : ١٧٨٢/١٩٩٢

I.S.B.N. 977 - 00 - 2576 - 3

مطابع الشارقة

الطبعة ١٦ شارع حراد حصى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بتكرارات، ص ب . ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٨٦٥٩ - ٨١٧٧٦٤ - ٨١٧٢١٣

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع ..
هي مؤسسة ثقافية عربية
مسجلة بدولة الكويت
وجمهورية مصر العربية
وتهدف إلى نشر ما هو
جدير بالنشر من روائع
التراث العربي والثقافة
العربية المعاصرة والتجارب
الإبداعية للشباب العربي
من المحيط إلى الخليج وكذا
ترجمة ونشر روائع الثقافات
الأخرى حتى تكون في
متناول أبناء الأمة فهذه الدار
هي حلقة وصل بين التراث
والمعاصرة وبين كبار المبدعين
وشبابهم وهي نافذة للعرب
على العالم ونافذة للعالم على
الأمة العربية وتلتزم الدار
فيما تنشره بمعايير تضعها
هيئة مستقلة من كبار
المفكرين العرب في مجالات
الإبداع المختلفة.

دار سعاد الصباح

ص.ب. : ٢٧٢٨٠

الصفحة ١٣١٣٣ - الكويت

ص.ب. : ١٣ القطيف - القاهرة



دار سعاد الصباح